أهرام مصر

قلاع لا قبور

ير على شاكر

كتاب الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون. ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO-506 FE-1993

العدد ٥٠٦ ـ شعبان ـ فبراير ١٩٩٣

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش

التوزيع فى الجمهورية السورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ـ دمشق ـ تلكس ٤١١٩٣٩ ـ فاكس ٢١٠٥٣٢ ـ ١٠٠ ليرة/ لبنان ٨٥٠٠ ليرة/ الاردن ٢٤٠٠ فلس/ الكويت ١٢٥٠ فلساً/ السعودية ١٢ ريالاً/ تونس ٢ دينار/ المغرب ٢٥ درهماً/ البحرين ١,٢٠٠ دينار/ الدوحة ١٢ ريالاً/ دبى، أبو ظبى ١٢ درهماً/ مسقط ١,٢٠٠ ريال/ غزة والضفة والقدس ٢ دولار/ الجمهورية اليمنية ٥٠ ريالاً/ لندن ١,٥٠ جك.

أهرام مصر – قلاع لا قبور

نقد التاريخ المصرى القديم



تأليف

زهير علي شاكر

دار الهلال

الغلاف للفنان :

محمد أبو طالب

عن زهير وعمله

بقلم : عبد الرحمن شاكر

بسط زهير بين يدى مجموعة من أوراقه - وهو شقيق لى يصغرنى بسنوات من العمر - وقال لى : فى هذه الأوراق مجمل كتابى عن الهرم ، فإذا قدر لى أن أختفى ، فعليك أن تسعى فى إخراجه للناس - لأننى قد توصلت فيه إلى نتائج هامة ، أخشى أن يمر وقت طويل قبل أن يتوصل إليها غيرى ، أو لا يتوصل على الاطلاق ... كان ذلك قبيل توجهه إلى المستشفى لاجراء جراحة خطيرة لم يكتب له النجاة منها ، وقضى بعدها بأسبوع واحد إلى رحمة ربه .

وهكذا وقعت علىّ مسئولية إصدار هذا الكتاب ، الذى لم يكمله صاحبه ، ولم يكن بيدى أن أضيف إليه

شـيـئـا من عندى ، وان أكـتـفى بتـحـرير النص من المسودات التى تركها .

لقد كان زهير مهندسا ناجحا فى عمله ، وكان إلى ذلك قارئا متبحرا ، ذا ولع خاص بالتاريخ المصرى ، وقد قادته ثقافته المزدوجة ، العلمية والأدبية ، إلى رؤية خاصة لهذا التاريخ . فأهرام مصر - عنده - لم تبن لكى تكون قبورا للملوك ، وإنما هى قلاع نصبت للدفاع عن مصر ، وعن مدينة منف بالذات ، ضد هجمات البدو فى الصحراء النوبية ، حيث لا تقوم هضاب ولا جبال ، كما هو الحال فى الصحراء الشرقية .

كان ذلك هو الجزء الأهم من نظريته ، ولكنه استنفد وقتا طويلا فى كتابة القسم الأول التمهيدى من هذا الكتاب ، وهو نقد التاريخ المصرى القديم ، الذى تولى كتابة ووضع نظرياته الأساسية المؤلفون الأوربيون . أما بالنسبة للقسم الثانى من الكتاب ، وهو الذى سماه « ملحمة بناء الأهرام » فقد شغل نفسه طويلا فى حساب « بروفيلات » الأهرام ، حيث يعنى البروفيل

نطاق الرؤية من على قمة الهرم ، لأن المهمة الدفاعية للأهرام فى رأيه كانت تتمثل فى استخدامها للاستطلاع من ناحية وللرماية من ناحية أخرى . أما الذى حرره من هذا القسم ، فهو فصلان صغيران : الأول منهما هو نقد نظرية القبور ، وقد كتبه فى صورة بنود ساخرة من هذه النظرية . أما الفصل الثانى فهو رءوس مواضيع ، سماها برنامجا لما كان ينوى كتابته عن ملحمة بناء الأهرام ، ولكن القدر لم يمهله ليتمه ، ومع ذلك فهذا البرنامج فيه الكفاية لبيان وجهة نظره فى أن الأهرام قد بنيت لكى تكون قلاعا لاقبوراً .

لقد كان المؤلف رحمه الله ، ينوى أن يسمى كتابه هذا « بناء الأهرام واستراتيجية الدفاع عن مصر » ، ولكن نظرا لأن عمله فى هذا الصدد لم يكتمل ، فقد اخترت أن أطلق عليه اسم « أهرام مصر - قلاع لا قبور » - « نقد التاريخ المصرى القديم » . وفيما عدا ذلك فقد احتاج النص منى إلى بعض تعليقات صغيرة ميزتها عن هوامش المؤلف بتوقيعها بلفظة « المحرر» .

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أتوجه بواجب الشكر إلى الآنسة الفاضلة ، هدى السيد بكر ، التى ساعدتنى فى تحرير هذا النص واستخراجه من مسودات مشوشة بالغة التعقيد ، جزاها الله عنى وعن أخى رحمه الله - خير الجزاء .

عبد الرحمن شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كنت فى غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »

(قرآن كريم - سورة ق - الآية ٢٢)

الإهــداء

إلى روح الأثرى المصرى الوفىّ الأمين .....

المرحوم : محمد زكريا غنيم

« ز . ش »

تقديم

بيني وبين الهرم الأكبر :

كانت أول مرة إلتقيت فيها بالهرم الأكبر وجها لوجه ، فى الخمسينات من هذا القرن .

كنت قد أمضيت على هذه الأرض قرابة ربع قرن من الزمان ، وكان هو قد سلخ من عمره أربعين أو خمسين قرناً ، مرت عليه خلالها مئات الأجيال ممن أنبتتهم هذه الأرض التى يقف عليها ، من بينهم آلاف لا تحصى من آبائى وأجدادى ومواطنىّ . ومع ذلك فقد جاء لقاؤنا ذلك متأخراً جداً عما ينبغى . فقلما تجد شخصا من أهل القاهرة أو ما حولها - بل من مصر عامة - لم يذهب إلى منطقة الأهرام للنزهة أو السياحة أو المعرفة مرات عديدة فى طفولته وصباه ومطلع شبابه .

أما أنا فقد مضت سنو عمرى الخمس والعشرون دون أن أذهب إليه مرة واحدة . ولا أدرى على وجه التحديد السبب فى ذلك ، رغم

أنني ولدت ونشأت في القاهرة ، وتعلمت في جامعتها التي تقع على مرمى البصر منه ، ورغم أنني زرت كثيرا من المعالم والمزارات الأثرية ابتداء من سقارة إلى البرابي والمعابد والمناطق الأثرية الأخرى في أقاصي الصعيد . ومع ذلك لم يخطر لي أن أزوره مرة واحدة .

أم أنني كنت أعتبره – لقربه الشديد – شيئا مضمونا متاحا أستطيع أن أناله في أي وقت أشاء ؟ ربما ! فالنفس بطبيعتها تزهد في الشيء القريب وتطلب البعيد النائي المزار . حتى زيارتي الأولى هذه جاءت بطريق الصدفة ، جاءت غير مقصودة لذاتها . فقد كنت أرافق صديقا أجنبياً جاء إلى مصر في مهمة عمل قصيرة ، مهندسا شابا نمسوي الجنسية جاء ليسلم بعض مهمات شركته الألمانية في مديرية التحرير التي كنت أعمل بها . وقضينا معا بضعة أسابيع ربطت بيننا خلالها أواصر كثيرة من الزمالة والتلازم المستمر في العمل والمعيشة والمشارب المشتركة . حتى إذا حان موعد عودته إلى بلاده أصر على ألاّ يغادر مصر دون أن يزور الهرم الأكبر – على الأقل – من بين آثار مصر الكثيرة التي لم يتح له انشغاله في العمل فرصة زيارتها .

ورافقته في تلك الزيارة . وكان المفروض أن أكون دليله

السياحى ، فأنا المواطن ابن البلد وهو « الخواجه » الغريب السائح.
وتذكرت ونحن فى السيارة أن هذه أول مرة أزور فيها الهرم فأفضيت إليه بهذه الحقيقة ، وضحكنا كثيرا من غرابة الموقف ، وتندرنا بفكرة أن نتبادل المواقع فيكون هو الدليل وأكون أنا السائح ! .

ولكننى لم أكد أغادر السيارة وأقف تحت الهرم مباشرة ، وأرفع عينى إلى قمته ، حتى وجدت الضحكة قد تجمدت على شفتى ، وزالت عنى روح الفكاهة ، وحل محلها شعور بالانقباض لم أفهم له سببا فى ذلك الحين .

أن تسمع عن الهرم شىء ، وأن تراه رأى العين شىء آخر . أن ترى صورته فى المجلات والكتب والأفلام والبطاقات البريدية شىء وأن تقف تحته « بشحمه ولحمه » شىء آخر . أن تراه من مسافة بضعة كيلو مترات أو بضع مئات من الأمتار شىء ، وأن تجده يطل عليك بقامته الهائلة والتضاريس العميقة بين أحجاره الضخمة شىء آخر ! أن تعرف على وجه الدقة ارتفاعه الذى يجاوز ارتفاع ناطحة سحاب من خمسين دوراً ، وطول قاعدته الذى يزيد على طول قطار بضاعة من ثلاثين عربة ... شىء ، وأن ترفع بصرك على مهل حتى تكاد تقع على ظهرك قبل أن تدرك قمته .. شىء آخر مختلف تماما .

لا أجد ما أشبه به شعورى عند النظرة الأولى إلى الهرم الأكبر إلا شعور الانسان الذى نشأ فى مدينة داخلية ، عندما يرى البحر المالح لأول مرة ، يفاجأ بلونه المائل إلى الزرقة - ذلك اللون الفريد الذى تعجز حتى الصور الملونة عن الامساك به ، ويفاجأ بحركة أمواجه الدائبة المتلاحقة ، ويستوحش من إدراكه أنه لا ساحل له - لا كمثل النيل الذى تحفه الضفتان ، وتستغرب أنفه رائحته المميزة التى لا تشبهها أى رائحة من الروائح التى اعتاد أن يشمها فى مدينته الداخلية .

كذلك كانت جزئيا مشاعرى المتلاطمة عند رؤيتى الأولى للهرم الأكبر . لست أمام مجرد بناء ضخم أو أثر قديم ، وإنما أمام ظاهرة طبيعية أو كونية أو فلكية فريدة . تشعر بأن هناك شيئا ما خارقا للطبيعة ، شيئا لا يصدق ، كأنما هناك خطأ ما لا تدرك كنهه على وجه التحديد ، خطأ ما فى الزمان أو المكان أو الوجود نفسه ، إما أن الوجود غير الوجود أو الزمان غير الزمان ، أو أننى أنا نفسى غير نفسى التى أعرفها .

فهذا هو شعور الدهشة أو البهتة أو الذهول الذى انتابنى فى تلك اللحظة . أما شعور الانقباض والنفور فقد عجزت حينئذ عن تفسيره ، فلم أتبين ملامحه إلا فى طريق العودة ، بعد أن تعجلت

صاحبى فى أن يدع اللهو الطروب الذى استغرقه ، من ركوب الجمال وامتطاء الخيول المطهمة والتصوير وارتداء العقال .. الخ .. بحجة أن موعد طائرته قد اقترب ، وأن علينا أن نعجل بالذهاب إلى الفندق ليستعد إلى السفر .

لم تكد السيارة تهبط بنا هضبة الأهرام ، حتى وجدتنى أنظر خلفى إلى الهرم ، وهو يبتعد عنى شيئا فشيئاً ، فتختفى بالتدريج الخطوط الكثيرة التى تفصل بين صفوف حجارته ، ويتحول إلى الصورة التى اعتدت أن أراه فيها – مثلث ضخم يناطح الأفق فى جمال فريد لا يشبهه شىء آخر من معالم هذه الدنيا . وأدركت وقتها سبب نفورى وانقباضى .

إننى لا أكره الهرم نفسه ، وإنما أكره تلك الأحجار الهائلة التى يتكون منها .

هناك فرق بين الهرم وبين الظواهر الطبيعية – كالبحر أو الجبل أو البركان ، وهو أن الهرم ظاهرة من صنع الانسان – من صنع أجدادى أنا شخصيا وبالذات ، نحتوا أحجاره من الجبل ، وحملوها على ظهورهم ، وتكسرت تحتها أعناقهم وهم يرفعونها حجرا حجرا ، ويصفونها فى نظام محكم ، طبقة بعد طبقة ، حتى بلغوا بها ذلك الارتفاع المذهل .

وقفزت إلى ذاكرتي تلك الصور التي كان يتضمنها كتاب التاريخ المصور الذي درسناه في السنة الثانية الابتدائية ، والتي يظهر فيها العمال المصريون وهم يجرون حجراً ضخماً على زحافة خشبية مربوطة بالحبال ، ويجرها معهم عدد من الثيران ذات القرون الطويلة . ورجل يرتدي على رأسه « الطراحة » المصرية الشهيرة ، ويمسك بيده سوطاً ذا ثلاث شعب يلهب به ظهور الرجال والثيران على السـواء ، لكي يعجلوا بنقل الحجر إلى مكانه في البناء الهرمي الشـاهق ... الذي يقيمون به للملك الاله .. الفرعون .. قبرا يدفن فيه !

وتبين لي في تلك اللحظة أنني لم يفارقني قط الشعور بأن واحدا من هؤلاء الرجال الذين تمزق الحبال أكتافهم وتمزق السياط ظهورهم ، هو أحد أجدادي الكثيرين الذين خرجت من أصلابهم بعد آلاف السنين .

وبدأت أفهم سبب انقباضي وكآبتي ونفوري من الهرم الأكبر ، لقد تجسد أمامي لأول مرة ، وبعد أن بلغت ذلك العمر ، حجم الذل وثقل الخنوع وعمق الاهانة التي تتمثل في جرمه الهائل وارتفاعه الشامخ . ذل متكرر ملايين المرات في ملايين الأحجار ، ذل عرضه مئتان وخمسـون مترا وارتفاعه مائة وخمسون وعمره خمسة آلاف

سنة ، ووزنــه ملايين الأطنان ، شــعرت وقتها أننى أحملها كلها على كتفىّ !

ما الذى يدعونا إلى الاعتزاز والفخر بهذا النُّصُب ؟ أى اعتزاز فى أن يبنى شعب بأكمله ، طوال جيل بأكمله أوجيلين أو ثلاثة ، هذه البلوى الثقيلة ، لمجرد إرضاء نزوة شخص متجبر مغرور اسمه خوفو أو خفرع أو كائنا من كان ؟ وأى فخر هذا الذى نباهى به الأمم وندعوها لكى تتفرج عليه وتتنزه عنده وتركب الجمال والخيل فى سفحه ؟ خليق بنا أن نستر هذه العورة ونوارى هذه السوأة ونطمس هذا الخزى ، ونخفى عن العيون هذه الشهادة الدامغة على أننا شعب مجبول على الخضوع والخنوع منذ آلاف السنين !

●●●

ومضت سنوات على تلك الحادثة - تلك الزيارة الخاطفة للهرم الأكبر ، لم أحاول خلالها معاودة هذه التجربة الأليمة . ولكننى وجدت لدىّ - دون وعى كثير منى - اهتماما متزايدا بالحضارة والتاريخ المصرى القديم ، لا أكاد أجد كتابا عن المصريات ، أو مقالا فى مجلة علمية أو فى صحيفة ، إلا اقتنيته وقرأته باهتمام شديد واحتفظت به ، حتى اللغة المصرية القديمة عالجت تعلمها واستنطاق رموزها بينى وبين نفسى ، رغم أننى لم يفارقنى قط ذلك الشعور

القديم كلما ذكرت الهرم الأكبر ، ولم يفارقنى قط أيضا شعور غامض بأن هذه الأهرام يستحيل أن تكون مجرد قبور . وهذا أيضا من عجـــائب النفس البشرية ، تنجـذب إلى ما تكره انجذابها إلى ما تحب ، أو ربما أكثر . وتميل إلى الاقتــراب من الأشياء التى تشــعر بالنفور منها ، فتتفحصها وتتأملها عن كثب ، ربما لكى تتغلب على ذلك الشـــعور ، أو لكى تفهم كنهه ، أو تســتطيع التعايش معه .

ووجدتنى خلال تلك الفترة ، أتلمس الأعذار لأجدادى القدماء ، من بين ما تضمنته تلك الكتابات ، وأقول لنفسى إن بناءهم للأهرام لم يكن خضوعاً للملوك ذاتهم ، وإنما إيماناً بالديانة التى كانوا يعتنقونها ، والتى تنبنى على فكرة الخلود من ناحية ، وألوهية الملوك من ناحية أخرى ، أى أنهم كانوا يمجدون الإله فى صورة الملك ، ويعبرون عن تفانيهم وإخلاصهم لديانتهم فى حملهم الأحجار وتحملهم ضربات السياط لكى يبنوا الهرم .

ولكننى كنت أعرف أننا نضحك على أنفسنا بهذه الفكرة ، ونلتمس لهم عذرا هو أقبح من الذنب وأسخف ، خرجنا من الخنوع لانسان متجبر يأكل ويشرب ويبطش ويضر وينفع ، إلى الخضوع الأعمى لآلهة وثنية لا تأكل ولا تشرب ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا ،

مثل تلك البدوية القديمة التى أرادت أن تستر وجهها فكشفت عجيزتها .

ومضت سنوات أخرى .. صاهرت خلالها أسرة عاشت وتربت منذ أجيال فى حضن الأهرام وتحت أقدام أبى الهول ، أفرادها يعشقون الهرم عشقا ولا يعترفون بأى نزهة أو رحلة أو متعة إلا عند الهرم أو قريبا منه ، وتكررت زيارتى مع أسرتى الصغيرة وأصهارى إلى الهرم ، دخلته خلالها مرة – على ما أذكر – وطفت حوله وحول جيرانه من الأهرام الأخرى مرات عديدة . ولكن ذلك الشعور القديم وإن كانت حدته قد خفت قليلا ، إلا أنه لم يفارقنى قط .

وفى مرة من تلك المرات ذهبنا لنقضى يوما كاملا فى منطقة «صحارى سيتى » فى كوخ أو « شاليه » من تلك الشاليهات التى كانوا يؤجرونها باليوم لمن يريد قضاء اليوم هناك . وكان – على ما أذكر – يوما من أيام الربيع – ربما كان يوم شم النسيم نفسه . وقضينا النصف الأول من النهار فى اللهو والمرح واللعب على عادتنا . وعندما انتصف النهار ، أردت أن أصلى الظهر ، حوالى الساعة الثانية عشرة أو الثانية عشرة والنصف .

وظهرت أمامى مشكلة لم تخطر لى على بال : أين القبلة ؟ :

سألت الموجودين معى عنها فلم أجد إجابة شافية . فخرجت إلى الشرفة أبحث عن إنسان يتصادف أن يكون واقفا للصلاة فلم أجد . جلت بنظرى لعلنى أصادف مئذنة مسجد صغير يدلنى ووضع هلالها على اتجاه القبلة ، ولكن المكان كان كله شاليهات ليس بينها مسجد واحد . نظرت إلى السماء فوجدت الشمس فى كبدها تماما لا تدرى من أين أشرقت ولا إلى أين تميل للغروب . حيرة ! ثم وقع نظرى فجأة على الهرم القريب منا – وأظنه الأوسط بينى وبينه بضع مئات من الأمتار ، وخطوطه الرئيسية واضحة تماما . ووجدت نفسى أضحك من جهلى وقلة حيلتى . أمامك ياهذا « بوصلة » جاهزة ، تملأ الافق ، وأنت تبحث عن دليل يهديك إلى الاتجاهات الأصلية ؟ ! فهذه هى الاتجاهات الأصلية تحددها وجوه الهرم ، هذا هو الشرق وهذا هو الجنوب ، وبينهما بالضبط اتجاه القبلة !وصليت الظهر وأنا أغبط نفسى على هذه الفكرة الصائبة .

ومضت سنوات كثيرة أخرى ، سافرت خلالها إلى بلاد كثيرة من بلاد الدنيا الواسعة ، وزرت كثيرا من آثارها الشهيرة التى يحيطها أهلها باهتمام هائل ، ويغطونها تغطية إعلامية مستفيضة من الكتب والصور والأفلام والإحصاءات والمقاسات الدقيقة والتواريخ المفصلة. ولكننى لم أجد – بالطبع – شيئا شبيها أو قريبا أو يمكن مقارنته

ولو من بعيد بالهرم الأكبر : لا فى عظمة بنائه وضخامة حجمه وسحيق تاريخه ، ولا سخافة الغرض الذى بنى من أجله .. مجرد قبر لا جدوى منه ولا فائدة له .. إلا أن يدفن فيه إنسان ميت .

وخلال تلك السنين أيضا ، دأبت على هوايتى الأثيرة فى قراءة التاريخ المصرى القديم ، محاولا أن أتمثل صورة حية لذلك الشعب الذى عاش على هذه الأرض منذ الأزل فيما يبدو - والذى كان من إفرازاته هذا الهرم وإخوته الصغار .

وتكرر خلال تلك الفترة أيضاً ذهابى أنا وأسرتى الصغيرة إلى الاسكندرية ، والعودة منها بالسيارة . سالكين الطريق الصحراوى الذى أفضله لأسباب كثيرة عن الطريق الزراعى ، وفى مرة من تلك المرات ونحن فى طريق العودة ، وقد أوشكنا أن نصل إلى نهايته نام كل من معى فى السيارة مللا من طول المسافة ، فأخذت أسلى نفسى بأن أجيل النظر فى الأفق الفارغ المحيط بى ، حتى وقع بصرى فجأة على قمة الهرم الأكبر ، التى ظهرت أمامى على غير انتظار كأنما قفزت من الأرض ، بعد أن تجاوزت السيارة مرتفع « أبو رواش » . وخطر لى أن هذه الظاهرة تصلح أساساً للعبة ظريفة أسلى بها أولادى فى المرة القادمة . وسجلت فى ذاكرتى أقرب

قراءة لمسافة الطريق لـكى أعرف متى نقترب من مـكان ظهور قمـة الهـرم .

وجاءت المرة التالية بعد أسابيع قليلة . فعرضت عليهم لعبة سميتها « لعبة الهرم » ، طلبت منهم أن يراقبوا الأفق انتظاراً للحظة التى يظهر فيها الهرم ، وأن أول من يقول « هرم ! » - بعد أن تظهر قمة الهرم مباشرة - هو الفائز فى هذه اللعبة .

وتكررت الرحلة فى سنوات تالية ، كل مرة نلعب فيها هذه اللعبة التى أصبح أولادى ينتظرونها ويحرصون على ألا يناموا لكى يلعبوها ، إلى أن جاء يوم برق فيه أمامى تساؤل لم يخطر لى من قبل : أليس من الممكن أن القدماء أرادوا ببناء الهرم ، أن تكون له نفس الفائدة التى استخدمناها فى تلك اللعبة ولكن بصورة جدية ؟ - أن يكون منارة ؟ نعم منارة تهدى المسافر - مثلنا - عبر الصحراء أو عبر البحيرة الهائلة التى ينشؤها الفيضان فى منطقة مصر الوسطى القريبة من منطقة الأهرام ؟

لقد وجدنا لذلك الصرح ؛ من قبل - فائدة لا بأس بها هى أنه بوصلة عمومية متاحة لكل ذى بصر ، ثم عثرنا على فائدة أخرى : أنه منارة . أليس من الممكن أن يكون الغرض من بنائه - ولو جزئيا

– فوائد حضارية من هذا النوع – بجانب مسألة دفن الملك خوفو هـــذه؟

وما أن وصلنا حتى عكفت على كتب التاريخ المصرى القديم ، أراجع كل كلمة قرأتها فيها طوال السنوات الكثيرة الماضية ، على ضوء جديد ، مواصلاً ما كنت قد بدأته من تمثل صورة الحضارة المصرية القديمة باعتبارها كلا متماسكا مترابطا ، لا باعتبارها مجموعة متنافرة من الظواهر والأحداث المنفصلة المتفرقة .

وكان أول ما تبين لى هو العلاقة الوثيقة بين العصرين اللذين بنيت خلالهما الأهرام ، وهما الدولة القديمة والدولة الوسطى ، وبين عمليتين كبيرتين لاستصلاح الأراضى استغرقت كل واحدة منهما ما يزيد على مائتى عام – الأولى فى الدلتا بعد توحيد وجهى القطر المصرى فى دولة واحدة ، والثانية فى الفيوم أثناء عصر ملوك الفيوم – أو الدولة الوسطى أيضا بعد إعادة توحيد مصر تحت سلطة مركزية واحدة . وكان من الطبيعى أن أستنتج وجود علاقة بين توحيد الوجهين واستصلاح الأراضى من ناحية ، وبين بناء الأهرام من ناحية أخرى ، كانت فيها الأولى هى الهدف والثانية هى الوسيلة، الأولى هى المشروع الحضارى والثانية هى الجهاز الحضارى الذى يعين على تنفيذ المشروع مساحياً وهندسياً . وهو

ما سميته « الروبيرات المساحية » أى النقط الثابتة التى تتحدد وتقاس وترصد منها الارتفاعات والمسافات ، بالإضافة إلى الوظائف الحضارية الأخرى كالبوصلة والمنارة ، فضلا عن الوظيفة العلمية المتعلقة بالفلك والتقويم (١) .

وسجلت ملاحظاتى تلك فى مقالين قدمتهما إلى الصديق الكريم الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال – ولم أكن قد قابلته إلا مرات معدودة منذ شهور قليلة – فوجدت لديه من الترحيب مالم أكن أتوقعه ، فهو من رؤساء التحرير القليلين الذين لا يسألونك من أنت وما « سوابقك » فى الكتابة ، وإنما ينظر فحسب إلى ما كتبته فإذا وجده يستحق النشر نشره ، وإلا فمصيره إلى سلة المهملات مهما كان كاتبه .

وكان من دلائل اهتمامه المشكور بما كتبت ، أن نشر المقالة الأولى فى صدر أول عدد تالٍ صدر من الهلال – فبراير ١٩٨٩ –

---

(١) نبهنى مقال للدكتورة نعمات احمد فؤاد إلى أن الأثرى المصرى الجليل أحمد كمال باشا قد سبقنى بتسعين عاما إلى إدراك الوظيفة الفلكية للأهرام ، مما وجدته بعد ذلك فى أحد كتبه ، وهو سبق أعتز به وأشرف كما يشرف كل مصرى ويزيد من قدره عندى خاصة ، ما أمدنى به هذا التنبيه من شعور بالائتناس ، وباننى لا أخوض بحر الحقيقة وحدى .

منوهاً عنها بحرارة فى كلمة التحرير ، وعلى غلاف المجلة . ثم نشر المقالة الثانية فى عدد أبريل من نفس العام . وهما المقالتان اللتان يجد القارىء صورتهما فى ملاحق هذا الكتاب مما أغنى عن إعادة ذكر ما فيهما .

●●●

عندما كتبت هاتين المقالتين ، كنت على يقين من أننى قد فتحت الباب على مصراعيه أمام المهتمين بالتاريخ المصرى القديم والآثار ، لكى يتابعوا ما فيهما من أفكار ، فيحققوها ويحددوا موقفهم العلمئ منها : إما بالموافقة والتأييد أو المعارضة والتفنيد . وأن مهمتى بالنسبة إلى ذلك الموضـوع قد انتهت بكتابتى لهاتين المقالتين .

ولكن شيئاً من ذلك – للأسف – لم يحدث .. حتى كتابة هذه السطور .

وكنت أيضا على يقين من أننى قد توصلت إلى كل الأغراض الحقيقية لبناء الأهرام – أو معظمها وأهمها على الأقل – الأغراض الحضارية التى تتماشى مع تصورى للأمة المصرية القديمة ، تلك الأمة التى ولدت أول حضارة عرفها الانسان ، والتى تولدت عنها

ومنها معظم الحضارات الأخرى ، بما يقتضيه بناء أساسيات الحضارة من جد صارم لا مكان فيه إلا للعمل الدءوب النافع ، وأصارح القارىء بأننى لم يكن يجول بخاطرى احتمال وجود وظيفة حضارية أخرى للأهرام ، أهم من تلك الوظائف التى عددتها فى المقالتين .

وأعترف للقارىء كذلك بأننى قد أخذتنى العجلة - وهى من الشيطان وجرفنى الإلحاح المستمر فى الكتابات التاريخية على كون الأهرام مدافن للملوك ، فتسرعت بالتسليم بأن الأهرام قد استخدمت أيضا لدفن الملوك لا كغرض وحيد أو أساسى من بنائها ، بل كغرض جانبى ثانوى أو من قبيل التكريم لبناتها وتخليد ذكر من تولوا إنشاء هذه الأعمال الهندسية الحضارية الجبارة .

وقد أبدت لىّ الأيام أننى كنت واهما أشد الوهم فيما يتعلق بهاتين الفرضيتين ، تماماً كما كنت واهما فيما توقعته من اهتمام المختصين بالآثار والتاريخ بما كتبته عن الأهرام فى مقالتىّ « الهلال » .

ويرجع الفضل فى انجلاء هذين الوهمين إلى أخى - عالم اللغويات - الدكتور عبد الرحمن جابر ، الذى أشار علىّ بمجرد قراءته للمقالتين بأن اتابع الموضوع بدراسة منهجية موثقة ، وأن

أمانة العلم ومسئولية الكلمة تطالبنى بأن أكمل بنفسى ما بدأته، دون تواكل أو انتظار .

وأرعبتنى الفكرة ، لا بما تحمله من معنى المسئولية فحسب ، بل بما تستلزمه من جهد مضن فى موضوع ليس لى فيه من حظٍ إلا حظ المثقف العادى ، الذى عرضت له ملاحظات اعتبرها مهمة بالنسبة لتاريخه وتاريخ قومه ، فأفضى بها إلى مواطنيه . جهد يقتضينى أن أغوص إلى عنقى فى أعماقِ كتب التاريخ القديم المتخصصة والوثائق الأثرية والبيانات التفصيلية عن الأهرام وبنائها وعصرها ، أستقصيها وأراجعها وأحققها وأصنفها وأحللها التحليل العلمى الذى يستحقه موضوع على هذه الدرجة من الأهمية – عندى على الأقل .

وأحجمت فى أول الأمر ، أياما أو أسابيع قليلة ، لم يفارقنى فيها إلحاح الفكرة ليلاً أو نهاراً ، حتى أيقنت أننى لن أستريح ولن أصل إلى سلام مع نفسى أو مع الهرم الأكبر (غريم الأمس صديق اليوم) إلا إذا خضت هذه التجربة ، بكل ما تحتاج إليه من جهد وما تعترضها من صعوبات ، معاهداً نفسى إذا وجدت ما يدحض الأفكار التى ذكرتها أن أكون أول من يعلن عن خطئها . أما إذا

وجدت ما يؤيدها ، فأن أوالى نشر ما أتوصل إليه منها تباعاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

●●●

وكانت أولى خطوات ذلك الطريق ، وأولى مستلزمات السير فيه ، هي :

أولا : المعلومات : المعلومات الدقيقة المفصلة عن كل هرم من الأهـــرام ، لا الأهرام الثلاثة المشهورة في منطقة الجيزة فحسـب ، بل كل الأهرام التي يسميها علماء الآثار « الأهرام الملكية » ، والتي يربو عددها على الثلاثين هرماً ، ثم الأهرام الصغيرة « الجانبية » والثانوية ، والتي ترتفع بالرقم إلى ما يقارب المائة هرم : مقاساتها ومواقعها وزواياها وزمن بنائها وكيفية إقامتها ومحتوياتها الداخلية ، وما تبقى منها وكل شيء متعلق بها .

ثانياً : الخرائط : فما دمنا نتكلم عن الأهرام باعتبارها منشآت تقوم بالوظائف الأساسية لها خطوطها الخارجية لامحتوياتها الداخلية ، فلابد من أن نعرف أين يقع كل هرم بالضبط وكم يبعد عن الأهرام الأخرى ، وعلاقته بالبيئة المحيطة به ، وارتفاع كل هرم بالنسبة إلى الأهرام الأخرى وإلى الوادي والنيل والصحراء. أي باختصار ضرورة توقيع كل هرم على حدة – ثم

الأهرام كلها مجتمعة – على الخرائط المساحية الطبوغرافية لمنطقة الأهرام كلها من أبو رواش شمالا إلى الفيوم جنوباً .

ثالثا : **الوثائق** : كل ما يمكن أن تصل إليه يدى من كتابات عن الأهرام – أو فى داخل الأهرام – وقد ألزمت نفسى فى هذا الباب بمبدأ « التحقيق » . وهو ألا أكتفى بما يذكره الكاتب عن كتاب قرأه أو نص رآه ، وإنما أرجع إلى نفس الكتاب أو النص – فى لغته الأصلية إن أمكن – محاولاً إرجاع كل كلمة إلى قائلها الأول ، متجاوزاً كل من نقلوها بالتتابع عنه ، حتى أتجنب قدر الامكان ما تتضمنه عملية النقل من فم إلى فم ، ومن كتاب إلى كتاب ، ومن لغة إلى لغة ، من أخطاء بشرية فى النقل أو الفهم ، أو من هوىً يحيد بصاحبه عن ذكر الحقيقة ، أو عن ذكرها كاملة .



وسرت فى هذا الطريق ، مستهدياً بهذه العلامات الثلاث التى ألزمت بها نفسى ، متردداً أول الأمر ، ثم متشجعاً ، ثم مهرولاً ، ثم متفرغاً أو شبه متفرغ ، إلا مما تستلزمه ضرورات السعى إلى الرزق ، وكان أكثر ما شجعنى ثم جعلنى أهرول ، ثم أنقطع لهذه الدراسة انقطاعاً شبه كامل ، هو أننى كلما فتحت باباً مغلقاً يحتمل

أن يكون وراءه دليل على فساد ما ذهبت إليه وبطلانه ، لم أجد وراءه إلا ما يؤيده ويؤكده ويزيده رسوخاً .

فما أن قطعت نصف الطريق أو ثلثيه على الأكثر حتى انبلجت أمامى حقيقة ناصعة باهرة تمثلت لى فى مفاجآت ثلاث لا أدرى أيها أكبر من أختها :

المفاجأة الأولى : أن ما ذهبت إليه فى مقالتى « الهلال » ، من أغراض حضارية للأهرام كالبوصلة والمنارة والتقويم الخ .... وإن كانت صحيحة فى مجملها ومعظم تفاصيلها إلا أنها لم تكن هى الغرض الأساسى لبناء الأهرام ، وإنما هناك وظيفة أخرى تَجب كل هذه الوظائف وتحتويها وتضعها فى الدرجة الثانية أو الثالثة من الأهمية وأن الدافع الأصلى لبناء هذه الأهرام والوظيفة الكبرى التى بنيت من أجلها ، هى الدفاع عن أرض الوطن ! .

تبين لى أن هذه الأهـــرام – كما يدل عليها عنوان هذا الكتاب هى – بكل محتوياتها ولواحقها وسوابقها من المصاطب .. الخ – قلاع وحصـــون ومنشآت عسكرية حدد القدماء جميع مواصفاتها – من اختيـــار مواقعها إلى تحديد ارتفـــاعاتها إلى تصـميم أدق تفاصيلها من أجـــل القيام بهذا الغـــرض العســـكرى الدفاعى ، واستخدموها على هذه الصورة ، مستفيدين جزئيا

وجانبيا ، باستخداماتها الحضارية الأخرى التى كنت قد أدركت طرفاً منها .

المفاجأة الثانية : أن مسألة دفن الملوك فى الأهرام ، والتى كنت – كما ذكرت – قد تسرعت بالتسليم بها فى مقالتى « الهلال » ، مسألة لأصل لها ولا وجود إلا فى أوهام بعض المؤرخين ، وكل كتاب المصريات المعاصرين . وأنه **لم يدفن ملك واحد فى هرم واحــد** من هذه الأهرام كلها ، لا من باب التأليه ، ولا من باب التكريم ، ولا حتى من باب الاستخدام الجزئى أو الثانوى . وأن بناء الأهرام شىء منفصل تماما عن عملية الدفن لا علاقة له بها من قريب أو بعيد .

المفاجأة الثالثة : أن النظرية العامة المستخدمة فى النظر إلى التاريخ المصرى القديم وفهمه وتفسيره ، **هى نظرية خاطئة من أساسها** ومخالفة للمنطق العلمى وحقائق التاريخ ، لا فى مسألة الأهرام فحسب ، بل فى كل جوانب التاريخ المصرى القديم ، بما فيها الآثار المصرية والديانة المصرية واللغة المصرية القديمة ، خطأ جذرى امتد بدرجات متفاوتة إلى كل ركن من أركان علم المصريات والتاريخ المصرى . ولذلك فان نقطة البداية التى ينبغى أن أبدأ منها فى تصحيح تصورى لجانب من هذا التاريخ هو تصحيح

النظرية الأساسية التي انبنى عليها ، وهو ما خصصت له القسم الأول من هذا الكتاب .

ومفاجأة رابعة – لم تكن فى الحقيقة مفاجأة تامة بالنسبة لى هى أن كثيراً من الأفكار والتفسيرات والاستنتاجات التى تحفل بها كتب التاريخ والآثار المصرية القديمة ، والتى تبدو كما لو كانت أخطاء بشرية غير مقصودة ، هى فى الحقيقة **مغالطات مقصودة متعمدة** ، حرص واضعوها على أن يدسوها على التاريخ المصرى القديم لكى يشوهوه ويحولوه فى نظر أبنائه – وفى نظر العالم – إلى تاريخ أمة من السفهاء والبلهاء والأذلاء ، تحكمها عصبة من الجبابرة المغرورين ، مما سيأتى بيانه إن شاء الله فى موضعه .

●●●

وعندما تمثلت لى هذه الحقيقة بكل جوانبها وتفصيلاتها وأرقامها وخرائطها ووثائقها .. لم يعد أمامى مجال للتردد أو الاحجام . بل على العكس ، وجدت أن رؤيتى لهذه الحقيقة مسئولية لا أستطيع تحملها وحدى ولا أملك أن أكتمها – كالشيطان الأخرس – عن أبناء وطنى وأمتى ، وأنها أمانة ينوء بها كاهلى وتشفق من الانفراد بها نفسى ، كلما تمثلت لىّ الآية الكريمة « إنا عرضنا

الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً » [1] : نعوذ بالله سبحانه من الظلم ومن الجهالة .

ولم يعد أمامي من سبيل إلا أن أنقل هذه الصورة التى رأيتها ، كما رأيتها ، وبكل تفاصيلها فى هذا الكتاب الذى يجده القارىء بين يديه .

●●●

وبعد :

فالانسان يصيب ويخطىء ، والمرء لا يملك إلا أن يقول ما يراه حقا ، ولا بأس علىّ إن شاء الله مادمت قد أخلصت النية ، وبذلت أقصى الجهد ، وتحريت غاية الصدق ، فما أصبت من صواب فإنما هو بنعمة من الله وفضل ، أما ما أخطأت من خطأ فمنى ومن الشيطان ، ولى على الحالين ثواب المجتهد : إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد . هذا هو أجرى الذى أطمع فيه عند الله سبحانه ، أما أجرى الذى أرجوه عند القارىء فهو من شقين :

الأول : أن تكون قراءته لهذا الكتاب قراءة فحص وتدقيق ،

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٧٢) .

وخاصة القسم الثانى بما فيه من خرائط وأشكال هندسية يتعذر فهم الكلام إلا بالرجوع إليها ، وأن يتأكد بنفسه من صحة العلاقات المكانية والقياسات والأرقام المذكورة فيه بالرجوع إلى الخرائط المساحية إذا أمكنه ذلك ، وبزيارة أماكن الأهرام والمعاينة الفعلية لها، ويمقارنة الأشكال والخرائط والصور الفوتوغرافية بما يراه بالفعل أثناء سفره على طريق الفيوم الصحراوى ، خاصة حيث تبدو له خلاله كثير من الأهرام من زوايا متعددة بينتها وذكرت دلالاتها فى مواضعها (١) .

والثانى : أن يكون عذرى لديه حاضراً إذا وجد خطأ هنا أو تقصيرا هناك ، فأنا لا أزعم – ولا أستطيع أن أزعم – أننى واحد من علماء التاريخ ، ولا من المتخصصين فى الآثار ، بل لست – حتى – كاتباً مشتغلاً بالكتابة .

ولولا ثقل الأمانة ، وعظم المسئولية وسطوع نور الحقيقة أمامى كالشمس فى يوم صائف ، لترددت كثيرا قبل أن أخط حرفا واحداً من هذا الكتاب .

---

(١) للأسف الشديد ، توفى المؤلف قبل أن يستكمل خرائطه ورسوماته بحيث تعذر نشرها فى هذا الكتاب ، وعسى أن يتاح ذلك مستقبلا لباحثين آخرين يهتمون بالموضوع (المحرر) .

القسم الأول

نقد نظرية التاريخ المصرى القديم

تقوم نظرية « علم التاريخ المصرى القديم » على أساس فرضيتين يعتبرهما علماؤه نقطة البداية فى فهم أى ظاهرة تاريخية، وفى تحديد الغرض الذى أنشىء من أجله أى بناء أثرى قديم ، وفى تفسير أى حادثة عامة وقعت فى الفترة التاريخية السابقة على العصر المسيحى .

هاتان الفرضيتان هما على وجه التحديد :

(١) أن إيمان المصريين القدماء بالبعث والآخرة ، كان هو الدافع الأول أو الوحيد ، وراء كل الأعمال والممارسات والأنشطة العامة التى قاموا بها ، صغيرها وكبيرها على السواء .

(٢) أن علاقتهم بملوكهم كانت خضوعاً شاملاً تاماً كاملاً ، مرتكزا على مبدأ ألوهية الملوك ، بحيث كانت رغبة الملك أو إرادته هى القانون المطلق الذى لا يناقش ولا ينازع ، مهما بلغت التضحيات فى سبيل تحقيق تلك الارادة ، ومهما كانت تلك الرغبة ضد المصالح الآجلة أو العاجلة للجماعة - أى الرعية .

يكفى أن تفتح أى كتاب من آلاف الكتب التى أُلفت فى العصر الحديث عن التاريخ المصرى القديم حتى تطالعك هاتان الفرضيتان من الصفحات الأولى ، وأحيانا من الأسطر الأولى من الكتاب : كأنما يريد الكاتب - كل كاتب - أن يؤكد لك مقدما ، أن أولئك القوم

المصريين القدماء ، كانوا نوعاً خاصاً جداً من البشر ، مختلفا – بصورة أساسية – عن جميع الأجناس والأقوام الذين قرأت عن تاريخهم أو درسته أو عاصرته ، وأن عليك أن تؤمن بذلك مقدماً ، إيمانا لا يقبل الجدل ، وألا تحاول أن تفسر أعمالهم على أى أساس آخر من الأسس التى يقوم عليها علم التاريخ الحديث ، وإلا عجزت عن فهم تاريخهم كله ؛ تمـاماً كما يعجـز من يقرأ كتاباً فى الرياضيـات عن فهمـه ، إذا سـاورته ذرة من الشـك فى أن : ١ + ١ = ٢ .

وبعد ذلك يبدأ الكاتب فى سرد الأحداث التى يريد سردها ، مطمئنا إلى ذلك الأساس الخراسانى الراسخ ، مفسراً كلا من تلك الأحداث مهما بلغت ضخامتها وأهميتها : إنشاء مدينة ، تغيير عاصمة ، تحول فى أسلوب من أساليب البناء ، اشتعال حرب ، إقامة صرح هائل ، تحويل مجرى نهر ، اتحاد دولتين ؟ . الخ .. تفسيرات غيبية أو شخصية من طراز : تحول فى العقيدة ، طموح ملك ، مصاهرة ملكية ، نص دينى ، سوء تربية أمير ، مؤامرات فى البلاط الملكى ، سخط كاهن .. الخ ... المهم ألا يخرج – ولا تخرج – عن دائرة الطباشير القوقازية المتمثلة فى هاتين الفرضيتين ، أو الشماعتين المتلازمتين اللتين تكمل كل منهما الأخرى ، وتنوب كل

منهما عن الأخرى إذا استحال عليها تفسير حدث ما ، ولو تفسيراً واهياً .

والنتيجة المؤسفة أن « علم التاريخ المصرى القديم » قد قعدت به هاتان الفرضيتان عن اللحاق - ولو من بعيد - بعلم « التاريخ » ... الذى أصبح علما بفضل جهود عشرات المفكرين والمؤرخين خلال قرون طويلة ، منذ أرسى ابن خلدون قواعده فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى ، والجبرتى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. حتى كارل ماركس وأرنولد توينبى ، وهـ . ج . ويلز وغيرهم ، الذين اتبعوا - رغم اختلافهم - مناهج تتفق جميعها فى مخالفتها للمنهج التقليدى لكتابة التاريخ فى العصور القديمة ، والذى كان يعتمد كلية على سرد قصص الملوك وبطولات الأمراء وتدخلات الآلهة فى حياة الجماعات البشرية .

لقد أسقط علم التاريخ الحديث فى سلة مهملاته عبارات مأثورة مشهورة مثل :

- أن حرب طروادة قامت بين اليونانيين وأهالى الأناضول بسبب امرأة يونانية جميلة اسمها هيلين اختطفها ملك طروادى اسمه هيكتور .

- وأن الرومان قد احتلوا مصر لأن يوليوس قيصر - ومن بعده مارك أنطونيو - قد وقعا فى غرام كليوباترا .

- وأن الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية هى أسباب عقائدية .

- وأن الجيوش الفرنسية اجتاحت أوروبا فى أوائل القرن الماضى لأن نابليون كان قزماً طموحاً .

- وأن عشرات الملايين من البشر تقاتلوا وفقدوا أرواحهم فى الحرب العالمية الثانية لأن هتلر كان مجنوناً .

خرجت أمثال تلك العبارات تماماً من كتابات المؤرخين الجادين وأصبح دورها مقصوراً على الأعمال الدرامية والابداعية يمكن أن تصلح أساساً لمأساة شكسبيرية مؤثرة ، أو كوميديا رائعة لشارلى شابلن أو فيلم ممتع لمارلون براندو ... ولكنها لم تعد تصلح - أو تستخدم - إطلاقاً فى علم التاريخ ...

إلا التاريخ المصرى القديم .

حلت محل تلك العبارات ، نظريات علمية مثل :

- أن الحروب الطروادية كانت صراعاً بين اليونان والأناضول على السيادة البحرية فى البحر الأيوبى .

- وأن احتلال الرومان لمصر كان بغرض السيطرة على مفاتيح التجارة فى القارتين الأفريقية والأسيوية .

- وأن الحروب الصليبية كانت محاولة أوروبية لكسر الحصار الذى فرضته أمم المنطقة العربية على تجارة الشرق الأقصى .

- وأن حروب نابليون كان دافعها إسقاط النظم القديمة الحاكمة فى أوروبا لفتح الطريق أمام الاقتصاد الفرنسى الحديث القائم على الصناعة .

- وأن الحرب العالمية الثانية كانت محاولة لتوحيد أوروبا أو لهدم الكيانات الامبراطورية التى تعوق توسع الصناعة الألمانية .

وقد يتفق المرء أو يختلف مع نظرية من تلك النظريات ، كما قد تختلف نظرية منها مع نظريات أخرى ، ولكنها كلها تتفق فى مبدأ واحد مشترك ، تجمع عليه أعمال علماء التاريخ المعاصرين و يمكن أن نلخصه فى عبارة واحدة :

إن الأعمال العظمى فى التاريخ لا يمكن تفسيرها إلا على أساس مصالح الجماعة أو الجماعات البشرية المختلفة ، فى فترة زمنية معينة ، فى ظروف مادية وإنسانية معينة .

ولا ينطبق هذا المبدأ بالطبع - ولا ينبغى أن يطبق - على الأحداث الصغيرة مثل بناء قصر أو إقامة تمثال أو افتتاح مدرسة ،

وإنما تنصب صحة تطبيقه على الأعمال « العظمى » ، التى ضربنا عليها بعض الأمثلة فيما ذكرناه آنفا .

ومن بين هذه الأعمال العظمى ، بل ربما كان فى مقدمتها – زماناً وحجماً وتأثيراً – بناء الأهرام !

ولا يدحض من صحة هذا المبدأ أن يكون « هيكتور » قد اختطف فعلا امرأة اسمها « هيلين » ولا أن يكون المحارب اليونانى كان يشعر بالغيرة الجامحة وهو يحارب الطرواديين ، كما لا يقلل من قوته أن الفارس الصليبى كان يستبسل فعلا عند أسوار القدس دفاعاً عن مقدساته الدينية ، ولا أن الشبان الفرنسيين كانوا يلفظون أنفاسهم فى ميدان القتال وهم يهتفون بحياة الامبراطور ، فكل هذا صحيح بلا شك .. فالانسان الفرد – عادة – لا يضحى بحياته إلا دفاعاً عن مبدأ يلهب حماسته ، ويستفز طاقاته النفسية والجسدية ، ويجعله يستهين بالجهد الشاق أو العمل الدائب ، أو بالحياة نفسها فى سبيل ذلك المبدأ ، لا فى سبيل مصلحة اقتصادية أو مادية مرجوة .

ولكن هناك أولاً فرقاً بين تصرف فرد أو مجموعة من المقاتلين وبين تصرف جماعة بشرية متكاملة تقوم بتعبئة قواها لمدة طويلة ؛ عدة سنين أو عدة عشرات من السنين للقيام بعمل تاريخى عظيم ،

إلا إذا كانت مؤمنة بأن ذلك العمل سيكون له مردود مادى ملموس عاجل أو آجل لهم أو لأبنائهم ، فى هذه الدنيا وعلى هذه الأرض .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الجمـــاعة البشرية لا يمكن أن تتبع عقيدة معينة ، ولمدة طويلة ، إلا إذا رأت فى هذه العقيدة خدمة لمصالحها المادية على المدى القصير أو الطويل . كما لا يمكن أن ينشأ فيها ومنها نظام اجتماعى أو سياسى يكتسب صفة الدوام إلا إذا كان هذا النظام يحقق المصالح الأساسية لتلك الجماعة .

وليس هذا انحيازاً إلى التفسير المادى للتاريخ ولا تقليلاً من شأن العقيدة ودورها فى حياة الانسان . على العكس تماماً ، فإن من أهم الشروط الملازمة للعقائد والرسالات العظمى التى تستحق هذا الاسم فعلا توقيت ظهورها ، ومكان دعوتها ، فى الزمان والمكان المناسبين ، اللذين تحملهما فيهما مصلحة جماعة بشرية معينة ، أو مصلحة الجماعة البشرية كلها إلى الانتشار والانتصار ، وتدفع هى من ناحيتها مصلحة الجماعة إلى التقدم والازدهار ، بحيث يكون عنصرا الزمان والمكان – مجتمعين – جزءاً لا يتجزأ من العقيدة ذاتها ، لا يمكن الحكم بصحتها أو استحقاقها للوجود والاتباع ، إلا باكتمال هذا الجانب منها . وبغير هذه الصفة تصبح

العقيدة – حتى لو كانت صحيحة فى ذاتها – إما سابقة لأوانها أو متخلفة عنه أو غريبة عن موطنها ، معلقة فى الهواء كالبذرة الصالحة الملقاة على صخرة صماء : لا تنبت ولا تنمو .

والمتتبع لأحداث التاريخ يجد هذه القاعدة مضطردة بغير استثناء فى جميع الرسالات العظمى ، بما فيها – بل على رأسها – الرسالات السماوية نفسها .

ولذلك فإن تفسير حدوث عمل عظيم أو تحول تاريخى هام ، بمجـرد القول بأن الجماعة التى قامت به كانت مقتنعة بعقيدة معينة ، أو أنها كانت « خاضعة » لنظام سياسى معين ، هو تفسير ناقص وقاصر ، إذا لم يستند إلى دليل أكيد من المصلحة المادية للجماعة سواء فى اقتناعها بتلك العقيدة وذلك النظام ، أو فى قيامها بذلك العمل التاريخى الكبير .

أو بعبارة أخرى أن لكل حقيقة من الحقائق التاريخية الكبيرة جانبين ، جانب عقيدى معنوى وجانب مصلحىّ مادىّ ، وهما متلازمان كالتوأمين الملتصقين لا يمكن أن يتحرك أحدهما أى تحرك ملموس بدون الآخر .

وبالإضـافة إلى هذا ، فإن تفسير التـاريخ بالعقائد وحـدها أو بخضـوع الأمم لما ينشأ عن تلك العقـائد من نظم سـياسية ،

لا يمثل خطـأ نظرياً فحسب ، وإنما يمثل صعوبة عملية ، ويقف عقبة كؤوداً تحـول دون التوصل إلى نتائج صحيحة . العقـائد هى بطبيعتها أفكـار ، والفكر شىء غير ملموس لا يمكن الحكم على صـوابه أو خطئه حكماً قاطعاً مقنعاً ، كمـا لا يمكن أن نحدد بدقة مدى اقتناع أصحـابه به وتحمسهم له وخاصة إذا قـام بيننا وبينهم حـاجز هائل كالحاجـز الزمنى الذى يفصـل عصرنا عن عصر المصريين القدماء ، فضلا عن الحاجز اللغوى المتمثل فى عجزنا – حتى بعد كل دراسات اللغة « الهيروغليفية » – عن فهم لغتهم فهماً كاملاً ، أو نطقها نطقاً صحيحاً مؤكداً .

أما المصالح المادية للجماعة البشرية ، فهى شىء يمكن تتبعه وحسابه وتلمس الدلائل المادية عليه ، وتمثل الظروف الموضوعية التى أحاطت به ، ورصد نتائجه الحضارية والعمرانية والسياسية ، والوصول بالتالى إلى نتائج أكثر دقة وأكثر تأكيداً .

كل ما يلزمنا – بالنسبة لحالة التاريخ المصرى القديم بالذات هو أن نتذكر حقيقة بديهية ، هى أن أولئك القوم الذين عاشوا فى ذلك العصر ، لم يكونوا جناً ولا عفاريت ، ولا دراويش ، ولا كائنات أسطورية ، ولا ديناصورات منقرضة ، وإنما كانوا – فى مجموعهم

– بشرا مثلنا !! .. تحكمهم نفس الغرائز والدوافع والنوازع التى تحكمنا .. وأهم من ذلك أن لهم عقولا مثل عقولنا قادرة على تحليل الحقائق ومقـارنتها ، والاستفادة من التجارب ، والتعلم من الخبـرات ، وتوقع النتائج وابتكار الأساليب والابداع الفنى والفكرى .. إلى آخر النشاطات العقلية التى نقوم نحن بها فى هذا العصر ، وبنفس الكفاءة – على الأقل . فالعقل الانسانى ، وأداته المادية (المخ) لم يتغيرا قط . – أو على أقل تقدير – لم يتغيرا تغيراً بيولوجياً يذكر ، خلال الخمسين أو الستين ألف سنة الماضية .

الفرق الوحيد بيننا وبينهم ، بين نشاطاتهم العقلية ونشاطاتنا ، ثم بين أفعالهم وأفعالنا ، هو فرق خارجى محض يتمثل فى عنصرين اثنين لا ثالث لهما ، هما : المعلومات والوسائل ، ثم لا شىء على الإطلاق !

وهذه هى أول خطوة على الطريق .. من أجل التوصل إلى التفسير العلمى الصحيح الذى يستحق هذا الاسم الشريف ، لحياتهم وحضارتهم وكل ما وصل إلينا من آثارهم المادية والفكرية .

فإذا خطونا هذه الخطوة الأساسية الواحدة التى هى نصف الطريق كله ، نستطيع أن نتمثل الظروف التى عاشوا فيها ، والوسائل التى كانت متاحة لهم ، والمعلومـــــات التى كانت تحت

أيديهم .. محاولين أن نتقمص شخصيتهم تقمصاً كاملاً ، ونضع أنفسنا فى مكانهم ، ثم ننظر .. ماذا كنا نفعل لو كنا مكانهم ؟ فنجد الطريق أمامنا مفتوحاً للفهم والتفسير والاستنتاج .

وهذه الخطوة بالذات هى التى يفتقدها علم التاريخ المصرى القديم ، بفضل الغمامة الكثيفة التى يضعها على عينيه ، والمتمثلة فى تلكما الفرضيتين – بل المسلمتين العجيبتين – اللتين يخص بهما أجدادنا القدماء دون غيرهم من بنى البشر : قديمهم وحديثهم .

ما الذى نعنيه بعبارة « المصلحة المادية للجماعة البشرية » ؟ والذى جعلناه معياراً لقياس وتفسير أحداث التاريخ العظمى ؟

إن المعنى الذى نقصده أوسع بكثير من المعنى الحدى لاشباع الحاجات المادية ، فهو يتضمن – بالإضافة إلى الطعام والكساء والمأوى – عناصر أخرى يمكن أن نجمعها تحت عبارة « رقى الحياة الانسانية » : ويدخل تحت هذا المعنى كل ما يجعل الحياة الانسانية جميلة وممتعة : الفنون والآداب – القدرة على صناعة الجمال والاستمتاع به ، النظافة بجانبيها من التزين والصحة ، توفر العلاج الطبى كما ونوعاً وخبرة ، ارتقاء العلوم وتنظيم المعارف ، نوعية الطعام نفسه ومستوى طهوه وإعداده ، توافر الأدوات اللازمة لتسهيل الحياة اليومية كالأثاث والأدوات المنزلية ، سهولة الانتقال

بوسائل مريحة نسبياً كالركائب والسفن والطرق المعبدة ، توفر وقت الفراغ الكافى للتسلية وممارسة الألعاب والرياضة ، إمكانية بناء علاقات اجتماعية سوية قائمة على العدالة والأخلاق ... إلى آخر العناصر المادية والمعنوية التى تشكل الفرق بين الحيوان الأعجم الذى يعيش ليأكل ويشرب ويتناسل .. وبين الانسان : الحيوان الاجتماعى المفكر المتذوق ، الذى ليس لطموحه حدود .

ونستطيع أن نضم كل هذه العناصر ، بالاضافة إلى عنصر «إشباع الحاجات المادية » تحت كلمة واحدة هى « الرخاء » .

قد يكون المفهوم الوحيد للرخاء عند الانسان الذى لا يملك قوت يومه ، أو المجتمع الذى لا يجد ما يقيم به أود أفراده ، هو الطعام والكساء والمأوى .. لا غير (الجائع يحلم برغيف) ، ولكن الانسان – والمجتمع – بمجرد أن يتــوافر لديه الحــد الأدنى من تلك الاحتياجات ، يطمح على الفور إلى تلك العناصر الأخرى ، ويجهد فى توفيرها ، بل يعطيها من الأولوية فوق ما يعطيه لزيادة وفرة الضروريات ، أو تكديس الثروات المادية الملموسة .

ثم لا يكاد الفرد – أو المجتمع يتذوق أو يألف درجة ما من درجات الاستمتاع بهذه العناصر كلها أو بعضها ، حتى يتمسك بها ويعض عليها بالنواجذ ، ويدافع عن حقه فى ممارستها دفاع

الجـائع عن رغيف الخبز ، لا يتصور الحياة طعماً ولا معنى ولا لزوماً بدونهـا ، بل لا يتصور لمسـتقبله ولا لمستقبل أبنائه وجـوداً .. إلا بقدرته وقـدرتهم على الاستزادة من تلك العناصر كما ونوعاً .

ثم لا يكاد الفرد أو المجتمع يشعران بوجود خطر يهدد قدرته على امتلاك تلك العنـاصر أو يعرقل قدرته على تطويرها وترقيتها ، مهما كان ذلك الخطـر بعيداً بعد الأفق ، حتى يعبىء جهوده ويجمع طاقاته ويعمل فكـره للتصدى لذلك الخطر ، واتقاء شـره ، أو لمهاجمته فى عقـر داره للقضاء عليه ، حتى لو تـرتبت على ذلك تضحيـات مؤقتة بالمـال أو الجهد أو الحيـاة نفسها .. حياة الفرد نفسـه أو حياة أبنائه الـذين يقومون بهذه التضحيـات من أجلهم .

وهذا هو العنصر الثـانى من العنصرين المتلازمين اللذين يشكلان مفهومنا عن « المصلحة المادية للجماعة البشرية » ، وهو عنصر « الأمن » .

فالرخاء .. بمفهومه الذى ذكرناه ..

والأمن .. أمن المجتمع ... المقترن بضمان استمرار وتوسع هذا الرخاء هما الجانبان اللذان يشكلان - معا أو كلا على حده -

الدافع الأساسى لتقدم الحياة الأنسانية من ناحية ، ولأحداث التاريخ العظمى .. من ناحية أخرى .

ولا أظن أننى – بما ذكرته عن مفهوم الرخاء والأمن ودورهما – أضيف جديدا إلى معلومات القارىء أو إلى الدراسات المستفيضة من علم الاجتماع ، ولكننى أجد من الضرورى أن نتمثل هذا المفهوم بوضوح عند تصورنا لحياة المصريين القدماء الذين لا يختلفون – إلا بالسبق الزمنى – عن بقية أمم الأرض ، فى جميع عصور التاريخ . وأن يكون هذا المفهوم حاضراً لدينا بصورة خاصة عند دراستنا لحدث من أحداث التاريخ العظمى مثل بناء الأهرام ، الذى سنرى من ثنايا هذه الدراسة أنه يلتصق بدرجة قلما تتوفر لحدث آخر ، بمفهومى الرخاء والأمن .

ومع ذلك فلا بأس من أن نلقى نظرة سريعة على هاتين الفرضيتين لنرى الأسس العقلية والمنطقية التى انبنتا عليها :

أولاً – العقيدة الدينية :

تستند الفرضية – أو المسلمة – الخاصة بتسلط العقيدة الدينية على أفعال المصريين القدماء على دلائل نذكر أهمها فيما يلى :

١ – أنهم كـــانوا يقيمون المنشـــآت الدينية والأخـــروية (المعابد والقبور) من الأحجـــار الصلدة ، بينما يقيمون

المنشـــآت الدنيوية (المنازل والقصور ... الخ) من الطوب اللبن الهش الرخيص .

٢ - إقامتهم المدن الكبرى والعواصم لأسباب دينية محضة ، كوجود معابد لآلهة معينة أو لاقتران وجود المدينة بمعبود معين .

وسنناقش كلاً من هذه « الدلائل » فيما يلى على الترتيب :

١ - مواد البناء للمنشآت الدنيوية والمنشآت الأخروية :

الأصل فى هذه المسألة أن جميع الآثار ذات الطابع الدينى - أو التى اعتبرها دارسو التاريخ المصرى ذات طابع دينى - قد وجدت مبنية بأحجار صـلدة غالية التكلفة تتراوح بين الحجـر الجيرى وبين الجـرانيت والبازلت ، بما فى ذلك المبـانى التى اصطـلح على تسميتها « معـــابد » ، والمبانى التى اصطلح على اعتبـارها « قبوراً » .

أما المبانى السكنية ، سواءً بالنسبة للعامة مثل بيوت الفلاحين والأعيان والأمراء والأشراف ، أو بالنسبة للملوك مثل القصور ودور الحكم ، فقد بادت كلها أو معظمها ، لأنها كانت مبنية من الطوب اللبن زهيد الثمن . فاستدل دارسو التاريخ المصرى القديم بهذه الظاهرة على أن المصريين - ملوكا وسوقة - كانوا يحتقرون الحياة الدنيا ، ولا يعبأون إلا بالحياة الآخرة .

عالم واحد من علماء المصريات – فيما أعرف – هو الذى تنبه إلى بعض جوانب السبب الحقيقى فى هذه الظاهرة ، وهو العالم الألمانى أدولف إيرمان – الذى لم يمنعه احتقاره العام المصريين القدماء ، والذى عبر عنه فى معظم كتاباته – من أن يتبين جانباً واحداً عمليا من هذه الظاهرة ؛ يقول [١] : .

« عندما نتحدث عن العمارة في مصر القديمة ، تنصرف أذهاننا على الفور إلى تلك المعابد والقبور الرائعة ، التى تعتبر أطلالها « أعظم » أمجاد وادى النيل . ولكن هذه الأبنية العملاقة ، تمثل – فى الواقع – استثناء من الطراز المعتاد للبناء فى مصر ، حيث المنـازل ضعيفة البناء معرضة للبلى ، بينما المعابد متينة خالدة : فبدلا من الجدران السميكة بنيت جدران المنازل من طمى

---

(١) أدولف إيرمان : « الحياة فى مصر القديمة » نشر لأول مرة سنة ١٨٩٤ – طبعة « دوفر » الانجليزية ١٩٧١ – صفحة ١٦٧

Adolf Erman, life In Ancient Egypt , translated to English by H. M. Terard, with an intro duction by J. M. White, Daver publicatins Ine. New york 1971 - page ١٦٧ .

وأدولف إيرمان « ١٨٥٤ – ١٩٣٧ » واحد من اكبر علماء المصريات – كان فى معظم حياته العاملة مديرا للمتحف المصرى فى برلين ، وكتابه المذكور يعتبر واحدا من أهم مراجع علم « المصريات » .

النيل ، وبدلا من الأعمدة العملاقة كانت لها دعائم خشبية جميلة ، وبدلا من الأسقف الحجرية ، كانت سقوفها عبارة عن تعريشات من جذوع النخيل . والعنصر المشترك الوحيد بينهما (أى بين المعابد والمنازل) هو الطلاء الجميل الذى طلى به كل منهما .

« وقد يبدو من العجيب أن المصريين القدماء رغم مهارتهم الكبيرة فى صناعة البناء ، لم يستخدموا قط الأحجار الخالدة لمبانيهم السكنية . ومع ذلك فإن طمى النيل يتميز بسهولة استخدامه ، مما يجعل من السخف أن تستبدل به الأحجار المقطوعة من المحاجر ، إلاّ فى الأبنية التى يراد لها البقاء الأبدى . **كما ينبغى أن نضع فى اعتبارنا الظروف المناخية : فقد كان من متطلبات المساكن أن تصد حرارة الشمس اللافحة ، وأن تسمح فى نفس الوقت بمرور الهواء فى جميع أجزاء المبنى** . أما المبنى الحجرى فإنه لم يكن يصلح للسكنى فى شهور الصيف القائظة فى مصر العليا . بينما البيت الخفيف التركيب ، المكون من حجرات صغيرة جيدة التهوية ، المزود بالحصر التى تغطى النوافذ ، والمقام بين الأشجار الظليلة – وحبذا لو كان بالقرب من مصدر للماء البارد – كان هذا البيت هو الملائم تماما للمناخ المصرى ، وكان هذا النوع من البيوت هو المستخدم

لسكنى المصريين القدماء فى جميع العصور » . (الخطوط وما بين الأقواس من عندنا) .

فأنت ترى أن ذلك العالم ، قد وضع يده على أحد المفاتيح « العملية » فى التفرقة بين بناء المعابد وبناء البيوت ، فرق لا علاقة له بالتكريم أو التقديس للأولى ، والاحتقار للثانية ، وإنما يترتب على الظروف المناخية - الموضوعية - للاستخدام كل منهما .

ولكنه وإن كان قد عرف شيئاً فى هذا الصدد ، فقد غابت عنه أشياء كثيرة نذكرها فيما يلى :

١ - أن الطوب اللبن - بالاضافة إلى عزله الحرارى الجيد فى (الصيف والشتاء على السواء) تميز بميزات أخرى تجعله أنسب لبناء المنازل .

فهو أولا سهل الهدم كما هو سهل البناء ، يمكن لصاحب البيت أن يهدم حائطا ويقيم حائطاً آخر بسهولة تامة إذا أراد أن يوسع بيته أو يعدل ترتيب حجراته .

وهو ثانيا مستمد من البيئة سهل الرجوع إليها فى حالة الاستغناء عنه ، ويكفى تبليله بكثير من الماء حتى يعود طينا كما كان قبل أن « يُضرب » ، فيعود إلى الأرض جزءاً منها قابلا

للزراعة والانتاج دون أى خسارة « بيئية » ، بخلاف الأحجار التى لابد فى حالة هدم البناء من أن تحمل بعيداً عن الأرض الزراعية ، وإلا كانت عبئا على الزراعة وعائقاً لها .

وهو ثالثا مناسب لجفاف الجو المصرى ، فرغم أنه يتأثر ويتفكك إذا ألقيت عليه مياه كثيرة أو تعرض لبلولة مستمرة ، إلا أنه فى مـأمن من هذا الخطـر ، بفضل جو مصر الـذى لا تزيد فيه أقسى رخات المطـر على بضع قطرات سرعان ما تجففها الشمس .

٢ – أن الفرق الأساسى بين الطوب اللبن والأحجار المقطوعة من المحاجر ، ليس هو قوة العزل الحرارى فى ذاتها ، فقد كانت جدران « المعابد » مثلا ، سميكة بدرجة لا تسمح بنفاذ حرارة الشمس خلال النهار . المعابد أيضاً كانت رطبة الهواء من الداخل ، جيدة التهوية ، وهو ما يلاحظـه حتى الآن ، كل من يدخل معبداً من المعابد التى مـازالت قائمة ، حيث يشعر بمجـرد دخول المعبد (إذا كان لا يـزال مسـقوفا) ببرودة الجو ومـرور الهواء الـذى سـرعان ما يجفف عـرقه ويشعره بالراحة فى ثوان معدودة .

بل الفرق الأساسى بين المادتين هو صمود الأحجار لعوامل

التعرية الميكانيكية ، أى على وجه التحديد : الاحتكاك والطرق والتفتت . بمعنى أنها تصلح للمبانى التى يكثر دخول وخروج الناس إليها وباعداد كبيرة ولسنين كثيرة – من ناحية . ومن ناحية ثانية هى أكثر صموداً أمام الهجوم الانسانى من الخارج ، أى لمحاولات النقب أو الاقتحام أو الهدم . ولذلك فإننا نجد فى كثير من الأبنية أن الجدران كانت تبنى من الداخل بالطوب اللبن وتكسى من الخارج بالحجارة الصلدة مثل جدران « المصاطب » المتأخرة ، وسور الفناء المحيط بالهرم المدرج ، والطريق الصاعد لأهرام الجيزة ، حيث كان السمك الأكبر من البناء وهو الجزء الداخلى يبنى بالطوب اللبن ليعطى متانة وكثافة للجدار ، بينما تتلقى الكسوة الحجرية الخارجية الصدمات ومحاولات الاقتحام بكفاءة تبلغ أضعافا مضاعفة من كفاءة الطوب اللبن .

ومن ناحية ثالثة نجد الأحجار أقدر بكثير على تحمل الأثقال الكبيرة ، أى أصلح لبناء الأبنية العالية التى من وظائفها الأساسية أن تكون عالية مثل الأهرام والمعابد الكبيرة .

٣ – يكمل هذه الصورة أن كثيراً من المبانى التى اعتبرها علم التاريخ المصرى مجرد « معابد » هى فى حقيقتها أبنية ذات استخدامات أكثر وأوسع (وأفيد ؟) من مجرد تلاوة التعاويذ وإطلاق

البخور وتقديم القرابين . فكثير من هذه الأبنية كانت لها وظائف حياتية أهم كثيراً من الوظائف الدينية : منها ما كان جامعات ومدارس عليا تجرى فيها جميع أنواع العمليات العلمية والتعليمية من التدريس والبحث العلمى وحفظ المراجع وتخريج الأساتذة ، ومنها ما كان فى حقيقته قلاعا وضعت فى أماكن استراتيجية مثلما فى عين شمس (أون) والأقصر وجزيرة فيلة ، والتى لم يكن بناؤها فى تلك الأماكن الاستراتيجية مجرد مصادفات عشوائية ، وإنما ضرورات وظيفية اقتضاها الدفاع عن نقط حدودية معينة .

ولكنها عندما مرت عليها آلاف السنين ، وانمحت من الاستعمال وظائفها الحقيقية ، وانطمست الأغراض الحياتية لبنائها ، لم يتبق منها إلا بعض تماثيل الآلهة والملوك ، وبعض الكتابات ذات الطابع الدينى . بادت الأوراق وقطع الأثاث الخشبية والأسلحة ، وبقيت الأحجار المنحوتة والصور المجسمة والعبارات الدينية أو شبه الدينية ، التى لم يخل منها مبنى عام فى العصور القديمة ، بل والتى لا يكاد يخلو منها مبنى عام كبير حتى عصرنا هذا - وحتى فى الدول غير ذات الطابع الدينى ، مما أوحى إلى دارسى التاريخ المصرى القديم أنها كانت مبان دينية محضة ، وحرمهم من أن يمدوا أبصارهم قليلاً خارج هذه النظرة .

والفرق الأساسى إذن بين الطوب اللبن وبين الأحجار هو أن الأول أصلح ما يكون للمبانى الخاصة ، والثانى أصلح ما يكون للمبانى العامة - ذات الاستعمال العام الدائم ، وخاصة إذا كانت لها صفة دفاعية ، وكذلك الأبنية التى يدخل فى وظائفها العلو والارتفاع الذى يستلزم وجود مادة تتحمل أثقالاً كبيرة دون أن تتفتت وليس الفرق - كما يتوهم غالبية دارسى التاريخ - هو أن هذا مخصص للحياة الأخرى ، وذاك مخصص للحياة الدنيا .. المحتقرة .

ومن العجيب أن الغالبية من دارسى التاريخ المصرى القديم لم ينتبهوا للملاحظة القصيرة الذكية الناقصة التى تنبه لها « إيرمان » ، بل فضلوا السير على الدرب المطروق المؤدى إلى اعتبار اختلاف مادة البناء دليلاً قاطعاً على أن أعمال المصريين القدماء كانت موجهة - برمتها - للحياة الآخرة دون الحياة الدنيا .

وتذكرنى هذه الحكاية بحادثة عاصرتها أثناء عملى فى مديرية التحرير فى أواخر الخمسينيات .

كانت المديرية قد بنت المنتفعين (أى الفلاحين الذين وزعت عليهم الأراضى المستصلحة) منازل حديثة مبنية بالخراسانة

المسلحة والطوب الأحمر والبلاط الأسمنتى ، وأسكنت فى كل منها أسرة من أسر أولئك الفلاحين - لكى ترفع مستواهم عن المستوى المعتاد من البيت الفلاحى التقليدى المبنى بالطوب اللبن .

وفوجئت إدارة المديرية ، بعد بضعة أشهر من سكنى أولئك المنتفعين فى تلك المبانى ، بأن كل واحد منهم قد أعاد - سراً - « تشطيب » منزله من الداخل فطلى الجدران بطبقة سميكة من الطين المخلوط بالتبن ، وخلع بلاط الأرضية وصب بدلا منه أرضية طينية أيضاً ، وسد عدداً من النوافذ فى الجانب المواجه لشمس العصر ، وغطى السقف الخرسانى بطبقة من الطين ، ثم وضع فوقه أكواماً من البوص والحصر تبدو وكأنها وضعت لمجرد التخزين .

وعندما عرف هذا « السر » بطريق المصادفة ، تعالت صيحات متعجرفة من شباب المديرية من المهندسين وغيرهم - ومن بينهم للأسف كاتب هذه السطور - صيحات مثل « تخلف .. جهل .. مافيش فايدة .. هذا الشعب لن يتقدم أبداً ! » ، وماتت فى ضوضاء هذه الصيحات ، همسات قالها على استحياء بعض زملائنا قريبى العهد بأصولهم الريفية ، مؤداها أن أولئك الفلاحين معذورون فى

ذلك لأن الطين « أحنّ » من الطوب والخراسانة ، أقل حرارة فى الصيف ، وأقل برودة فى الشتاء ، وأن أولادهم ومواشيهم – التى أدخلوها فى بيوتهم بدلاً من تركها فى الحظائر المكشوفة ، كانوا معرضين للمرض – وربما الموت – لو أنهم تركوا تلك المبانى الحديثة العصرية على حالتها التى استلموها عليها .

جرت هذه الحادثة ، بينما كان مهندس من الجيل السابق لجيلنا ، اسمه « حسن فتحى » – الذى اعترفنا به أستاذاً للأجيال فيما بعد – يجاهد لكى يؤكد بالتطبيق العملىّ نظرياته عن البناء بمواد البيئة، ومراعاة الظروف البيئية . ولكننا للأسف كنا بمعزل عن ذلك الاتجاه العقلانى ، فاكتفينا بإدانة تصرف أولئك « المتخلفين » ، غافلين عن أن التخلف الحقيقى كان فى افتتاننا بعلومنا التى تلقيناها فى الجامعات ، والتى أهملت هذه العناصر إهمالاً تاماً .

ثانياً – إنشاء المدن تكريماً للآلهة :

وقد اخترت للدلالة على فساد هذه النظرة ، وعلى سبيل المثال ، ثلاث مدن بالذات هى (طيبة ، وعين شمس ، ومنف) ، من بين المدن المصرية الكثيرة التى لا تذكر كتب التاريخ المصرى القديم الواحدة منها إلاّ باعتبارها مدينة الإله فلان .. أو الإله علان ! والتى يضيق المجال هنا عن ذكرها كلها ، فالمقصد الأساسى

من ذكـر هذه الأمثلة الثـلاثة ، هو تطبيق وتوضيح الأسـلوب الذى سـوف نتبعه فى فهم وتفسير أهم ظواهر التاريخ المصرى ، من خلال معالجتنا لتـاريخ هذه المدن الثـلاث . والذى يمكن تطبيقه على جميع المدن المصرية الأخـرى ، التى يقتصر ذكرها فى كتب التـاريخ المصرى القديم ، تلميحاً أو تصريحاً ، على نسبتها إلى الآلهـة ، واعتبارها منشـآت أقيمت لعبادتها وتمجيدها .

ومن ناحية أخرى ، فإن هذه المدن الثلاث هى أكبر وأشهر المدن المصرية القديمة ، وأبعدها أثراً فى التاريخ المصرى القديم ، فاستحقت بذلك أن تكون أولاها بالذكر ، ويكفى للدلالة على ذلك أن هذه المدن الثلاث قد ضربت – فى مجموعها – كل الأرقام القياسية فى الفخامة والقدم وطول العمر ، أكبرها وأعظمها « طيبة » ، وأقدمها « عين شمس » ، أما « منف » فهى أطولها عمراً ، بل ربما كانت أطول المدن عمراً فى التاريخ كله .

ومن ناحية ثالثة فإننا من خلال دراستنا الموجزة لهذه المدن – مما قد يبدو للقارىء فى بعض المواضع تطويلاً – سوف نتعرض لكثير من العوامل التى صاحبت مسيرة التاريخ المصرى القديم ، والتى شكلت معظم أحداثه الكبرى ، وبخاصة العناصر المتعلقة

بالدفاع ، مما يعيننا على تصور جوانب الاستراتيجية الأساسية للدفاع عن مصر القديمة – وهى الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب – ويغنى عن إعادة ذكرها عند دراستنا لعملية بناء الأهرام ودورها فى هذه الاستراتيجية .

أ – مدينة طيبة (الأقصر الحالية) :

العينة التى نختارها لبيان كيفية تصوير دارسى التاريخ المصرى القديم لحياة وتاريخ هذه المدينة نأخذها من نفس الكتاب الذى أوردنا منه الاقتباس السابق .

يقول أدولف إيرمان فى معرض تعداده ووصفه للولايات أو المقاطعات التى كانت تتكون منها الدولة المصرية [(١)] :

« ونأتى بعد ذلك إلى تلك المدينة التى تشكل أطلالها أعظم عجائب مصر قاطبة ، والتى تبدو مبانيها وكأنما قد أقامها شعب من العمالقة . فإن « طيبة » ، وإن كانت لا تستطيع أن تباهى « منف » فى طول بقائها ، ولا أن تباهى « أبيدوس » أو « هليوبوليس » فى شخصيتهما المقدسة ، إلا أنها قد حظيت بأن تكون عاصمة البلاد (مصر) خلال تلك القرون التى كانت فيها مصر دولة ذات نفوذ كبير

---

(١) ادولف إيرمان . الحياة فى مصر القديمة – مصدر سابق ص ٢٠ .

فى العالم . ولذلك فقد أصبحت هى نفسها (أى : طيبة) حاكمة العالم ، وكأنها « روما » بالنسبة للشرق القديم ، مما جعل نبياً عبرانياً [1] يهتف فى اندهاش : « كوش (أى إثيوبيا أو السودان » مع مصر وليست نهاية . فُوط ولُوبيم [أى : بلاد العرب وليبيا] كانوا معونتك » .[2]

« وكان أيضا مما أظهر النفوذ السياسى لطيبة ، مبانيها التى فاقت فى روعتها مبانى جميع العواصم القديمة والحديثة . ولم تصل طيبة إلى هذه الدرجة من العظمة إلاّ فى تاريخ متأخر نسبياً ، حيث كانت من قبل - مجرد مدينة ريفية مغمورة (قليلة الشهرة) مخصصة لعبادة « آمون » ، لم يرد لها أو لإلهها ذكر فى الكتب المقدسة السابقة . ثم نجد أنها - ابتداء من عام ٢٠٠٠ ق . م تقريباً - قد أصبحت تستخدم من حين لآخر كمقر ملكى ، ولكن المدينة لم تبدأ فى الازدهار إلا منذ سنة ١٥٠٠ ق . م ، وهى الفترة التى تنتمى إليها جميع الآثار التى عثر عليها فى طيبة تقريباً .

---

(١) سفر « ناحوم » - الإصحاح ٣ - فقرة ٩ - العهد القديم - الكتاب المقدس (إيرمان) .

(٢) النص العربى نقلناه من طبعة جمعيات الكتاب المقدس فى الشرق الأدنى - بيروت ١٩٧٦ (المؤلف) .

ومدينة « طيبة » القديمة التى كانت تسمى « واست » ، تقع على الضفة الشرقية ، وتمتد إلى الداخل ابتداء من أطلال الكرنك الحالية. وكان القسم من المدينة الملاصق للميناء قريباً من موقع «الأقصر » الحالية . وعندما أصبحت المدينة قاعدة الحكم ، وجه الملوك جهودهم نحو بناء معبد الإله الطيبى «آمون» ، من أجل أن يجعلوا ذلك المكان البسيط الذى كان يقطنه ذلك الإله المغمور نسبياً - جديراً بالمعبود الرئيسى للمملكة . وأضافت الأجيال المتعاقبة إلى مبانى الـ « إيبيت » [وهو اسم ذلك المعبد] ، حتى نهض (هنالك) - بعد قرون - حرم مقدس عملاق ، تمتد أطلاله القريبة من « الكرنك » مسافة تزيد على نصف ميل (٨٠٠ متر) . ويبلغ عرض الفناء المسوّر الأوسط من بين الأفنية المسوّرة الثلاثة حوالى ١٥٠٠ قدم (٤٥٠متراً) ، ويبلغ طوله نفس المقدار تقريباً . بينما يبلغ المبنى نفسه حوالى ١٠٠٠ قدم (٣٠٠ متر) طولاً ، فى ٣٠٠ قدم (٩٠ متراً) عرضاً . وأنشىء معبد عظيم آخر من أجل نفس الإله ، على ضفة النهر عند الأقصر ، وبنيت معابد أصغر منه من أجل الآلهة الأخرى للمدينة . وفى وسط هذه الحُرُم المقدسة قامت « مدينة البوابات المائة » ، تلك المدينة العظيمة التى اختفت الآن ، مثلها مثل

جميع المـدن المصرية الأخرى . ولم تبق إلاً الأطلال العملاقة للمعابد وحدها ، لتبين موقع عاصمة العالم القديمة التى تغنى بها حتى «البرابرة» القاطنون فى إيونيا البعيدة (اليونان) [1] :

« طيبة » الملكية

« بيت الكنوز المصرية ذات الثراء الذى لا يحد .

التى تزهو ببواباتها المائة ، التى تتسع كل منها

لمرور مائة محارب بعرباتهم وخيولهم » .

« وبمرور القرون ، قامت على الضفة الغربية للنهر مدينة عجيبة سوف يرد ذكرها كثيرا فى كتابنا هذا (يعنى كتاب إيرمان) ، كان هذا « الطرف الغربى » من نوعية مختلفة تماماً عن مثيله فى لندن أو فى برلين ؛ حيث لم يكن حى الأثرياء ، بل المكان المخصص لسكنى الأموات .

« الجـوانب شديدة الإنحدار للجبال الغربية ذات التكوين الغـريب : حفرت فيها مدافن قبابية للموتى ، وبلغ من كثرة عددها أن أحد السواح شبهها بالثقوب الموجودة فى الإسفنج . وفى الوادى ، الذى يسمى حالياً « بيبان الملوك » ، جعلت قبور الملوك ،

(١) الإلياذة : ٩ ، ٣٨١ .

قاعات هائلة مصممة بجسارة وفخامة لا يماثلها أى شىء فى مصر، وهى التى أصبحت تشكل – منذ عهد الرحالة الإغريق – واحدا من أعظم مناظر « طيبة » . ففى مصر كان الميت يكرّم بصفته نصف إله ، ولذلك كان من الضرورى إنشاء مصلى لعبادته ملحق بالقبر المصرى . والقاعدة أن هذه المصليات كانت إما قريبة من القبر أو جزء منه ، ولكن مساحة وادى بيبان الملوك الصحراوى الضيق لم تكن تسمح بإقامة معابد جنائزية تليق بالملوك ، ولذلك فقد أقيمت هذه المعابد فى السهل . فأنشئت على حافة البلاد الغربية سلسلة من المبانى العظيمة : المعبد الجنائزى فى « عبة القرنة » [سيتى الأول]، وفى الدير البحرى (الملكة شحنت آمون) (:حتشبسوت) ، وفى مدينة حابو [رمسيس الثالث] ، وفى الرمسيوم [رمسيس الثانى] ، ومواقع أخرى سوف نأتى على ذكرها . وبالطبع ، تسبب إنشاء تلك المبانى الماردة ، بملحقاتها ، وحدائقها ، وحظائر ماشيتها ، ومخـــازنها – بالضرورة – فى توظيف عدد كبير من الموظفين والعمال . فإذا أضفنا إلى هؤلاء جمهور المحنِّطين وصناع التوابيت، وكهنة الموتى ، الذين وظفوا فى تلك القبور الخاصة التى لا تحصى، وكذلك الحجارين ، والبنائين ، والحرفيين الآخرين المطلوبين بشكل مستمر لبناء مقابر جديدة ، فمن السهل أن نفهم كيف تحولت مملكة الموتى تدريجيا إلى مدينة حقيقية . فمما

لا شك فيه أن الشريط المحصور بين النهر وبين حافة التلال الغربية، كانت تغطيه المنازل بشكل تام تقريباً ، على الأقل بطول الطرق الرئيسية التى تنحدر من كل من المعابد الجنائزية الكبيرة إلى النيل.

« وقد قدر « استرابو » [1] عرض « طيبة » بما فيها جانبها الغربى بمسافة تسعة أميال (١٥ كيلو مترا) . وحتى إذا افترضنا أن أجـزاء من هذه المدينة العملاقة كانت تحتلها منازل ريفية وحدائق ، تظل تلك المدينة مقاربة (فى حجمها) للمدن العظمى فى العالم فى العصور الحديثة .

« وقد سـقطت طيبة كمـا سـقطت « رومـا » و « نينوى » ، فعندما نقل كرسى الحكم إلى مصر السفلى ، تهدم قلب المدينة ، وضاعت أهميتها وهجرت شيئا فشيئا ، واستخدمت الأجزاء الصالحة من أرضها للزراعة ، . وبالتدريج انسحب من تبقى من سكانها إلى الأماكن التى تحتلها الأبنية العظمى . وهكذا عششت قرى : الكرنك والأقصر ومدينة حابو حول تلك المعابد الهائلة ، والتى تشكل – حاليا – البقايا الأخيرة لتلك المدينة العظيمة . » أ هـ . (البنط الأسود وما بين

---

(١) المؤرخ اليونانى : عاش فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد وأوائل القرن الأول للميلاد (٦٤ ق . م – ٢٣ . م)

الأقواس ( ) من عنـدنا ، وما بين الأقواس المربعة [ ] من إيرمان - المؤلف) .

هذا هو الوصف الذى يصف به ايرمان - وكل علماء التاريخ المصرى القديم - هذه المدينة التاريخية العملاقة !

مدينة كانت هى « روما » العصور القديمة ، حكمت العالم المعروف لمدة ٥٠٠ عـام مساحتها حوالى ربع مساحة القاهرة الحالية ، فاقت مبانيها مبانى جميع العواصم القديمة والحديثة ، وتغنى بعظمتها الأنبياء والشعراء على السواء .. كل ما يذكر من أسباب وجودها وازدهارها وأفول نجمها هى ثلاثة أسباب على سبيل الحصر : -

١ - نشأت باعتبارها مدينة ريفية مغمورة مخصصة لعبادة إله مغمور اسمه آمون .

٢ - ازدهرت لأن ملوك الدولة الحديثة شاءت إرادتهم أن يجعلوها مكانا جديرا بالمعبود الرئيسى للمملكة .

٣ - وأفل نجمها لأسباب غير معروفة أو لا تستحق الذكر ، كل ما فى الأمر أن كرسى الحكم قد « نقل » إلى مدينة أخرى .

هذا هو قصارى جهد « علم » التاريخ المصرى القديم !

وسوف أختصر الطريق للقارىء ، موضحاً تصورى للأسباب

التى جعلت هذه المدينة تنشأ ، ثم تزدهر ، ثم تتقلص ، مستعينا فى ذلك بأهم وأول أداة تعين على فهم التاريخ ، وهى « الجغرافيا » ، والتى تبين الموقع التفصيلى للمدينة ، ثم موقع المدينة من مصر عامة ، ثم علاقة ذلك بموقع مصر من العالم القديم الذى حكمته من خلال المدينة .

أول ما يلفت نظرنا فى موقع المدينة هى أنها قريبة جداً من مدينتين تقعان على النيل . إحداهما شمال الأقصر بحوالى ٤٠ كيلو مترا وهى « قفط » ، والثانية جنوب الأقصر على نفس البعد أيضاً وهى « الكاب » . وكل من هاتين المدينتين هما نهاية طريق صحراوى مطروق منذ القدم – ولا يزالان مطروقين إلى الآن . أولهما (طريق قفط) يؤدى إلى موقع ميناء القصير الحالى على البحر الأحمر ، والثانى (طريق الكاب) ينتهى « بمرسى علم » الحالية على البحر الأحمر أيضاً . والطريقان هما أقصر مسافتين بين البحر الأحمر ومصر العليا ، وإن كان الطريق الأول هو أقصرهما وأهمهما ، لأن قفط تقع على طرف « حنية قنا » ، بينما تقع الكاب على طرف « الكسرة » التى ينحرف عندها مجرى النيل إلى الشمال الشرقى نحو الأقصر ، ثم ينحرف مرة أخرى عند الأقصر فى

زاوية قائمة تقريباً متجهاً نحو الشمال الغربى ، بادئا القوس الجنوبى من « حنية قنا » .

فالأقصر إذن - جغرافيا - هى مدينة تتوسط المسافة بين مدينتى قفط والكاب ، وهى فى الوقت نفسه أبعد مكان فى المسافة الواقعة بينهما عن البحر الأحمر ، يفصلها عنه أبعد عمق من الصحراء .

وطريقا قفط والكاب ، كانا منذ أقدم العصور - وخاصة الأول منهما - هما أقرب جسر بين البحر الأحمر - ومن ورائه الجزيرة العربية شرقا وساحل إفريقيا الشرقى جنوبيا - وبين وادى النيل ، جرى من خلالهما على مر القرون التبادل التجارى بين خيرات وادى النيل الزراعية والصناعية ، وبين خيرات الشرق من المر والبخور والعطور والأعشاب الطبية والأحجار الكريمة والمنتجات الحيوانية كالجلود والأصواف الخ .. ، وانتقلت أيضا من خلالهما الهجرات المتوالية من الجزيرة العربية الجافة التى كانت منطقة طرد بشرى ، وبين وادى النيل الغنى الذى كان بطبيعة الحال منطقة جذب بشرى . وتم عبر هذا الجسر أيضا التبادل الحضارى بين مصر والجزيرة ، لا فى مجال الفنون والآداب فحسب ، بل فى مجال العقيدة الدينية

نفسها ، والتى يعتقد مؤرخ مثل هيرودوت أن معظم معتقدات وآلهة قدماء المصريين جاءت منها ، أى من الجزيرة العربية .

ويؤيد صحة ذلك الافتراض ، أن المصريين القدماء كانوا يسمون بلاد الشرق « الأراضى المقدسة »[1] ، كما يدعمه أيضا أن كلمة «قفط» هى نفس اللفظ الذى رأينا العرب فى القرن السابع الميلادى يطلقونه على المصريين جميعا (قبط) ، لأن بوابة مصر بالنسبة إليهم كانت هى أول محطة يشربون فيها من ماء النيل وهم قادمون من الصحراء الشرقية ، أى : « قفط » فأطلقوا اسمها على البلاد كلها أو على أهل مصر جميعاً . ويغلب هذا الظن لدينا على الاعتقاد الشائع بأن اليونانيين هم أول من أطلقوا هذا الاسم على مصر ، فقد كان الأولى بهم أن يطلقوا عليها اسم أول ميناء يصلون إليه على البحر المتوسط ، لا أول محطة يصل إليها القادم من الصحراء الشرقية . فالأغلب أن اليونانيين وجدوا ذلك الاسم جاهزا شائعا فى مصر عندما حضروا إليها ، جاريا على الألسنة ، فاستخدموه ونشروه فى كل اللغات الأوربية .

ثم اكتسب هذا الطريق - أو هذان الطريقان - أهمية إضافية ، عندما تزايدت التجارة مع إفريقيا الشرقية على امتداد الساحل ،

---

(١) إيرمان : الحياة فى مصر القديمة - مصدر سابق - ص ٥٠٥ .

حيث قدم هذا الجسر بديلا وإضافة للطريق التقليدى الذى كانت تنتقل خلاله تجارة إفريقيا الوسطى ، وهو النيل نفسه عبر القسم الشمالى من بلاد النوبة .

فالخصيصة الرئيسية إذن لمدينة « طيبة » أو « وسط » أو الأقصر ، هى أنها « **تتوسط** »[1] الطريقين ، وربما كان اسمها القديم نفسه مستمدا من هذه الخصيصة ، ثم اكتسبت أسماءها الأخرى فى عصور متأخرة نسبياً .

والخصيصة الثانية هى أنها – كما ذكرنا – ذات موقع بعيد نسبياً عن البحر ، مما يجعلها أبعد منالا بالنسبة لأى هجوم ، أو هجرة جماعية غير مقبولة أو مأذون بها من الدولة المصرية .

والخصيصة الثالثة هى أنها تتميز بحصانة دفاعية فريدة ، يحجزها عن الصحراء فى كل من قسميها الشرقى والغربى قوس هائل من التلال الصخرية التى يسهل الدفاع عن المدينة منها كما يسهل مراقبة الصحراء من فوقها ، لمواجهة أى هجوم .

---

(١) عرف التاريخ الإسلامى عدة مواضع سميت (واسط) وأشهرها سميت بهذا الاسم لأنها « متوسطة » بين البصرة والكوفة (ياقوت الحموى : معجم البلدان – الجزء الخامس – ص ٣٢٧ – طبعة بيروت ١٩٨٤) ، كما توجد مدينة تحمل نفس الاسم تقريبا (الواسطى) فى محافظة بنى سويف ، وهى التى يتفرغ عندها الطريق إلى الفيوم .

والخصيصة الرابعة أنها تتمتع بميناء نهرى ممتاز ، ساعد على نشأته وجود جزيرة نهرية ضخمة بطول سبعة ك . م [1] مما أتاح لها أن يكون لها ميناءان : واحد فى الشرق ، والثانى فى الغرب أضيف إليه ميناء صناعى فى عمق الضفة الغربية (فى مكان يعرف حالياً ببركة حابو) ، كما أتاح فى نفس الوقت سهولة العبور حتى بالقوارب الصغيرة من ضفة إلى ضفة عبر الجزيرة النهرية للربط بين جانبى المدينة ، ويضاف إلى ذلك أن نفس هذه الجزيرة النهرية تمثل خطا دفاعياً نهرياً عن المدينة ، يعين على صد أى هجوم نهرى (بالسفن) عليها من الشمال أو الجنوب . إذ تضطر السفن المهاجمة إلى الانحصار فى أحد المضيقين حيث يسهل أخذها أو منع ركابها من مهاجمة المدينة .

فالمعادلة الجغرافية إذن لمدينة « طيبة » هى أنها حصن طبيعى

---

(١) التحمت هذه الجزيرة – فى عصور تالية – بالضفة الغربية كنتيجة لترسيب طمى النيل ، ولكنها كانت منفصلة فى الفترة التى نحن بصددها (راجع خريطة طيبة فى عصر الدولة الحديثة – دائرة المعارف البريطانية مادة Thebes – طبعة سنة ١٩٧٨ – مجلد ١٨ – ص٢٦٣)– ومن الغريب أن معظم الخرائط فى الكتب « العلمية » – مثلها مثل النشرات السياحية – تظهر فيها هذه الجزيرة بوضعها الحالى جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية ، لا فى حالتها القديمة حين كانت جزيرة منفصلة تحيط بها المياه من كل جانب . هل يعتبر هذا من باب السهو والخطأ ؟ .. ربما !

مزدوج وميناء طبيعى مزدوج ، يتوسط المسافة بين أهم طريقين إلى البحر الأحمر ، وبذلك يستطيع أن يتحكم فيهما ويحميهما فى آن واحد ، وبهذا .. ولهذا اكتسبت وجودها .. ثم ازدهارها ، ثم أفولها عندما انتقل طريق التجارة الرئيسى إلى الشمال .

نشأت كمدينة ذات أهمية محدودة ، مركز حكومى وتجارى يشرف على هذين الطريقين فى الدولة القديمة والوسطى ، به مصالح حكومية قليلة وصغيرة ، مهمتها حماية المدينة والطريقين من ناحية ، وتحصيل الضرائب والمكوس وتنظيم الأعمال التجارية التبادلية من ناحية أخرى ، وأسواقها بسيطة ذات حجم محدود يتناسب مع حجم التجارة التى كانت تمر فى هذين الطريقين فى هذين العصرين ، وهى التجارة التى كان طابعها التبادل – كما ذكرنا – بين مصر والجزيرة وما وراءها . وهى ما يمكن أن نسميه «تجارة الموضع » (١) ، أى التبادل بين سلع ومنتجات موضعين بهدف الاكتفاء الذاتى لكل منهما .

وأخذت المدينة الصغيرة تكبر ببطء وبالتدريج مع تزايد أهمية

---

(١) تعبيرا « الموضع » « والموقع » اقتبسناهما من موسوعة «شخصية مصر » للعلامة الدكتور جمال حمدان : راجع المجلد الثانى – الباب السادس – فصل ٢٣ ، والباب السابع – فصل ٢٦ . طبعة عالم الكتب – القاهرة – ١٩٨١ .

هذين الطريقين وزيادة حجم التجارة والنقل عليهما ، ولكنها لم تبلغ – طوال عهد الدولتين القديمة والوسطى – مبلغ المدينة الكبيرة .

ثم اكتسبت « طيبة » أهمية استراتيجية حين غزا الهكسوس – رعاة الشرق – مصر ، راكبين الخيول والعربات ذات العجلات ، فاحتلوا الدلتا بأكملها ومصر الوسطى حتى مدينة ملوى ، وتعذر عليهم – بل لم يحاولوا أصلا – أن يحتلوا الصعيد الأعلى ، واكتفوا بتحصيل الجزية من ملوك الدولة المصرية الذين تحصنوا فى طيبة ، واستفادوا أعظم فائدة من العمق الاستراتيجى للسودان الشمالى « النوبة » ، وتعلموا بالتدريج التكنولوجيا الجديدة (الحصان والعربة) حتى جاء وقت رفضوا فيه دفع الجزية للملوك الرعاة . وعندما خرج هؤلاء بسفنهم لتأديبهم ، واجههم الطيبيون بأسطول دمر أسطولهم ، وفتح الطريق لجيوش المصريين التى جاءت راكبة الخيول والعربات مثلها مثل الهكسوس ، بالإضافة إلى السفن ووسائل النقل والحرب التقليدية الأخرى ، فاجتاحت الهكسوس حتى طردتهم من البلاد ، بعد حكم استمر ما يزيد على مائتى عام .

وبذلك دخل التاريخ طوراً جديداً .. لا بمجرد انتقال سلطة الحكم من يد أسرة إلى أسرة أخرى ، أو من عنصر آسيوى إلى عنصر مصرى ، بل بدخول مصر والعالم فى عصر جديد : عصر

الخيول والمركبات الحربية ، وفى نفس الوقت عصر عربات النقل ذات العجلات التى تجرها الثيران أو غيرها من الماشية . عصر من الاتصال نقيضا للتقوقع ، والتوسع نقيضا للانحصار ، وأيضا لسيادة خاصية الموقع ، كنقيض وقرين لخاصية الموضع . وركبت التجارة – كما ركبت العسكرية من قبل – الخيول والعربات والسفن الكبيرة ، وامتدت خطوطها لتحتوى بلاد الشام كلها حتى أطراف الأناضول شمالا ، والعراق « أشور » شرقا ، وسواحل إفريقيا الشرقية حتى الصومال « بنت » على الأقل ..جنوبا .

ولم تعد وظيفة التجارة قاصرة على مجرد التبادل بين موضعين مصر مع النوبة ، ومصر والجزيرة ، ومصر والشــــام .. الخ .... بل تجاوزت ذلك إلى التجارة بين الجزيرة والشام ، وبين النوبة والأناضول ، وبين الصومال والعراق ... « عبر مصر » . أصبحت مصر – لا مجرد دولة تتجر مع غيرها من الدول لسد احتياجاتها المحلية – بل « همزة الوصل » بين الدول والحضارات القديمة والناشئة المحيطة بها ، وبدأت تتخذ صورة « دولة الممر » التى لا تزال هى صبغتها الغالبة حتى الآن .

ومن الطبيعى أن التبادل التجارى على هذا المستوى قد تضاعف – حجما وسرعة – عشرات أو مئات المرات ، عما كان

عليه فى الدولتين القديمة والوسطى ، لدرجة أنه ظهر فى مصر - ولأول مرة فى التاريخ - استخدام أول صورة من النقود المعدنية ، كبديل لعملية المقايضة التقليدية ومن الطبيعى أيضا أن يكون أهم مفاتيح هذا التبادل التجارى ، وأقدر من يمكنه التحكم فيه وحمايته، وأول من يستفيد ويربح من مكوسه وضرائبه وخدماته ومغانمه ، هو هذه المدينة التى تحمى أهم وأخطر جزء من شريان التجارة الرئيسى .. أو الطريق الإمبراطورى : « طيبة » ، التى كانت جاهزة لأداء هذا الدور بكفاءة تامة ، بموقعها وحصانتها وتاريخها العسكرى القريب ، فضلا عن مؤهلاتها الحضارية الأخرى باعتبارها جزءا من وادى النيل الذى تتوافر فيه المهارات الزراعية والصناعية والعسكرية والمهنية والكتابية والفنية والإدارية لشعب مصر، والتى كانت قد صقلتها حضارة آلاف كثيرة من السنين ، بالإضافة إلى توفر الأقوات فيها ، وأسباب المعيشة للظاعن والمقيم على السواء .

لهذه الأسباب ازدهرت طيبة هذا الازدهار الرائع ، ولهذا اتسعت مبانيها هذا الاتساع الهائل وارتفعت هذا الارتفاع السامق - كضرورة لأدائها وظيفتها الحضارية . ولهذا أصبح لها مائة باب يتسع كل منها لمائة فارس - أو ألف قافلة .

ولهذا أيضا أقيمت فيها تلك المنشآت العملاقة التى يطلق عليها علماء التاريخ المصرى القديم اسم « المعابد » ، لكى تستوعب النشاط والحركة الهائلتين اللتين كانت المدينة تموج بهما . ومن بين تلك المنشآت - أو المصالح الحكومية - كانت القلاع والأسواق والوكالات والفنادق والمحاكم والجمارك وأجهزة الأمن وأجهزة الدفاع وأجهزة الإشراف الحكومى على التعليم والاقتصاد الخ ... الخ ... ، وكل ما تحتاجه مدينة على هذه الدرجة من الأهمية الاقتصادية والعسكرية والسياسية والدينية أيضا !

فنحن لا ننفى أنها نشأت لها أهمية دينية متزايدة ، بل لابد وأن تنشأ لها أهمية دينية تكسبها احتراماً وقداسة فى أذهان العامة وتجعلها مركز الاهتمام ومحط الرحال وقبلة المسافرين ، فهذا من طبيعة البشر ... وبالتأكيد هو من طبيعة هذا الشعب المصرى فى جميع العصور ، بحيث لو فرضنا مثلا أنك سألت مواطنا طيبياً بسيطا فى ذلك العصر القديم عن السبب فى وجود طيبة ، لما تردد فى أن يجيبك بأنها « وجدت بفضل آمون ومن أجل تمجيده » .

تماماً كما تسأل - فى عصرنا هذا - مواطنا ريفيا بسيطا نفس السؤال عن « طنطا » مثلا ، فلا يتردد فى الإجابة الجاهزة : « من أجل السيد البدوى وبفضله وحمايته » . ولن يخطر على باله ،

أو يقبل الاقتناع بأن طنطا نشأت – شأنها شأن كل مدينة كبيرة – لأسباب موضوعية · مثل كونها مركز أكبر سهل زراعي وبها أكبر سوق للحبوب فى مصر كلها ، وأنها ملتقى طرق المواصلات فى الدلتا ، وأنها تتوسط المسافة بين أهم مدينتين فى مصر (القاهرة والإسكندرية) ... كل هذا لا يعنيه ، كما لا يعنى أى سائح متفرج يذهب إلى الأقصر أن تصدع رأسه بالكلام عن طريق « قفط » وتجارة الشرق والتلال الصخرية والميناء المزدوج الخ ... ومن المقبول أن نجد لمثل ذلك السائح ، كما نجد لفلاحنا الطنطاوى الساذج بعض الحق ، وكثيراً من العذر في أن يفكرا بهذه الطريقة ، أما من ليس ساذجا ولا عامياً ولا سائحاً بل عالماً .. مؤرخاً ومرجعا عالميا فى حضارة المصريين القدماء ، مثل إيرمان أو غيره ، فما عذره ؟!

والغريب أن « إيـــرمان » قد ذكر فى نفس الكتـــاب طرفا من هذه المعلومـــات التى اســـتندنا إليهـــا ، والتى لم تكن لتغيــب هى وأضعـــافها فوقها – عن متنـــاول ذلك العـــالم الألمانى الكبيـــر .

يكفى أن ننتقل إلى الفقرة التالية مباشرة لوصفه لمدينة « طيبة »، وهى الفقرة التى يصف فيها الاقليم أو المقاطعة التى تقع شمال مقاطعة طيبة مباشرة وهى مقاطعة « الصقرين » كما يسميها ،

لنجده يذكر – فى عبارة مقتضبة جداً – أنه فى هذه المقاطعة تقع مدينة قفط التى : « يمتد فيها طريق طبيعى من مصر إلى الشاطىء (يعنى شاطىء البحر الأحمر) ، وأن التجار اليونانيين ، مثلهم مثل الحجـــاج المسلمين المسافرين إلى مكة – قد استخدموا هذا الطريق ... » [1] كما يذكر فى الفصل الذى خصصه للتجارة والنقل فى مصر القديمة ، أهمية مدينة « قفط » فى التجارة بين مصر الدولة الحديثة وبين الجزيرة العربية وبلاد بنت ، والاجراءات التى اتخذها ملوك الدولة الحديثة لتأمين ذلك الطريق وحفرهم الآبار فيه لتزويد المسافرين بالماء الخ ... [2]

كل هذا ولا يخطر بباله أن يربط بين هذه الخاصية الجغرافية التى ذكرها عرضاً ، أو هذه الحركة التجارية التى وصف ما يؤمنها ، وبين التفسير الحقيقى لتاريخ تلك المدينة العظمى .

فالمسألة – إذن – ليست نقصا فى المعلومات ، وإنما نقص فى التصور ، وتبسيط مخل فى التصوير ، أو ميل لا يقاوم لإسناد أى حدث تاريخى عظيم إلى أسباب عقائدية أو قبورية أو تسلطية .

●●●

---

(١) إيرمان - الحياة فى مصر القديمة ص ٢٢ (مصدر سابق)
(٢) المرجع أعلاه ص ٥٠٥ وما بعدها .

ثم انظر أيضا إلى وصفه الجانب الغربى من المدينة ، وإلى بيانه لكثرة القبور الموجودة في ذلك الجانب ، والتى تشبه فى كثرتها ثقوب الاسفنج على حد قول ذلك السائح الذى استشهد به . وهو شىء مفهوم طبعا بالنسبة لمدينة بهذا الحجم ازدهرت ازدهارا هائلا لمدة خمسمائة سنة ، بلغ خلالها تعداد سكانها وقاصديها مئات الألوف على الأقل . ولكنه يستخرج من هذا الوصف نتيجة غريبة جدا .. هى أن القسم الغربى من المدينة ، الذى يمتد من سفح الجبل الغربى حتى ضفة النيل ، والذى تقارب مساحته مساحة القسم الشرقى من المدينة ، كان مدينة مخصصة للموت ، مدينة للمشتغلين بصناعة الدفن ! ويدلل على ذلك بأن ذلك العدد الهائل من القبور لابد قد استلزم عددا هائلا ... من اللحّادين !

وكأن أصحاب هذه القبور قد ماتوا جميعا فى يوم واحد أو عام واحد ، أو فى جيل واحد !!

ولا أدرى كيف وقع هذا الأستاذ الكبير ، ومن قبله ومن بعده كل دارسى التاريخ المصرى القديم ، فى هذه الغلطة الحسابية العجيبة. ولا كيف فاتهم أن هذا العدد الهائل الذى يشاهدونه من القبور (ما يقارب الألف قبر يسمونها قبور النبلاء) ، هو نتيجة التراكم الطويل ، لمدة خمسمائة سنة .. أى أن معدل الوفيات السنوى

للموسرين والأثرياء الذين يحتاجون إلى قبور فاخرة ، هو $\frac{١}{٥٠٠}$ من هذا العدد يعنى قبراً واحداً أو قبرين فى العام الواحد ، أى ما لا يزيد عن أربعين قبراً فى الجيل الواحد ، أو بعبارة أخرى : أن طيبة – مثلها مثل أى مدينة أخرى – لم تكن فى حاجة – فى أى جيل – إلاّ إلى عدد من اللحادين يكفى لمواجهة « معدل الوفيات » فى ذلك الجيل ، أى لبناء ما عبر عنه « بالقبور الجديدة » فقط ، وليس العدد التراكمى من الموتى على امتداد خمسة قرون .

فأنت إذا ذهبت مثلاً إلى أى قرية أوروبية قديمة نسبياً (ولتكن قرية ألمانية قريبة من « برلين » التى لم يغادرها الأستاذ إيرمان قط طوال سنوات عمره الثلاث والثمانين) فسوف تجد فى جبانة القرية مئات من شواهد القبور ، قد تبلغ الألف عداً ومع ذلك ستجد أن مساكن القرية لا تزيد عن مائة منزل . ثم ستجد أن القرية ليس بها إلا حانوتى واحد على الأكثر ، وربما اشتركت قريتان أو أكثر فى حانوتٍ واحد . لأن عدد الحانوتية منسوب إلى « معدل الوفيات » كما ذكرنا ، لا إلى عدد قبور القرية التى تراكمت شواهدها خلال مائتين أو ثلاثمائة عام .. بديهية !

يعنى : أن عدد المشتغلين بصناعة الدفن فى طيبة كلها – حتى لو أخذنا فى الاعتبار ما كان الموسرون يولونه للميت وقبره من

اهتمام – لا يمكن أن يزيد عن (٢٪) أو (٣٪) من تعداد السكان – مع المبالغة الشديدة . وبالتالى فإن ٩٧ ٪ على الأقل من مساكن طيبة بجانبيها الشرقى والغربى كان يسكنها مواطنون عاديون ليس لهم علاقة بصناعات الدفن . وحتى لو افترضنا أن جميع المشتغلين بالدفن كانوا يقيمون فى البر الغربى – وهو فرض غير صحيح كما سنرى – لبقيت لدينا فى ذلك القسم وحده أغلبية ساحقة لا تقل عن ٩٤ ٪ ، من المشتغلين بصناعات أخرى غير تحنيط الجثث وصنع التوابيت وحفر القبور .. إلى آخر المهن والحرف القبورية التى «عدّدها» الأستاذ إيرمان فى عناية فائقة .

وفضلا عن ذلك فقد كان حوالى نصف أو ثلثى هذه الأقلية من المشتغلين بصناعات الدفن فقط هم الذين يقيمون – بحكم مهنتهم – فى البر الغربى ، وهم القائمون على نحت القبور وتزيينها وتهيئتها . أما المحنطون وصناع التوابيت وقراء « التعاويذ » ، فالأرجح أن معظمهم كانوا يقيمون فى البر الشرقى حيث يجهزون جثة الميت على مدى ٧٠ يوماً كما هو مشهور ، ثم يضعونها فى التابوت ، ثم تحمل فى سفينة (أو معدية : Ferry) لتنقل إلى البر الغربى لتدفن . وهذه هى الصورة التى يجمع عليها كل من وصف جنائز العظماء والأثرياء القدماء من أهل طيبة ، سواء من القدماء أنفسهم

أو من دارسى التاريخ المصرى القديم المحدثين ، ومن بينهم الأستاذ إيرمان نفسه .

فسكان البر الشرقى - إذن - كانت تقيم بين ظهرانيهم أقلية تقارب فى نسبتها نفس الأقلية التى تقيم فى البر الغربى ، من المشتغلين بصناعة الدفن .

وبمعنى آخر .. أننا لو سلمنا بأن كل - أو معظم - القاطنين فى البر الغربى كانوا من أصحاب هذه الصناعة ، لوجب أن نسلم أيضا بنفس الشىء بالنسبة للبر الشرقى ، أى أن نسلم بأن طيبة برمتها - بشرقها وغربها - كانت مدينة للموتى والقائمين على خدمة الأموات !

ولكننا بالطبع لا نسلم بهذا ، كما لا يسلم به عاقل فيما أظن ، وإنما نقول إن طيبة بجانبيها الشرقى والغربى كانت مدينة للحياة لا للموت .. للتجارة والصناعة والحكم والدفاع والتعليم واللهو الخ ... ، وأن وجود قسم كبير مسكون من المدينة فى الجانب الغربى هو أولاً وأساساً بسبب تمتعها بميناءين طبيعيين أحدهما شرق جزيرة النيل، والثانى غرب تلك الجزيرة . ولو كان ثمة تقسيم لوظائف كل من القسمين ، فربما كان تقسيماً إدارياً ، أو تقسيما طبقيا ، أو تقسيماً « مواصلاتيا » : أى أن يكون الميناء الغربى - مثلا -

مخصصاً لقوافل السفن المتجهة شمالا ، والشرقى للمتجهة جنوبا ، أو أى تقسيم نعقله لوظائف الحياة لا لوظائف الموت .

والحقيقة أن هذه الغلطة الحسابية (هل أقول : المغالطة المحسوبة ؟) قد ترتبت عليها إشاعة رائجة ، أو وهم كبير ، مؤاده أن المصريين القدماء – لأسباب عقائدية – كانوا يقيمون المدن والعواصم فى شرق النيل ، ويخصصون الضفة الغربية للقبور .

وهذه الفكرة مخالفة للحقيقة بالنسبة لغالبية المدن فى منطقة الصعيد ومصر الوسطى ، وهى المنطقة التى ينقسم فيها « المعمور المصرى » إلى شرق وغرب . ليس هذا فقط ، وإنما هى عكس القاعدة العامة بالضبط ، إذا طبقناها على « العواصم » المصرية فى التاريخ المصرى القديم كله ، فمصر – منذ أن أصبحت دولة واحدة فى عهد « مينا » (٣١٠٠ ق . م) اقتصرت عواصمها الواقعة في هذه المنطقة على المدن الثلاث الآتية ، وبترتيبها الزمنى وبالمدد التقريبية لاستخدامها كعواصم ، مع استبعاد مدة حكم الهكسوس (١٧٥٠ – ١٥٥٠ ق . م) التى كانت عاصمتهم خلالها فى مدينة أفاريس التى تقع فى الشمال الشرقى من الدلتا :

– منف : عاصمة الدولة القديمة التى تقع غرب النيل عند ميت رهينة الحالية مدة ألف عام (٣١٠٠ – ٢١٠٠ ق . م) . ومقابرها

الحقيقية » والافتراضية » تقع غربها ، أى على حافة الصحراء الغربية .

– اللشت : عاصمة الدولة الوسطى التى تقع غرب النيل أيضا عند حافة الشريط الصحراوى الذى يفصل بين الوادى والفيوم : مدة ٣٥٠ عاماً (٢١٠٠ – ١٧٥٠ ق . م) ومقابرها تقع أيضا فى الضفة الغربية للوادى .

– طيبة : عاصمة الدولة الحديثة التى تقوم عند الأقصر على ضفتى النيل كما رأينا : مدة ٥٠٠ عام (١٥٥٠ – ١٠٥٠ ق . م) .

ونستطيع أن نضيف عاصمة رابعة ظهرت كالجملة الاعتراضية فى فترة الدولة الحديثة وانتقلت فيها العاصمة السياسية إلى « تل العمارنة » ، ولم تستمر إلا مدة حكم « أخناتون » أى بضع عشرات من السنين ثم عادت العاصمة إلى طيبة ، وتقع « تل العمارنة » هى ومقابرها جميعا شرق النيل ، بل تقع مقابرها بالذات فى شرق المدينة لا فى غربها .

فلو استبعدنا أيضا تلك الفترة القصيرة التى انتقلت فيها العاصمة إلى « تل العمارنة » ، لوجدنا أمامنا الحقائق البسيطة الآتية :

أ – أن عاصمتين من العواصم الثلاث (منف – اللشت) تقعان غرب النيل .

ب – أن الثالثة تقع على جانبى النيل كما رأينا .

أى أن عاصمتين ونصفا من العواصم الثلاث واقعة فى غرب النيل .

هذا من الناحية العددية . أما من الناحية الزمنية فإننا نجد أن العاصمة كانت مدة ١٣٥٠ عاماً فى غرب النيل ، و ٥٠٠ عام فقط فى المدينة المزدوجة فى شرق النيل وغربه معاً أى لمدة لا تزيد إلا قليلا عن ربع هذه المدة الزمنية الكلية التى تبلغ ١٨٥٠ عاماً .

يعنى : أنه لو كانت هناك قاعدة جغرافية يمكن أن تستخرج من هذه الإحصائية الصغيرة ، لكانت هذه القاعدة هى أن العاصمة ، وهى أهم المدن ، كانت تختار – غالبا – فى الغرب لا فى الشرق ، وأن الاستثناء هو أن تكون العاصمة – بل نصفها فقط – فى الشرق ، وما يقال عن العواصم يقال أيضا عن معظم المدن الهامة الممتدة من الجيزة إلى قرب نجع حمادى ، كلها ماعدا استثناءات نادرة ، فى غرب النيل .

أما بالنسبة للمقابر ، فإننا أيضا لا نجد لها قاعدة جغرافية مطردة ، فنجد صفاً طويلاً من مناطق الدفن فى الضفة الشرقية

(مثل مقابر عين شمس ، وزاوية الأموات ، وبنى حسن ، ومناطق الدفن الثلاث حول تل العمارنة الخ ..) [1] كما نجد صفا طويلا آخر على الجانب الغربى . مما يدل على أن **القاعدة الوحيدة : هى أنه ليست هناك قاعدة أصلا** . وأن مسألة تقسيم الجهات الأصلية إلى شرق مخصص للحياة وغرب مخصص للموت هى – كما ذكرنا – مجرد إشاعة !

ورغم هذه الحقائق الصريحة يصر دارسو التاريخ على الإلحاح بهذه الإشاعة ، ويتفننون فى ابتكار حكايات وتفسيرات عجيبة لهذه القاعدة الجغرافية الوهمية التى اخترعوها وصدقوها ، فمثلا يؤكد « إيرمان » أنهم كانوا يدفنون موتاهم فى الغرب لأنهم « تخيلوا » أن المدخل إلى عـالم الغيب هو فى جهة الغرب لأن الشمس تغرب فيه ، ثم يقرر فى ثقة تامة « أن المصريين كانوا دائما يبنون

---

(١) تؤكد الاكتشافات الأثرية فى الضفة الشرقية للنيل – كل يوم – صحة ما ذهبنا اليه من أن اقتصار الدفن على الغرب ليس إلا إشاعة . وآخر ما وصل إلى علمنا منها : مقابر منطقة أطفيح بالقرب من حلوان ، حيث عثـر على ١٥ تابوتا زنة كل منها حوالى ٦٠ طناً ، ولا تزال الحفائر مسـتمرة (راجع : جريدة الأهرام فى ١٩٩١/١١/٤ – ص ١ – عمود (٥)) .

قبورهم فى الغرب إلا إذا حالت دون ذلك ظروف قهرية »[1] وهو بالطبع لا يقول لنا ما هى الظروف القهرية التى أوجدت الصف الطويل الذى ذكرناه من أماكن الدفن بالضفة الشرقية ، ولا السبب فى وجود مقابر تل العمارنة – مثلا – فى جميع الاتجاهات الأصلية المحيطة بها .. إلا الغرب بالذات ! لا يهم .. المهم هو ترويج الإشاعة والإلحاح بها فحسب . أما نحن فنرى أن القاعدة الوحيدة التى يمكن أن تكون صحيحة ، هى أنه بالنسبة لكل حالة على حدة ، وللظروف الجغرافية لكل مدينة على حدة ، كان يحدد – أو يتحدد تلقائيا – أنسب مكان لإقامة الأحياء ولأداء المدينة وظائفها الحضارية ، ويخصص مكان قريب من المدينة – فى شرقها أو غربها أو شمالها أو جنوبها – لدفن من يموت من أهلها ، وبحيث لا يتعارض ذلك المكان مع قيام المدينة – وهى الهدف الحقيقى – بوظائفها الحضارية .

وما دمنا فى معرض الحديث عن الأقصر .. « طيبة » ، فلو تخيلنا أننا كنا – بعقولنا هذه التى نعتز بها – مكان أولئك القدماء ، لاخترنا نفس ما اختاروه . فالمدينة وظيفتها الأساسية حماية وحكم طريقى قفط والكاب ، فمن الطبيعى أن تكون دور الحكم

---

(١) إيرمان : مصدر سابق ص ٣١٠ .

واستحكامات الدفاع والمنشآت التجارية فى الجانب الذى يقع فيه هذان الطريقان ، وأن يكون لها قسم غربى يخدم الميناء الغربى .... أما المقابر فمن الطبيعى أن توضع فى مكان يشترط أن يكون أولا غير صالح للزراعة أو العمران ، وثانيا أن يكون قريبا نوعاً ، ولكنه بعيد بدرجة كافية عن هذه المنطقة ، على الأقل لكى لا تعوق عمليات الدفن والجنائز الخ .. الوظائف الأساسية للمدينة .. أى فى الجبل الغربى .

فاختيار - أو نشأة - موقع كل مدينة ، عاصمة كانت أو غير عاصمة كانت تحكمه بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية والاستراتيجية ، عوامل جغرافية لا حيلة لأحد فى تغييرها ، منها - مثلا - أن العرض الأكبر للوادى الأخضر يقع فى الجانب الغربى بامتداد الوجه القبلى ، ثم تتبدل الصورة عند نجع حمادى ، فيصبح معظم الوادى فى الشرق ، والجزء الأضيق فى الغرب ، وهو ما تلاحظه عندما تركب قطار الصعيد من القاهرة متجهاً إلى أسوان ، تجد القطار يسير بك غرب النيل من الجيزة وحتى نجع حمادى ، مروراً بمحافظات بنى سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج - حيث الوادى الأخضر فى الغرب ثم يتحول القطار بعد كوبرى نجع حمادى إلى الشرق ، لأن الوادى ، وبالتالى معظم المدن والقرى ، قد أصبح فى شرق النيل .

وكذلك المدن والعواصم والمواقع كلها ، مثلها مثل القطار ، القاعدة الوحيدة لتحديد مكانها هى المصلحة ، والوظيفة ، والعمران، والدور الحضارى الذى تقوم به .

ويستند بعض دارسى التاريخ المصرى ، فى تدعيم هذه الإشاعة (إشاعة مدن الشرق وقبور الغرب) ، لا على تلك الغلطة - أو المغالطة - التى ذكرناها بالنسبة لعدد قبور الموسرين بمدينة طيبة .. فحسب ولا على المغالطة الثانية عن مواقع المدن ومواقع القبور ، بل على نصوص فرعونية تتحدث عن الموت باعتباره «الذهاب إلى الغرب » ، وهو تشبيه قديم ليس له علاقة بالجغرافيا ، وإنما كان الناس يتحدثون حتى فى كلامهم العادى ، كما نتحدث نحن فى هذا العصر وفى كل العصور وفى جميع الأمم وجميع اللغات والأديان ، عن « غروب شمس العمر » ، « وإشراقة الحياة » ، « فجر الحضارة » وتعبيرات أخرى لا تحصى ، مستمدة كلها من التشبيه الجاهز الموجود أمام كل إنسان ، وهو ولادة النهار بما يصاحبها من يقظة ونشاط بظهور الشمس من جهة الشرق ، وموت النهار وحلول الظلام بغروبها فى جهة الغرب ، وربما استخدم نفس هذا التعبير « الغروب » ، أو الذهاب إلى الغرب ، لوصف الملايين من الموتى الذين دفنوا فى « الشرق » ، فى مناطق الدفن الشرقية

العديدة التى ذكرنا بعضا منها . فالمقصود هو المعنى المجازى لهذه التعبيرات لا معناها الجغرافى الحرفى ، وينبغى ألاّ تحمل هذه التعبيرات المجازية فوق ما تحتمل ، باستنتاج قواعد صارمة لتفسير أعمال تاريخية عظمى ، وخاصة إذا كانت هذه القواعد مبنية على غلطات (؟) حسابية وهندسية عممت ضد جميع الحقائق الإحصائية والجغرافية ، حتى تولدت عنها إشاعة روّجت ورسّخت وكرّست .. إلى أن اكتسبت قوة القانون المطلق ، الذى تفسر به حضارة عظمى كالحضارة المصرية القديمة ..

واستكمالا لقصة « طيبة » القديمة ، فمن الطبيعى أن نرى أن السبب فى غروب شمسها ، وأفول نجمها بشرقها وغربها ، لم يكن – كما يوحى إلينا كلام الأستاذ إيرمان – لمجـــرد أن بعض الملوك أرادوا نقل العاصمة إلى الشمال ، وإنما لظهور ظروف موضوعية كثيرة ، منها : أهمية طرق الشمال عبر سيناء وشمال الجزيرة إلى قلب الجزيرة العربية والعراق ، وتعرض البلاد للغزو من نواح كثيرة من جهة الشمال خاصة ، مما نقل مركز الثقل العسكرى إلى الدلتا ، وازدهار النوبة وانتشار الحضارة إلى أعماق وادى النيل الجنوبى حتى الشلال الرابع على الأقل ، مما أغنى تجارة إفريقيا عن الاقتصار على الساحل الصومالى ، وابتداء ظهور أهمية الساحل

الشمالى (البحر المتوسط) كأداة وصل اقتصادية مع الساحل الشرقى (بلاد الشام) ، ومع جزر البحر المتوســط (قبرص وكريت) ، ومع بلاد اليونان نفسها ، كنتيجة لتقدم بناء السفن وصناعة الملاحة .

وشيئا فشيئا ، تزايدت أهمية هذه العناصر ، وتناقصت بالمقابل أهمية « طيبة » من الناحيتين التجارية والعسكرية ، حتى جاء وقت أصبح الاختيار الصائب - بحتمية الظروف الموضوعية لا لأسباب عقائدية ، ولا لإرادة تسلطية من ملك هنا أو ملك هناك - هو نقل العاصمة إلى مدينة أخرى كانت قد نشأت ونمت فى ظل تلك الظروف الجديدة ، حتى أصبحت صالحة ، ولائقة ، ولازمة ، لأن تكون العاصمة الجديدة .

وربما يخطر ببال القارىء أن هذه النظرة المصرية القبورية نظرة قديمة نسبياً ، تعبر عن رأى كاتب توفى منذ ٦٠ عاماً وألف كتابه الذى استشهدنا به منذ مائة عام ، وأن نظرة الباحثين منذ ذلك التاريخ لابد وأن تكون قد تغيرت أو تطورت أو تنورت بفضل الاكتشافات الأثرية الكثيرة التى تمت منذ ذلك التاريخ من ناحية ، وبفضل سيادة النظرة الواقعية فى علم التاريخ عامة - من ناحية أخرى . ولكن هذا للأسف غير صحيح ، بل عكسه هو الصحيح ،

على الأقل فيما وقع إلىّ من كتابات عن التاريخ المصرى القديم منذ أيام إيرمان وحتى كتابة هذه السطور . وأقربها - على سبيل المثال- مقال موّلته ونشرته « المجلة الجغرافية القومية » الأمريكية المشهورة ، فى عددها الصادر فى أبريل ١٩٩١ (١) ، ويردد فيه كاتبه نفس تلك الأفكار العتيقة بشكل مكثف ، وبصورة تخلو حتى من تلك الومضات الخاطفة القليلة من الواقعية والموضوعية التى نراها عند « إيرمان » ، مما حدا بأحد القراء أن يبعث برسالة للمجلة - نشرت فى عدد أغسطس من نفس العام - يحتج فيها على تسمية رمسيس بالعظيم ، لأنه لم يزد عن أن استغل رعاياه العبيد فى بناء منشآت هائلة لمجده الشخصى لا لمصلحة شعبه .

ونحن نلتمس لذلك القارىء العذر كل العذر فى رسالته تلك ، فهى النتيجة الطبيعية الحتمية (أو الغرض المقصود المتعمد) من هذه النظرة التى تحيل التاريخ المصرى - زوراً - إلى مجموعة مهوشة من قصص الملوك الجبابرة والآلهة الوثنية .

---

(١) ريك جور : مقال بعنوان « رمسيس الأكبر » المجلة الجغرافية القومية ، واشنطن ـ أبريل ١٩٩١ ص ٢ وما بعدها .

Rick Gore : Article ; " Ramses the Great " ; The National Geographic Magazine April 1991 , P. 2 .

ب – مدينة عين شمس

تذكر كتب التاريخ المصرى القديم هذه المدينة إما بالاسم الذى أطلقه عليها اليونانيون وهو « هليوبوليس » : أى مدينة الشمس ، أو بالاسم الذى يذكرها به الكتاب المقدس وهو « أون » أو « آن » ، أو بالاسم الذى سجل المؤرخون اليونانيون أن المصريين فى زمانهم كانوا يسمونها به وهو « پيرع » . بينما تذكرها معظم كتب المؤرخين والجغرافيين العرب باسمها الحالى « عين شمس » . وهى الضاحية القريبة من « مصر الجديدة » والتى توجد بها المسلة القديمة .. الأثر الوحيد الباقى من مبانيها الكثيرة العظيمة .

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ المصرى القديم من ذكر لهذه المدينة ، باعتبارها المدينة المقدسة التى بها معبد الشمس الكبير ، والتى كانت مركزا لعبادة إله الشمس « رع » . وعلى كثرة ورود ذكرها بهذه الصوة المقتضبة فى مواضع متفرقة ، لم أجد كتابا يختص بذكر تاريخها وآثارها ، إلا كتابا واحداً نفيساً للأثرى المصرى الكبير الراحل « أحمد كمال باشا » ، ألفه فى عام ١٨٩٦ م، وأسماه « ترويح النفس فى مدينة الشمس » ، وجمع فيه كل ما وقع إليه عنها من كتابات المؤرخين ، ومن الكتابات المصرية القديمة وتواريخ الملوك المصريين الذين كانت لهم صلة وثيقة بها ، وتفاصيل

علوم الفلك التى يرى أنها نبعت منها ، بالإضافة إلى مشاهداته الشخصية ، وأعمال التنقيب التى قام بها بنفسه ، والآثار - قليلة الأهمية للأسف - التى عثر عليها فيها . فالمدينة تكاد تكون مندثرة تماما إلا من مسلة وحيدة ، بقيت كالعلامة أو النقطة التى تحدد موقعها على الخريطة .

وسأورد فيما يلى قائمة بالمعلومات المتناثرة المتاحة عن هذه المدينة ، والتى استمد معظمها من كتاب كمال باشا ، بعد ترتيبها بالترتيب التاريخى لحدوثها ، لكى نتمكن بعد ترتيب هذه «الفسيفساء» من أن نتمثل الصورة الحقيقية لهذه المدينة الهامة ، ودورها الحقيقى فى حضارة وتاريخ المصريين القدماء :

(١) فى عصور ما قبل التاريخ أى قبل اتحاد الوجهين (قبل ٣١٠٠ ق . م) [١] .

اختط المصريون المدينة قبل ظهور التاريخ ، وكانت مركزا للإشعاع الحضارى فى مصر السفلى (الوجه البحرى) قبل الوحدة ، كما كانت مركزا لحكومة دولة مصر السفلى .

وتذكر إحدى الأساطير المصرية (أسطورة « شو ») أنه فى الزمن القديم ثار الناس على « رع » معبود المدينة فسلط عليهم

---

(١) احمد كمال باشا . ترويح النفس فى مدينة الشمس - الطبعة الأولى - بولاق - ١٩٨٦ م - راجع صفحات ٨ ، ٩ ، ٢١ ، ٨١ - ٨٣ .

المعبودة « تفنوت » فأعملت فيهم القتل ، ثم هدأ غضب « رع » ورجع عن إبادة الجنس البشرى ، وعرج إلى السماء ، تاركا الملك لابنه « شو » . ويستدل كمال باشا من هذه الأسطوره على أن المدينة كانت ميدانا للحرب منذ القدم . ونعتقد أن هذا الرأى فيه كثير من الصواب ، لأن أساطير الأمم ، وإن لبست ثوب الخرافة ، إلا أنها تحمل فى طياتها ظلالاً من الحقيقة ، أو رموزا تشير الى الحقيقة ، فى صورة أسطورية .

كما يروى ديودور الصقلى (المؤرخ اليونانى الذى حضر إلى مصر حوالى سنة ٦٠ / ٥٧ ق . م) أن سكان هيليوبوليس فى عصره كانوا يدّعون الأقدمية على ما سواهم من المدن .

(٢) فى عصر الدولة القديمة (٣١٠٠ — ٢١٠٠ق.م) :

فى أوائل عصر الدولة القديمة أقيمت أهم مبانى المدينة ومن بينها « المعبد » الذى كان « المدرسة الجامعة لمصر » ، كما كان بها المرصد الذى ترصد منه حركات النجوم والأفلاك ، والذى خرجت منه علوم الفلك والتقويم التى اشتهر بها المصريون القدماء . وكان الفلكيون يسمون « حدّاد البصر » أو « مراقبى الليالى » إشارة إلى تحديقهم فى النجوم (١) .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦ – ٢٨ ، ٥٣ ، ٧١ ، ١٣٦ – ١٥٦ .

وفى هذه الحقبة يظهر لنا اسم « أمحتب » الذى يقترن ببناء هرم سقارة المدرج (حوالى ٢٦٩٠ ق . م) ، وهو أول بناء حجرى فى التاريخ . كما يقترن بمعبد الشمس ، أو جامعة عين شمس ، حيث اشتهر أمحتب أيضا بأنه كان طبيبا عظيما ، ووزيراً للملك «زوسر» ، « وكاهنا » أكبراً لعين شمس ، فضلا عن كونه عالماً فى الفلك .

(٣) فى عصر الدولة الوسطى (٢١٠٠-١٧٥٠ق.م) :

فى حوالى عام ١٩٩٠ ق . م قام الملك « سنوسرت الأول » بعمل إصلاحات كبيرة فى المدينة ، يذكر منها فى بردية محفوظة بمتحف برلين : إنه أصلح العين التى فيها (يذكر كمال باشا أنها عين قرص الشمس ، ونعتقد أنها عين الماء التى تروى المدينة والتى ذكرتها البردية بعد ذلك باسم « البحيرة الأزلية ») ، وأصلح معبد الإله « أتوم » ، ورتب قرابينه المقدســة ، وأسس لنفسه قصرا بجانبه ، وقام بنفسه بتجديد أركان المعبد الأربعة ، وتذكر البردية أن هذه الإصلاحات كانت عيداً شاملاً لمصر قاطبة .

وقد أقام نفس هذا الملك المسلة التى لا تـزال قائمة حتى الآن [١] .

---

(١) على جانب من الورقة فى هذا الموضع يتساءل المؤلف رحمه الله فى مسودته عما إذا كان هذا الملك هو الذى شق ترعة عين شمس ؟ (المحرر) .

ويذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن الملك « سنوسرت » الأول بنى حائطاً طوله ١٥٠٠ استادة (تساوى ٤٠٠ ك . م تقريبا) يمتد من مدينة الطينة (جرجا) إلى عين شمس ، لوقاية أرض مصر من غارات الشام والعرب . ولم يبق من هذا السور أثر ظاهر فى العصر الحديث ، ولذلك يستنتج كمال باشا أنه قد دمر ثم انزوى تحت طمى النيل .

ويؤثر عن هذا الملك أنه كان محارباً شجاعاً ومصلحاً كبيراً ، أمَّن حدود مصر الشرقية والجنوبية ، وبنى قلعة منيعة عند وادى حلفا ، وانتصر على بدو الصحراء الغربية ، وهو الملك الذى حدثت فى عهده قصة « سنوحى » الشهيرة ، التى تحكى قصة فراره من بطش الملك ، وإقامته مع بدو جنوب الشام ، ثم عودته إلى مصر وعفو الملك سنوسرت عنه .

(٤) عصر الهكسوس (١٧٨٠ – ١٥٥٠ ق .م) [١]

يذكر الكاهن المصرى القديم « مانيثون » أن الهكسوس دمروا جميع المدن والمعابد المصرية ونهبوها وحرقوها وذبحوا خلقا كثيرا من ذكور سكانها ، واستعبدوا من بقى من نسائها وأولادها ... ومن

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٦ – ١٥٧ .

المحقق أنهم حملوا بغيظهم على مدينة الكهنة « أون » ودمروها وفتكوا بسكانها .

ويعتقد بعض المؤرخين أن المدينة هجرت بعد ذلك ، ويدحض كمال باشا هذا الرأى استنادا إلى أن الهكسوس بعد أن حكموا مصر نهجوا منهج المصريين وتحضروا بحضارتهم ، فلابد أنهم قد أرجعوا للمدينة رونقها وأعادوا إليها جلالها .

(٥) الدولة الحديثة :

أ – فى عهد أمنحتب الأول (١٥٤٠ ق . م) [١] :

يذكر الكاهن مانيثون أن الملك جمع « المجذومين والمدنسين » – الذين يُعتقد أن المقصود بهم هم العبرانيون فى زمان نبى الله موسى عليه السلام – وأنزلهم فى مدينة « أوارس » بعد خرابها منذ عهد الهكسوس ، فاتحد هؤلاء مع بقايا الهكسوس الموجودين فى الشام ، وتجمعوا فى عين شمس ، وهجموا على مصر فأخذوها بدون قتال ، ثم جمع أمنحتب الأول وابنه جيشين وهجموا على الرعاة والمجذومين فهزموهم وطاردوهم حتى حدود الشام .

ب – فى عهد تحتمس الثالث (١٤٥٠ ق . م) [٢] .

---

(١) نفس المصدر ص٨٢، ٨٣ . (٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

بينت الحفائر التي أجراها « مريت » عام ١٨٥٨ أن تحتمس الثالث اشتغل بتوسيع أحد معابد عين شمس .

جـ – في عهد سيتي الأول (١٣٠٠ ق . م) [١] :

في أواخر القرن الماضي وجد بالقرب من عين شمس – في مكان يسمى تل اليهودية – حجر يُعتقد أنه من عهد سيتي الأول ، مسجل عليه أن ذلك الملك قد أقام محراباً عظيماً على هيئة أفق السماء وبنى للإله « رع » معبداً من الحجر المنحوت ، ومصراعين من الحجر الأبيض وبابين من البرونز .. ومسلتين من الجرانيت وبناء كأفقي السماء .

كما يحتوي ذلك الحجر على خريطة جزئية للمعبد مبين عليها السور المرتفع وموقع المسلتين ، وتمثالي أبي الهول المقامين أمام المعبد . ويستدل من هذا الحجر على اهتمام الملك سيتي الأول بالمدينة .

د – في عهد رمسيس الثالث ورمسيس الرابع (١٢٠٠ – ١١٣٠ ق . م) : [٢]

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٨ .   (٢) نفس المصدر ص ٢٨ – ٥٢ .

فى حوالى عام ١٨٥٨ م عثر على بردية طويلة جدا ، مسجل عليها بالتفصيل ما كان عليه المعبد فى عهد رمسيس الثالث وأوائل عهد رمسيس الرابع ، والاصلاحات الكبيرة التى قام بها فى مدينة عين شمس ، كما تتضمن قائمة بممتلكات معبد الشمس والإيرادات الهائلة التى كانت ترد إليه (والتى اعتبرها دارسو التاريخ المصرى « قرابين » تقدم للإله المعبود) ، كما تذكر تعداد سكان المدينة ، حيث بلغ عدد رجالهم فقط ١٣٠٠٠ نسمة منهم « الكهنة » والحراس والعمال والبناءون والفلاحون والملتزمون والعبيد الخ ... ويضيق المجال هنا عن إيراد تفاصيل هذه الوثيقة ، ولكننا نذكر بعضا من الاصلاحات والانشاءات التى أقيمت فى المدينة ، وطرفا من الأموال التى كانت تعتبر من أملاكها والتى عددتها الوثيقة فيما يشبه أن يكون « محضر جرد » .

فمن الإصلاحات : بالإضافة إلى تماثيل الآلهة ، وصور المعبودات الخ ..

تطهير (تنظيف) المدينة وإصلاح معبدها بعد أن كان مدمراً ، وبناء سور حول البستان ، وبناء بيت للقرابين ، واصطبلات واسعة ، وبيوت لتربية الطيور ، وحدائق عظيمة من الكروم والزيتون والنخيل والزهور والأخشاب العطرية ، وزيادة مساحة الحقول وإنتاجيتها من

الحبوب ، واستصلاح أراض جديدة شمال وجنوب المدينة للزراعة ، وترتيب الرماة لصيد البقر الوحشى والجذافين [1] ليحضروا الناس إلى المعبد ، وبناء الحوض وصناعة البحيرة لأخذ الماء منها ، وترتيب حراس من القبائل للتنظيف والرش ، وإعداد السفن لنقل البضائع إلى المعبد (عبر الترعة التى يُعتقد أن ملوك الدولة الوسطى قد شقوها ليصلوا المدينة بالنيل) .

وأما ممتلكات المدينة (أو المعبد ؟) فشىء هائل يبلغ فيه الذهب وحده حوالى ٦٥٠ كجم ، ومثلها أو يزيد من الفضة ، والأحجار الكريمة ، والأخشاب ، والأوانى ، والأثاث ، والأطعمة ، والماشية ... مما يشهد بأن المدينة كانت فى ذلك العصر - على الأقل - مدينة كبيرة عامرة ذات أهمية عظيمة للدولة .

(٦) الغزو النوبى (٧١٥ ق . م) [2] :

عندما غـزا النوبيون مصر فى ذلك التـاريخ ، قـام ملكهم « يعنخى » بزيـارة المدينة ، حيث قام بإجـراء طقوس دينية تكريمـا لآلهتها ، وسجل هذه الزيارة ضمن حجر أثرى موجـود بالمتحف المصـرى ، يعـرف باسـم « حجـر جبل برقـل » .

---

(١) هكذا كتبها المؤلف رحمه الله ترجمة فى الاغلب لكلمة أجنبية ولا أدرى المصدر اللغوى الذى رجع إليه فى اختيارها ولعلها من نفس مادة المجداف أو المجذاف (المحرر) .

(٢) نفس المصدر ص ٥٣ - ٥٤ .

(٧) الغزو البابلي (٦٢٥ ق . م) [١] :

دمر الملك البابلي بختنصر (نبوخذ نصر) هذه المدينة – للمرة الثالثة بعد الهكسوس – وهو ما سجله الكتاب المقدس في صورة نبوءة للنبي أرميا :

« ... ها أنذا أرسل وآخذ نبوخذ نصر ملك بابل عبدي وأضع كرسيه فوق هذه الحجارة التي طمرتها فيبسط ديباجه عليها ، ويأتي ويضرب أرض مصر ، الذي للموت فللموت ، والذي للسبي فللسبي ، والذي للسيف فللسيف . وأوقد ناراً في بيوت آلهة مصر فيحرقها ويسبيها ويلبس أرض مصر كما يلبس الراعي رداءه ثم يخرج من هناك بسلام . ويكسر أنصاب بيت شمس التي في أرض مصر ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار . » [٢]

(٨) في عهد الملك « أمازيس » أو أحمس سانت (٥٥٠ ق . م) [٣] :

حكم هذا الملك في الفترة السابقة على الغزو الفارسي ، وهي فترة بلغت فيها مصر درجة كبيرة من الضعف ، مما حدا بالملك إلى أن يقتر على « المعابد » ويمنع مرتباتها .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٤ .
(٢) الكتاب المقدس – سفر أرميا الإصحاح ٤٣ .
(٣) كمال باشا : ترويح النفس – مصدر سابق ص ٥٣ .

إلا أنه استثنى ثلاثة « معابد » فقط من هذا المنع ، هى المعابد المقـامة في منف ، وبسـطة (بالقرب من الزقازيق الحالية) ، وعين شمس .

وفى هذه الفترة حضر إلى المدينة الفيلسوف الإغريقى فيثاغورث حيث أقام بها بضع سنين قبل أن يعود إلى أوربا ليؤسس « أكاديمية » فى كروتونا فى جنوب إيطاليا ، التى علم فيها تلامذته نظريات « دلالات الأرقام » ، والتى تبعت منها بعد ذلك علوم الهندسة النظرية وفلسفة الأرقام ، ومن بينها النظرية التى اشتهرت باسمه عن العلاقة بين أضلاع المثلث القائم الزاوية ، والتى ينسب إلى تلامذته – لا إليه – « اكتشافها » .

ويروى المؤرخ العربى ابن أبى أصيبعة (٦٠٠ – ٦٦٨ هـ = ١٢٠٣ – ١٢٦٩ م) – نقلا عن مصادر يونانية فى الغالب – كيف اختبـر كهنة عين شمس ومنف فيثاغورس اختبارات شديدة الصعوبة ، قبل أن يقبلوا أن يجتمعوا به ، ثم إعجابهم وإعجاب الملك أمازيس به بعد ذلك وتنصيبه مسئولا عن الأضاحى والقرابين وهو أول غريب يعين فى ذلك المنصب [١] .

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، طبعة مكتبة الحياة بيروت (بدون تاريخ) – ص ٦٤ .

(٩) الغزو الفارسي (٥٢٥ ق . م) : [١] :

عندما غزا الفرس مصر تهيج ملكهم « قمبيز » على المصريين وعاملهم بالقسوة ونهب معابدهم وأتلف كثيرا من آثارهم ، وأضرم حريقاً هائلا دمر به عين شمس – للمرة الثالثة بعد بختنصر – وأتلف الكثير من مسلاتها . وقد بقى أثر هذا التخريب حتى عهد البطالسة (٣٣٢ – ٢٠ ق . م) حيث لم يبق من المدينة إلا « المعبد » تحيط به الصحراء .

(١٠) أثناء الحكم الفارسي (٥٢٥ – ٣٣٢ ق .م) :

(أ) فى هذه الفترة زار المؤرخ اليونانى « هيرودوت » (٤٢٥ – ٤٨٤ ق . م) مصر ، أثناء حكم الأسرة السابعة والعشرين الفارسية. وذكر فى تاريخه أن سكان عين شمس اشتهروا بالمعارف (التاريخية) أكثر من بقية المصريين ، وأنه التقى بكهنة «هليوبوليس» ، وأخذ منهم كثيرا من المعلومات التى سجلها عن التاريخ المصرى القديم [٢] .

(ب) وفى هذه الفترة أيضا حضر إلى هليوبوليس الفيلسوفان اليونانيان « أفلاطون » ، و « يودوكسس » ، ودرسا بها مدة ١٣

---

(١) كمال باشا : ترويح النفس – مصدر سابق – ص ١٣٤ ، ١٥٧ .

(٢) هيرودوت : ص ٤٩ مصدر سابق .

عاماً قبل أن يعودا إلى بلادهما ، ليؤسس أولهما الأكاديمية التى خرجت - من بين من خرجت - أستاذ الأساتذة أرسطو ، الذى حكمت أعماله الفكرية (أو على وجه الدقة الأعمال الفكرية المنسوبة إليه) مسيرة العلم والفكر فى أوروبا ومعظم العالم المعروف مدة عشرين قرناً .

أما ثانيهما « يودوكسس » ، فقد ألف أول كتاب له وهو مقيم فى عين شمس ، وعندما عاد إلى بلاده اشتهر بعلمه الواسع فى الرياضيات ، والفلك ، ونظرية الأرقام ، كما قدم أول تفسير منضبط (Systematic) تعرفه أوروبا لحركة الشمس والقمر والكواكب ، وضع نموذجاً مجسماً يحتوى على سبع وعشرين كرة لشرح حركة القمر والنجوم والكواكب ، كما تنسب إليه بعض كتب الهندسة الإقليدسية .

وقد أورد استرابو فى « جغرافيته » نصا عظيم الدلالة عن علاقة هذين العالمين بمدينة عين شمس ، كتبه عندما زارها هو بعد زمانهما بحوالى ٤٠٠ سنة ؛ يقول :

« ... فى هوليوبوليس رأينا منازل الكهنة (التى عاش فيها) ، والمدارس (التى درس فيها) أفلاطون ويودوكسس ، لأن يودوكسس ذهب إلى ذلك المكان بصحبة أفلاطون ، حيث أمضيا ١٣ عاما مع الكهنة ، كما قرر بعض الكتاب .

« فقد كان هؤلاء الكهنة ممتازين فى معرفتهم بالأجرام السماوية، ورغم تكتمهم وتباطئهم فى البوح بهذه المعارف ، فإن أفلاطون ويودوكسس ألحا عليهم لمدة طويلة ، ملتمسين منهم أن يتفضلوا بالسماح لهم بتعلم بعض مبادىء تلك النظريات ، إلا أن البرابرة (يعنى : الأساتذة المصريين !) أخفوا عنهم معظم المعلومات .

« ومع ذلك ، فقد علمهم هؤلاء الناس – بالفعل – أجزاء اليوم الليلة (يعنى : كسور اليوم = حوالى ٦ ساعات) التى تضاف إلى أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستين (٣٦٥) ، لكى تكمل زمن السنة الحقيقى . فالسنة الحقيقية لم تكن معروفة للإغريق فى ذلك الوقت – وكذلك الكثير من الأشياء الأخرى ، إلى أن تعلمها الفلكيون المتأخرون ، من الرجال الذين ترجموا سجلات الكهنة إلى اليونانية . وهم (لا يزالون) يتعلمون علومهم حتى اليوم (أى : حتى أيام استرابو فى أوائل القرن الأول الميلادى) ، جنبا إلى جنب مع علوم الكلدانيين »[1] (ما بين الأقواس من عندنا) .

---

(١) استرابو – الجغرافية – مصدر سابق ص ٦٣ ، ٦٤ .

(١١) الغزو اليونانى وعصر البطالسة (٣٣٢ – ٣٠ ق . م) :

عندما غزا الإسكندر الأكبر مصر، عرف عنه توقيره « لآلهتها » ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن أية أعمال تدميرية قام بها فى عين شمس أو غيرها ، بخلاف الفاتحين القادمين من الشرق (الهكسوس البابليون / الفرس) .

وفى أواخر العصر البطلمى حضر إلى مصر المؤرخ اليونانى ديودور الصقلى [١] .

(١٢) الغزو الرومانى (٣٠ ق . م) :

بعد أن غزا الرومان مصر بقيادة يوليوس قيصر ثم اكتافيوس (أغسطس) قيصر ، اتسم حكمهم بنهب كنوز الحضارة المصرية ، سواء منها ما أمكنهم العثور عليه فى باطن الأرض أو ما وجدوه ظاهراً فوقها ، ومنها المسلات التى نقلوها إلى عواصم إمبراطوريتهم فى روما وبيزنطة ، ومن بينها مسلات كانت قائمة – لم تدمر بعد – فى عين شمس (٢) .

---

(١) عند هذا الموضع ترك المؤلف بياضا فى المسودة كتب عليه «محجوز لديودور الصقلى » ، ولكن الوقت لم يسعفه ليعود إليه (المحرر) .

(٢) راجع كتاب « المسلات المصرية » للأستاذ لبيب حبشى – القاهرة ١٩٨٤ .

Labib Habashy ; The Obelisks of Egypt ,The American Universty in Cairo presss, 1984 .

ويبدو أن العملية العلمية والتعليمية فى المدينة توقفت فى ذلك العصر ، واقتصر نشاط المدينة على الجانب الدينى ، كما يستدل عليه من شهادة « استرابو » التى سجلها فى نفس كتابه الذى ذكرناه أعلاه ، عندما زار مصر فى أوائل عهد الاحتلال الرومانى ، يقول :

« فى هليوبوليس ، رأيت المنازل الرحبة التى يعيش فيها الكهنة . ويقال إن هذا المكان بالذات كان فى العصور القديمة مُقاماً للكهنة الذين كانوا يدرسون الفلسفة والفلك . ولكن كلا من هذه المنظمة ودراساتها قد اختفى الآن . وفى الحقيقة ، لم أستدل فى هليوبوليس على شخص متمكن من تلك الدراسات ، ولم أجد إلاّ أشخاصاً يقومون بتقديم الأضاحى ، ويشرحون للغرباء ما يتعلق بالطقوس المقدسة .

وعندما أبحر أليوس جالوس (ربما كان قائدا رومانيا) مصعدا فى مصر ، كان بصحبته رجل من الإسكندرية اسمه كيريمون ، كان يتظاهر ببعض العلم بهذه المعارف ، ولكنه كان متنفخا جاهلاً » . (ما بين الأقواس من عندنا) [١] .

---

(١) استرابو – الجغرافية – مصدر سابق ص ٨٤ .

(١٣) العصر المسيحى (من القرن الثالث الميلادى) وحتى العصر الحاضر [1] :

ابتدأ التخريب الكلى « للمعبد » بعد نبذ الديانة المصرية القديمة وظهور المسيحية واحتلال العمائر المقدسة والإقامة فيها . فاندثرت تدريجيا واستمر اندثارها وتآكلها خلال العصر الإسلامى ، حتى لم يبق منها الآن - كما ذكرنا - إلاّ مسلة وحيدة .

●●●

ويظهر لنا من هذه القائمة المختصرة - على الفور - أن السمة الواضحة للمدينة « ومعابدها » أن هذه المعابد كانت فى جوهرها الحقيقى - جامعة ، وجامعة عظمى ، أقدم جامعة فى مصر ، وربما أعرق جامعة فى العالم كله . بدأ تاريخها العلمى المعروف بتخريج عبقرى الدولة القديمة « أمحتب » ، وانتهى بعد ٣٠٠٠ سنة إلى تخريج عباقرة ثلاثة على الأقل هم فيثاغورس وأفلاطون ويودكسس . وما بين هذين التاريخين لا يعلم إلاّ الله كم خرّجت من الأفذاذ والعلماء غير المشهورين أو المعروفين لنا ، من بين أكثر من مائة جيل من العلماء والمتعلمين وطالبى العلم .

---

(١) أحمد كمال باشا : ترويح النفس - مصدر سابق ص ١٣٤ .

فمن المؤكد أن فيثاغورس لم يأت من بلاده إلى المدينة ويخضع للاختبارات العلمية القاسية التى مر بها لكى يناقش مع « الكهنة » أفضل الطرق لتقديم القرابين ، وإنما جاء لينهل من معارفهم العلمية ، فى مجالات الفلسفة والرياضيات ، التى نقلها إلى قومه ، ومن أشهرها – وإن كانت من أقلها أهمية – النظرية المعروفة باسمه عن أضلاع المثلث القائم الزاوية (وبالمناسبة : هذه النظريّة كانت معروفة لكل صبى من صبية الكتاتيب فى مصر قبل أن يولد فيثاغورس بآلاف السنين ، وكانوا يطبقونها فى رسم الزاوية القائمة بأسهل الطرق ، وهى أن يرسموا مثلثاً أطوال أضلاعه ٣ ، ٤ ، ٥ وحدات طولية) .

ومن المؤكد أيضا أن أفلاطون – وصاحبه يودوكسس – لم يهاجرا من أثينا ليقيما ١٣ عاماً فى عين شمس لكى يتدربا على إطلاق البخور وقراءة التعاويذ ، بل لكى يلتمسا من أساتذتها (البرابرة ؟) أن يبوحوا لهما ببعض الحقائق العلمية المعروفة لهم – كما رأينا .

كما أن أمحتب من قبلهما بـ ٢٥٠٠ عام ، لم يستلهم من إله الشمس « رع » كيفية إقامة بناء حجرى بارتفاع ٧٠ متراً (أى ٢٣ طابقاً) ولأول مرة فى التاريخ ، وإنما توصل إلى ذلك من خلال

عملية تراكم طويلة للعلوم والمعارف والتجارب والأبحاث والمراجع ، بدأت من قبل عصره بمئات السنين فى هذه الجامعة .

ثم تشعبت وتفرع منها – من واقع القائمة التى ذكرناها – الفروع الآتية : الهندسة – العمارة – الفلك – الرياضيات – الفلسفة – الطب – التاريخ – القانون ... بالإضافة إلى علوم اللاهوت ، التى صاحبتها منذ أقدم عصورها ، والتى كانت تمثل – فى أوائل عصورها الواجهة ، أو الكسرة الخارجية التى تكسب هذه الجامعة ومدينتها التى أقيمت فيها ، الاحترام والتوقير اللازمين لإقامة حاجز من الإجلال فى نفوس العامة والبسطاء .

أما الجوهر ، الرسالة ، الوظيفة الحقيقية لمعابدها ، فقد كانت هى العلم .. الذى حملت مشعله ٣٠٠٠ سنة ، حتى انتقل – أو انتقلت جذوة منه – إلى الحضارة الجديدة : الإغريق ثم الرومان ، فأنارت أوروبا بتاريخها كله .

ونلاحظ بصورة خاصة ، أن المدينة بعد أن توالى تدميرها ثلاث مرات على أيدى ثلاث غزوات شديدة العنف ، اقتصر وجودها على « المعبد » وحده أى الجامعة وحدها ، ثم عندما توالت على البلاد موجات متلاطمة من الأجناس والحضارات والديانات الغازية ، تقوقع القائمون على أمرها ، وتحصنوا وراء الحاجز الدينى ،

متكتمين معظم علومهم عن أولئك الأغراب ، إلى أن جاء يوم أصبحت مهمتهم فى الظـــاهر على الأقل قاصرة على تقديم القرابين ، وتعليم الناس كيفية أداء الطقوس الدينية ، وتفريج السائحين على الآثار .

تحولت الجامعة – المرصد – مركز البحوث – مدرسة الأمم – من جامعة ذات واجهة دينية فى صورة معبد ، إلى واجهة فقط ، إلى معبد محض ، لا محل فيه إلاّ للطقوس الدينية .

وهذه الواجهة الدينية ، هى الجانب الوحيد الذى يراه ويتحدث عنه علم التاريخ المصرى القديم ، لا فى معرض كلامه عن فترة الانحطاط وحدها ، بل يسحبه ويعممه على تاريخها كله ، بما فيه حتى أزهى عصور هذه الجامعة ، عصور الدول الثلاث القديمة والوسطى والحديثة .

ولعل القارىء قد بدأ يستنتج أوائل مفردات ما أسميه «القاموس الخاص للمصريات » ، الذى تذكر فيه ظواهر معينة بكلمات لا يقصد بها الدلالة الحقيقية على جوهر تلك الظواهر ، بل تحرف نظر القارىء والباحث عن ذلك الجوهر ، عن طريق تعميم جانب واحد منه ، هو غالبا أقل جوانبه أهمية على الظاهرة كلها ، وكأنه السمة الرئيسية لها : وأعنى هنا بالذات كلمتين هما :

(١) **معبد** : وتطلق جزافا على كل مبنى له جدران وأعمدة وسقف ، جامعة كان أم مصلحة حكومية أم نقطة شرطة أم قلعة ... أم معبداً .

(٢) **كاهن** : وتطلق على كل مشتغل بالفكر أو العلم ، فلكيا كان أم طبيبا أم قاضيا أم اقتصاديا ... أم كاهناً .

وسوف تتكشف لنا من خلال هذه الدراسة مفردات كثيرة أخرى من مفردات ذلك « القاموس » ، نذكرها تباعاً فى مواضعها إن شاء الله .

هذا عن الجامعة .. أما عن المدينة نفسها .. منشؤها ودورها الحضارى وتطور وجودها ، فلا نستطيع أن نتناوله دون أن نعرض لأسئلة تفرض نفسها فرضاً : لماذا أقيمت جامعة فى هذه المنطقة بالذات ؟ ولماذا كانت المدينة – إذا كان وجودها قاصراً على كونها مجرد جامعة – محل هجوم مدمر متوالٍ من الغزاة ، بل من بعضهم فقط ، بينما كانت محل تكريم من الغزاة الآخرين ؟ ولماذا كانت فى جميع عصور الازدهار ، محل اهتمام عظيم من الدولة ، تنفق عليها هذه النفقات التى ذكرنا جانبا منها ، والتى يسميها قاموس لمصريات : « القرابين » ؟ .

ما الذى يدفع الـــدولة ، أو الأمة ، قبل الاتحاد أو بعده ، إلى أن تذهب إلى مكـان قفر فى جوف الصحـراء لتقيم فيه جامعة تبعد عن العمران مسافة ١٥ كم ، لكى تكون الاستثناء الوحيد من بين الجامعات التى أقيمت كلها فى العواصـم والمدن الكبرى ؟

ربما يخطر على الذهن أن هذا المكان قد اختير إيثاراً للعزلة والبعد عن مشاغل المدن وشواغلها ، كالأديرة التى أقيمت فى العصر المسيحى مثلا . ولكن التشبيه هنا فى غير موضعه ؛ فالأديرة أقيمت فى أوائل العصر المسيحى ، وهو فى الوقت نفسه أسوأ عصور الاضطهاد التى مرت بها مصر فى تاريخها كله ، وهو عصر الاضطهاد الرومانى ، مما اضطر علماء مصر وحكماءها (وهم القساوسة والرهبان فى ذلك العصر) إلى أن يهربوا بأرواحهم وهويتهم القومية ، وبدينهم المسيحى - ثم بمذهبهم الأرثوذوكسى بعد أن تنصر الرومان - إلى نوع من المنافى الاختيارية التى أقاموها لأنفسهم خارج العمران ، حاملين معهم - ربما - ما تبقى بين أيديهم من علوم أسلافهم « الوثنيين » ، بعيداً عن بطش الرومان وهمجيتهم .

أما فى العصور القديمة ، قبل اتحاد الوجهين حين كانت هذه المدينة أهم مدن الوجه البحرى ، ثم فى عهد الأسرات الأولى بعد

الوحدة ، حين قدمت هذه المدينة وجامعتها أعظم منجزات العلم والتكنولوجيا للدولة ... فمن غير المعقول أن المصريين اختاروا أن يقيموها بعيداً عن العمران .. بغير سبب .

وسؤال آخر يلح على الخاطر : من أين كان يشرب سدنة هذا المعبد / الجامعة ، وطلبتها وخدامها وزوارها ؟ ومن أين كانوا يغتسلون ويتطهرون قبل وأثناء ممارستهم طقوسهم الدينية ؟ هل كانت المياه – مثلا – تحمل إليهم يومياً على الدواب من النيل على بعد ١٥ كم ؟ !

من المعروف أن القناة التى شقت لتصل بين النيل وموقع المدينة، قد حفرت فى عصر الدولة الوسطى ، أى بعد أن نشأت المدينة وجامعتها بألف وخمسمائة عام على الأقل ، ولذلك نعتقد أنها عندما شقت كان الغرض منها استخدامها أساساً كوسيلة للنقل لا كمصدر لمياه الشرب . وحتى لو كانت قد حفرت فى العهد القديم قبل الوحدة ، فما الذى يدفع أمة أن تختار بملء حريتها أن تنشىء مدينة وجامعة فى جوف الصحراء ثم تشق لها قناة طولها ١٥ كم ؟ ألم يكن من الأسهل والأرخص ، والأعقل ، أن تقام فى الوادى بالقرب من الماء .. عصب الحياة ؟ إلاّ أن يكون لهذا الموقع بالذات طبيعة خاصة تجعله صالحاً للعمران من ناحية ، وذا أهمية عظيمة

للدولة من ناحية أخرى - خلاف كونه معبداً أو جامعة . ولكى نتمكن من الإجابة عن هذه الأسئلة .. لابد أن نلجأ - مرة أخرى - إلى صديقنا الوفى القديم ، الذى لا يغيره الزمن تغيراً يذكر، ولا يخضع للقال والقيل والتفسير والتأويل ، ولا يميل مع الهوى حيث يميل .. أى : الحقائق الجغرافية .

أول حقيقة جغـرافية تميز هذا الموقع بالـذات هى أنه كان منذ أقدم العصـور - عين ماء ، واحة صغيرة ، مكانها فى الصحـراء ينبع منه الماء الصالح للشـرب ، وبوفرة تكفى لإمـــداد بضع مئات أو بضع آلاف من الناس ، وهى خاصيته الأساسية التى تميزه منذ ذلك العصر الموغل فى القدم .. وحتى يومنا هذا .

ولعل الكثيرين من جيلى لا يزالون يذكرون أن ضاحية مصر الجديدة التى بدأ إنشاؤها فى الربع الأول من هذا القرن ، كانت تشرب وتستمد كل مائها من هذه « العين » - عين شمس ، حين كان ماء الشرب فى مصر الجديدة يتميز عن ماء النيل الذى نشربه فى القاهرة ، بدرجة خفيفة من الملوحة ، لأنه ماء « معين » كما كنا نسميه . وكان الاسم الذى أطلقته على نفسها الشركة القائمة على بناء هذه الضاحية هو « شركة سكك حديد مصر الكهربائية

وواحات عين شمس » . وقد ظلت هذه العيون هى مصدر المياه الوحيد للضاحية ، حتى تضخمت وتزايد عدد سكانها بشكل كبير ، فمدوا إليها خط أنابيب من مياه النيل ، فقلت ملوحة الماء ، وإن لم تختف تماما حتى الآن ، لأن نسبة من مياه العيون المالحة نوعاً ، لاتزال تخلط بماء النيل القادم من القاهرة .

ويؤيد هذه الحقيقة أيضا ، أنه حتى فى أقدم النصوص عن هذه المدينة تذكر عبارات دالة على ارتباط وجود المدينة بوجود الماء، مثل الحوض البارد ، البحيرة العظمى ، العين (التى ظنها كمال باشا قرص الشمس : كيف يُصلِح ملك قرص الشمس ؟ !) .

كما يؤيدها نفس الاسم الذى يطلقه عليها الكتاب المقدس ، والذى ينطقونه « أون » أو « آن » . فالمعروف أن النسخ الحالية للكتاب المقدس ليست منقولة مباشرة عن الأصل المكتوب بالعبرية ، والذى لا توجد منه نسخه كاملة باقية بل قطع متناثرة لم يعثر عليها إلا فى العصر الحديث ، أما نسخه المعروفة فى اللغات الأوربية والعربية - بل والعبرية ، فهى مترجمة عن ترجمات قديمة باللغات اليونانية واللاتينية وغيرها . ولا يستبعد أن تحرف كلمة « عين » خلال عمليات الترجمة المتتابعة هذه إلى « أون » بعد تخفيف حرف العين العبرى على ألسنة الأوربيين إلى همزة .

ويؤيده أيضا اسمها الثانى الذى تسجله كتب التاريخ المصرى ، والذى ذكر المؤرخون اليونانيون أنهم سمعوا المصريين يطلقونه عليها ، وهو « پيرع » أى « بيت رع » حسب تفسير علماء اللغة المصرية القديمة لمعناه . ونحن لا نستبعد أن حقيقة هذا الاسم كانت بير رع : أى بئر رع ، بمعنى البئر – مصدر الماء – لا بمعنى البيت . وسمعها اليونانيون بالباء الثقيلة « P » وسجلوها على هذا النحو كما سمع هيردوت – مثلا – كلمة « تمساح » ، ونطقها وكتبها « كِمپاء » أو « تشمپساء » Chempsoe ، وكما سمعوا كلمة «قفط» بالقـــــاف أو الجيم غيـر المعطشـة ، ونطقوها بالجيم المعطشـة « چبت » .. الخ ، وهو شيء وارد الحدوث عندما تنتقل الأسماء من لسان إلى لسان ومن لغة إلى لغة .

أما كلمة هليوبوليس (مدينة الشمس فهى اسم دخيل أطلقه عليها اليونانيون بلغتهم ، عندما رأوها مدينة متكاملة قبل أن تتقلص إلى « معبد » فحسب ، ولا علاقة له بالاسم أو الأسماء التى كان أهلها يســـمونها بها . وسواء كان اســـمها القديم « عيـــن » أو « أون » أو « پير » أو أى اسم آخر فهو لا يغير شيئاً من حقيقتها الأزلية ، وهى أنها عين ماء .

فيغلب على الظن إذن ، أنها بدأت تاريخها – قبل التاريخ

المعروف – قرية صغيرة أو منتجعا بسيطاً يعيش على مائه قليل من الزراع أو الرعاة . ثم بدأت حقيقتها الجغرافية الثانية فى أن تلعب دورها فى نموها وازدهارها وأهميتها .

وأعنى بحقيقتها الجغرافية الثانية أنها تقع على مسافة حوالى ١٥ كم من أقرب فرع للنيل كما ذكرنا ، وتفصلها من جهة الشرق مسافة ١٢٠ كم عن أقرب مصدر آخر للمياه العذبة ، بالقرب من موقع الاسماعيلية الحالية أو بالقرب من موقع السويس الحالية .

يعنى : أن هذا الموقع بالنسبة للمسافر من مصر أو إليها عبر صحراء شرق الدلتا ، هو آخر نقطة يتزود منها المسافر بآخر قطرة من الماء قبل أن يعبر هذه المفازة الجافة . وأنها فى نفس الوقت أول نقطة يصيب منها ماء وهو قادم من الشرق بعد مسافة ١٢٠ كم على الأقل . وربما كانت هذه المسافات التى ذكرناها لا تعنى شيئاً ذا بال فى عصرنا الحاضر ، فمسافة الـ ١٥ كم نقطعها نحن بالسيارة أو « المترو » فى بضع دقائق ، ومسافة الـ ١٢٠ كم يقطعها القطار أو الحافلة فى ساعتين على الأكثر . ولكن هذه المسافات تصبح ذات أهمية متزايدة كلما عدنا بالذاكرة إلى عصور التاريخ السالفة .

فقد كانت فى العصر السابق على المخترعات الحديثة ، تعنى

ساعة كاملة للفارس المجد ليصل من القاهرة إلى عين شمس ، وتعنى يوماً كاملاً أو يومين من الركوب الحثيث وهو خارج من عين شمس متجها إلى السويس أو قادماً منها . وكذلك كانت فيها - طوال العصر الإسلامى - آخر محطة ينزل فيها الحجاج القادمون من الأراضى الحجازية ، حيث ينزلون فى إحدى أقسام عين شمس المسماة « بركة الحاج » ، إما لأنها كانت بها بركة ، بمعنى حوض الماء ، أو لأن الحجاج القادمين كانوا « يبركون » فيها جمالهم ويقيمون فيها أياما قليلة ، يتخلصون خلالها من وعثاء الطريق قبل نزولهم إلى القاهرة بعد طول السفر .

فإذا عدنا بالذاكرة إلى ما هو أبعد من ذلك العصر ، متجاوزين عصر الخيل والعربات كله ، وهو العصر الذى بدأ بغزو الهكسوس ، وعدنا إلى « عصر المشاة » فسوف نجد أن الصورة قد أصبحت مختلفة بشكل أساسى عن عصرنا الحاضر ، وحتى عن عصر الخيول والعربات . فلا نستطيع أن نكون تصوراً صحيحاً لنشأة المدينة وعصرها الذهبى إلاّ فى ضوء « معاملات الحركة » التى كانت تحكم تحرك الإنسان فى ذلك العصر ، لا فى عصرنا الحاضر ولا فى عصر الخيول والمركبات .

كانت معاملات الحركة فى عصر المشاة على النحو التالى :

- وسيلة الحركة البشرية . المشى للمسافات الطويلة ، والعدو للمسافات القصيرة (بدون أثقال) .

- سرعة التحرك البشرى : ٤ - ٥ كم / ساعة (مشياً) - تقل إذا كان الإنسان يحمل أثقالاً .

- متوسط قدرة الإنســان على السير فى اليوم : ٥ - ٦ ساعات .

- متوسط أقصى مسافة يقطعها الانسان فى اليوم : ٢٥ كم .

ولم يكن يغير من هذه المعاملات استخدام الدواب المتاحة فى ذلك العصر السحيق ، فهى كلها كانت من دواب الحقل بطيئة الحركة (الحمار والثور) . فلم يكن استخدامها يتيح أى زيادة فى السرعة ، وإنما يتيح فقط زيادة « الحمل » ، تستطيع أن تحمل عن صاحبها أثقاله أو تحمله هو نفسه ، ولكنها لا تستطيع أن تتيح له التحرك بسرعة تزيد بشكل ملموس عن سرعة سيره على قدميه . ومن ناحية أخرى فإن هذه الدواب ليست قادرة على تحمل العطش كالجمال مثلا ، فهى تستهلك خلال الرحلة قسماً كبيراً من المياه التى تحملها من آخر « محطة » .

فإذا طبقنا هذه المعاملات على موقع عين شمس نرى أنها كانت فى ذلك العصر القديم تبعد عن أقرب فرع للنيل « مسيرة » أربع ساعات ، وتبعد عن أقرب نقطة إلى الشرق بها ماء صالح للشرب ، مسيرة ٤ أو ٥ أيام .

ومن هذه المعادلة نستطيع أن نتصور تدرج المراحل التى مـرت بها هذه المدينة – أو هذا الموقع قبل أن يصبح مدينة ؛ على النحو التالى :

١ – بدأت كمحطة اختيارية للتزود بالمياه قبل السفر للمغادر ، تقصر على المسافر الظمأ إلى ٥ أيام بدلا من ٦ ، ويقف عندها القادم العطشان – اختياريا ايضا – بدلا من أن يضطر إلى أن يحمل منذ بداية الرحلة ما يكفيه من الماء مدة ستة أيام بدلاً من خمسة . أو بمعنى آخر بوابة وصول ومغادرة « مفضلة » لكل من يأتى من الشرق أو يذهب إليه . ومن الطبيعى أن الغالبية العظمى من المسافرين للتجارة أو الإقامة أو الزيارة كانوا يفضلونها على الاختيار الثانى ، وهو السـير يوما كاملا زيادة فى الصحـراء بلا ماء .

٢ – مع تزايد مرور المسافرين به ، نشأت فيها سلطة أهلية أو حكومية ، تتحكم فى هذا الماء ، فتبيعه مثلا ، أو تسمح به مقابل

خدمات أخرى لمن يمر بها ، وإلا .. فليتفضل بتجاوزها وليتحمل العطش يوماً آخر .

٣ - مع مرور الزمن وضعت الدولة - دولة مصر السفلى - هذه المحطة تحت سلطانها ، باعتبارها أساساً - مصدراً للدخل عن طريق المكوس التى تفرضها على البضائع التى يحملها التجار عبرها ، والرسوم (أو : حق الماء) ،على كل مار بها . فبدأت هذه المحطة تتحول بالتدريج - وبهذه الصفة التجارية الضرائبية - إلى محطة إجبارية ، بوابة مرور ، حاجز جمركى يُلزم المسافر بأن يتوقف فيها ، ولا يسمح له بالمرور إلى الوادى إلاّ من خلالها .

واعتباراً من هذه المرحلة - على الأرجح - وضعت الدولة «مراقبين» للطريق ، يراقبون القادمين من أحد الطريقين الأبعدين القديمين - طريق الإسماعلية والسويس - لكى يطاردوا كل من تسول له نفسه الحيود عن الطريق ، أو الالتفاف حول هذه المحطة ، وإجباره إما على المرور القانونى منها ، أو الانحراف شمالاً حيث يغوص فى مستنقعات الدلتا القريبة منها ، أو الانحراف جنوباً حيث يتوه أو يتعرض للموت عطشاً فى الصحراء الشرقية .

وابتداء من هذه المرحلة أيضاً - فيما أعتقد - بدأت تظهر فئة

جديدة ، حرفة جديدة ، من « حُدّاد البصر » ومراقبى الليالى ، ممن يتميزون بقوة البصر وبعده ، « تلسكوبات » بشرية تستطيع أن ترى على البعد ، يقفون على قمم تلال المقطم القريبة ليراقبوا الطريق ويضبطوا المسافرين « المخالفين » . وربما كانت هذه هى أول بذرة نشأت فيها عملية مراقبة الأفق ، التى تطورت إلى علم كامل اسمه علم الفلك ، الذى ولد وتربى ، ثم نضج وأثمر بعد ذلك ، فى هذه البقعة بالذات ، وساعد على ذلك الحقيقة الجغرافية الثالثة : التلال القريبة متزايدة الارتفاع كلما اتجهنا جنوبا .

٤ – بمرور الزمن أيضا ظهرت لهذه المحطة أهمية استراتيجية عسكرية . فمن الطبيعى أن يحاول بعض أصحاب المصلحة فى المرور الحر من هذا الطريق ، أن يتجمعوا فى صورة قافلة تجارية كبيرة مزودة بالحراس ، أو فى صورة هجرة جماعية تحاول الوصول إلى الوادى دون إذن مسبق من الدولة – لمشاركة أهل الوادى فى خيراته ، أو فى صورة جماعة مسلحة تحاول اقتحام المحطة وامتلاك هذا الماء الثمين .

وبالمقـــابل ، بدأت المحطة التى كانت اختيارية ثم صارت إجبارية ، تتحول إلى قلعة عسكرية « تحمى » هذا الماء ، وتمنع أى اعتداء عليه أو انتهاب له ، أو تجاوزه دون التوقف عنده .

وفى ذلك العصر : عصر المشاة ، لم تكن مهمة حماية هذه المحطة مهمة عسكرية عسيرة ، على العكس ، كانت مهمة المهاجمين أصعب بكثير من مهمة المدافعين ، فالمعروف أنه فى حروب الصحراء ، يمثل الماء أعز سلاح ، من يمتلكه يمتلك أهم أسباب النصر ، ومن يفتقده يتعرض لأشد أخطار الهزيمة ولعل كثيراً من القراء يذكرون قصة « غزوة بدر » ، حين أوشك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع جيشه على الماء ، أى أن يكون الماء – ماء بئر بدر – بينه وبين أعدائه ، إلى أن أشار عليه أحد أصحابه بأن يقفوا أمام الماء ، فيكونون بين أعدائهم وبين الماء ، فيشربون ولا يشرب أعداؤهم ، وقد كانت هذه المشورة – كما هو معروف – سبباً من أهم أسباب النصر فى تلك الغزوة .

حدث هذا .. فى عصر شاع فيه استخدام الخيل سريعة الحركة ، والجمال الروايا والنوق الزوامل التى تحمل الماء وتصبر على العطش ، فما بالك بعهد لم يكن متاحا فيه إلاّ الدواب التى لا تصبر على العطش ولا تستطيع حمل الكثير من المياه ؟

كانت مهمة المهاجمين فى تلك الظروف – إذن – شديدة الصعوبة فهم مضطرون إما إلى الصبر المستحيل على القتال لمدة طويلة ، وهم عطاش يزدادون عطشاً ، أو التسليم بشروط المدافعين ، أو

بالامتناع أصلا عن مهاجمة هذه القلعة ، واختيار طريق الاستئذان والمسالمة واتباع القانون .

وبذلك .. وابتداء من هذه المرحلة ، أصبحت تلك القلعة ذات أهمية ثلاثية بالنسبة للدولة ، سواء دولة الوجه البحرى أو دولة مصر بعد الوحدة ، فهى فى وقت واحد : رباط ومخفر أمامى ذو أهمية استراتيجية كبيرة يحمى أهم ثغر من ثغور الدولة ، ومصدر من أهم مصادر إيرادات الدولة ، ومقر لأول وأهم جامعة نشأ فيها علم الفلك ثم تفرعت منها العلوم المتعلقة بتصور الإنسان للكون المحيط به ؛ الفلسفة واللاهوت ، وأيضا علوم الهندسة العسكرية ، وكثير غيرها من العلوم التى عددنا طرفا منها .

وظلت هذه القلعة / الجمرك / الجامعة ، تنمو وتتزايد أهميتها فى هذه الاتجاهات الثلاثة ، فتزداد حصانة ، وتزداد ثراء ، وتزداد علما ، وخاصة بعد أن مدوا إليها قناة من النيل فى عهد الدولة الوسطى ، لتسهيل مرور البضائع و التجار و المسافرين و الزائرين منها و إليها ، و بعد أن أقاموا حائطا طوله ٤٠٠ كم يجبر القادم من الشرق إما على الوقوف عند عين شمس أوالمسير بحذاء السور ، هذه المسافة الكبيرة فلا يدخل الوادى إذا كان لا يزال حيا – إلاّ عند جرجا .

... إلى أن جاء الهكسوس ، وجاء معهم أكبر تحول فى التاريخ العسكرى لمصر والعالم القديم كله ، جاءوا – كما ذكرنا – راكبين الخيول ، تحملهم أو تجر مركباتهم الحربية عبر هذه المفازة فى يوم واحد أو يومين على الأكثر (بدلا من خمسة أيام) ، وأهم من ذلك جاءوا مصطحبين العربات **ذات العجلات** . أهم تحول تكنولوچى بعد اكتشاف النار – كما يقدرها بعض المؤرخين [١] . وسقطت معاملات الحركة القديمة إلى الأبد وحلت محلها معاملات جديدة مبنية على سرعة الخيول وقدرة الدواب على جر العربات .

فالعربات – وإن كانت لا تمثل زيادة ذات شأن فى سرعة الحركة – فإنما تمثل – بالمقارنة إلى دواب الحمل – زيادة هائلة فى كفاءة تحريك الأثقال . فالثور – مثلا الذى يستطيع أن يحمل مائة

---

(١) يغلب على الظن أن الابتكار الذى أدخله الهكسوس ، هو استخدام العجلات فى النقل والحرب وليس اختراع العجلة نفسها – أى الطارة الدائرة التى تدور حول محور ، لأن أقدم النصوص المصرية تتحدث – مثلا – عن عجلة الفخرانى التى يشكل عليها الفخار ، وتشبه عملية الخلق نفسها ، التى قام بها الخالق سبحانه للكائنات الحية ، بعملية تشكيل الأدوات الفخارية على العجلة . أما عملية نقل الأثقال والأشخاص فالأرجح أنها كانت بوسائل أخرى كدواب الحمل والزحافات والهوادج التى يحملها الحمالون ، فلم يعرفوا العجلات فى الحرب أو النقل إلا بعد الهكسوس .

كيلو جرام فوق ظهره ، يستطيع هو نفسه أن « يجر » عربة محملة بعشرة أضعاف هذا المقدار ، وبنفس الجهد أو أقل ، يعنى أنه بعد أن كان فى الماضى لا يستطيع أن يحمل من الماء إلا ما يكفيه ويكفى صاحبه بالكاد مسافة الرحلة أو أكثر قليلا ، أصبح يستطيع أن يجر من الماء المحمول على العربة ذات العجلات ما يكفيهما لعدة أسابيع .

وبذلك اكتسب المهاجمون - الهكسوس فى هذه الحالة - ميزة هائلة كانت محاولات الغزو السابقة محرومة منها ، هى أنهم يمكنهم أن يقفوا عند القلعة ، ويحاصروها ، ويحاربوا ، ويشربوا ، دون أن يموتوا عطشاً أو يتراجعوا أو يستسلموا ، ولمدة طويلة ، بل لمدة غير محدودة - إذا استطاعوا تنظيم قوافل من العربات التى تذهب فارغة وتعود محملة بالمياه .

ولهذا أمكن لهم ما استحال على غيرهم من قبل مدة تقارب ألفى عـام ، وهو اقتحام قلعة عين شمس ، ثم مصر كلها أو معظمها ، من جهة الشرق ، التى كانت حتى ذلك العصر ، مستعصية على الاقتحام .

ولهذا السبب صبوا جام غضبهم على هذه القلعة - العقبة الكؤود - التى وقفت فى وجوههم قرونا طويلة . ولذلك فهم لم يهدموا

« المعبد » ، وإنما هدموا القلعة ، أو أسوارها التى تحيط بالجامعة ونبع الماء معاً ، بدليل أن الجامعة بقيت بعد أن تم لهم الغزو ، بل ربما أعادوا بناء الأسوار نفسها بعد أن أصبحت البلاد تحت حكمهم ، وأصبح بقاء القلعة سلاحاً فى يدهم لا سلاحا ضدهم .

وعندما سقط حكم الهكسوس ، وقامت الدولة الحديثة ، اهتمت بعين شمس اهتماما كبيرا وأنفقت عليها الأموال الطائلة كما رأينا ، ولكنهم كانوا قد اكتشفوا أيضا أن هذه القلعة لم تعد - وحدها - تصلح حائطا للصد يحول دون غزو البلاد من جهة الشرق مرة أخرى ، وتعلموا من التجربة المريرة لغزو الهكسوس أن حدود مصر الآمنة لم تعد عند عين شمس ولا حتى عند الصحراء شرق الدلتا أو سيناء برمتها ، وأن ذلك العصر قد انتهى إلى الأبد ولن يعود ، فبدأوا عصراً من الغزو - أو الهجوم المضاد - فى اتجاه الشام ، وهو العصر المسمى بالعصر الإمبراطورى ، لا لمجرد إرضاء شهوة السلطان وغرور الملوك كما توهم أغلب المؤرخين ، بل لأن « الحدود الآمنة » أصبحت منذ ذلك الحين فى الشمال ، فى الشام ، أو حتى عبر الشام كلها ، عند جبال طوروس كما يرى بعض المؤرخين والمحللين العسكريين المعاصرين ، وهى نظرية صحيحة إلى حد كبير، أكدتها أحداث التاريخ التالية كلها ، وعلى امتداد التاريخ القديم والوسيط والمعاصر . وأصبحت عين شمس فى هذه الظروف

الجديدة ، خط الدفاع الأول أو الوحيد ، بل خط الدفاع الأخير ، الذى يقدم المقاومة الأخيرة ، بعد سقوط خطوط الدفاع الشمالية أو الشرقية .

ولذلك فقد بقيت عين شمس بعد ذلك لمدة طويلة عقبة صعبة نعم، ولكنها غير مستحيلة الاقتحام . آخر صعوبة حقيقية يواجهها أى جيش غازٍ قادم من جهة الشرق . فحارب عندها العبرانيون ، وفتحها بختنصر البابلى ثم قمبيز الفارسى ، الذى أزال وجودها العسكرى تقريبا ، وحطم رموزها المقدسة التى كانت تكسبها الإجلال والاحترام ، فيما وصفه المؤرخون بأنه مجرد انتقام صاحب عقيدة من آلهة عقيدة دينية أخرى .

ولذلك فإنه ليس من قبيل المصـــادفة أن جميع الغــزاة الذين جاءوا من الشرق هدموا ودمروا فى هذه المدينة ورموزها الدينية (الهكسوس والبابليون والفرس) ، بينما اهتم بها وكرمها ، أو تركها على حالها على الأقل جميع الغزاة الآخرين الذين تقع بلادهم الأصلية فى الاتجاهات الأصلية الثلاثة الأخرى (الليبيون أهل الغرب ، ثم النوبيون أهل الجنوب ، ثم اليونانيون أهل الشمال) .

وقد انصبت عمليات التدمير التى قام بها غزاة الشرق الثلاثة على المدينة نفسها وقلعتها ، ورموزها ، أما جامعتها فقد بقيت

طوال تلك العصور تقوم بمهمتها العلمية - كما رأينا ، والتى تقلصت بالتدريج حتى لم يبق منها - فى الظاهر على الأقل - إلاّ الجانب الدينى ، ثم زال هذا الجانب أيضا بظهور المسيحية .

وحتى بعد ذلك ، بقيت للمدينة وعينها أهمية عسكرية ضئيلة فى العصور التالية كلها ، حيث دارت عندها وحولها معارك تاريخية كثيرة ، كان المدافعون فيها يختارونها موقعاً للمعارك للاستفادة من ميزتها الطبيعية (المـاء) ، التى وإن كانت لم تعد حاسمة ولا قاصمة ، إلاّ أنها ظلت ذات أهمية نسبية تحسب فى ميزان المدافعين وتقلل من المزايا التى يمتلكها المهاجمون .

- ففى العصر الرومانى ، أقام الرومان بالقرب منها حصن بابليون الذى فتحه عمرو بن العاص (٦٤١ م) .

- وفى العصر العثمانى (١٥١٧ م) دارت فيها المعركة الفاصلة بين سليم الفاتح وبين المماليك والتى انهزم فيها المماليك .

- وفى العصر الحديث (١٨٠٠ م) دارت فيها معركة فاصلة أيضا بين جيش كليبر الفرنسى وبين الجيش العثمانى ، انهزم فيها الأخير .

وأخيرا اقتصر دورها فى عصرنا الحاضر على الميزة الطبيعية الأزلية الوحيدة الباقية لها ، وهى كونها مصدراً مناسباً للمياه العذبة لضاحية جميلة من ضواحى القاهرة .

... ومع كل هذا التاريخ العلمى والسياسى والتجارى والعسكرى لمدينة عين شمس ، والمعلومة عناصره كلها لدارسى التاريخ المصرى القديم ، ورغم هذا الدور الهام الذى لعبته فى صنع الرخاء وتحقيق الأمن لأمتها ، والذى لم تقتصر ثماره على هذه الأمة وحدها ، بل شاركتها فيها البشرية كلها فى تاريخها الطويل ، نجد أن « علم » التاريخ المصرى القديم لا يذكرها إلا بعبارة واحدة مسطحة مغمضة العينين :

« مدينة أون المقدسة .. التى أقيمت لعبادة إله الشمس .. رع »!!

... طفل رأى دبابة كبيرة ، مرفوعا عليها علم خفاق ، وحولها جنود يرفعون عيونهم وأيديهم بالتحية لذلك العلم ، فركز بصره عليه لا يرى غيره . لم يلفت نظره أو سمعه هدير محركاتها ولا صرير تروسها ، ولا حركة جنازيرها ، ولا برجها الدوار ، ولا مدفعها المشرع ولا دروعها الثقيلة . كل ما رآه هو الراية التى يلعب بها الهواء حول ساريتها ! وعندما سئل : ما هى الدبابة ؟ أجاب فى طمئنينة الواثق العليم ببواطن الأمور : « الدبابة ياسيدى هى قطعة من القماش زاهية الألوان ، مرفوعة فوق سارية ، تحملها كتلة ضخمة من الحديد ، صنعت خصيصا لتحمل هذه الراية » !

●●●

جـ – مدينة « منف »

تعتبر منف – فى الحقيقة – أهم مدن التاريخ المصرى القديم على الإطلاق .

وتاريخها – أو تاريخ الجزء الأكبر والأهم من حياتها ، هو موضوع القسم الرئيسى من هذا الكتاب ، حيث أن ملحمة بناء الأهرام – كما سنرى – هى بالدرجة الأولى ، ملحمة الدفاع عن منف . ولذلك سوف يتضمن ذلك القسم بالضرورة تحليلاً لنشأتها وأهميتها ودورها الحضارى فى التاريخ المصرى القديم ، مما يجعل ذكرنا لتاريخها بأى درجة من التفصيل فى هذا الموضع تكراراً وإطالة لا لزوم لهما . ولذلك سنقتصر هنا على ملخص مضغوط جداً للعلامات الرئيسية لذلك التاريخ :

١ – أقيمت مع قيام وحدة ، أو اتحاد الوجهين القبلى والبحرى فى عهد مينا حوالى عام ٣١٠٠ ق . م .

٢ – ظلت ابتداء من هذا التاريخ ولمدة ١٠٠٠ عام متوالية على الأقل – هى عمر الدولة القديمة كلها – العاصمة الأولى والوحيدة لمصر الموحدة .

٣ – انتقلت العاصمة السياسية إلى « اللشت » مع بداية الدولة الوسطى خلال معظم مدة بقائها التى دامت حوالى ٣٠٠ عام

(٢٠٤٠ – ١٧٨٦ ق . م) ، ومع ذلك ظلت منف هى أهم الحواضر Cosmopolitan .

٤ – اتخذها الهكسوس أيضا عاصمة رغم احتفاظهم بعاصمتهم الأصلية فى « أواريس » (١٧٨٦ – ١٥٦٧ ق . م) ، أى لمدة ٢٠٠ عام .

٥ – عندما انتقلت العاصمة إلى « طيبة » – كما رأينا بعد طرد الهكسوس – ظلت منف هى العاصمة الثانية – على الأقل – للبلاد مدة ٥٠٠ عام أخرى (١٥٦٧ – ١٠٨٥ ق . م)

٦ – فى خلال القرون السبعة التالية (١٠٨٥ – ٣٣٢ ق . م) ، تبادلتها أيدى الغزاة العديدين للبلاد (النوبيين ، والأشوريين ، والفرس ...) ، مع فترات متقطعة من الاستقلال كان يحكمها فيها ملوك مصريون . وظلت طوال تلك الفترة مدينة على درجة عظيمة من الأهمية ، لا تكتمل لأحد السيادة على البلاد إلاّ إذا فتحها وحكمها (٧٠٠ سنة) .

٧ – عندما فتح الإسكندر مصر (٣٣٢ ق . م) اتخذها مقراً له رئيما يتم بناء الإسكندرية . وبقيت لها أهمية كبيرة كحاضرة داخلية للبلاد بعد اتخاذ الإسكندرية عاصمة فى العصر البطلمى وحتى الغزو الرومانى قرب بداية التاريخ الميلادى (٣٠٠ عام) .

٨ - تناقصت أهميتها شيئا ما حتى اقتصرت على أهمية إقليمية فحسب فى العصر الرومانى والمسيحى (٦٥٠ عاماً) .

٩ - انتهت أهميتها تماماً عندما فتحها عمرو بن العاص بعد حصار طويل (عام ٦٤٠ م) وبذلك اكتمل له فتح مصر ، ثم تقلصت بعد إنشاء الفسطاط على الضفة الشرقية المقابلة لها ، إلى قرية صغيرة اسمها الحالى « ميت رهينة » .

فهى مدينة ولدت مع ولادة مصر الموحدة فى لحظة تاريخية واحدة ، كما يولد التوأمان فى « بطن » واحدة .

وهى مدينة تجاوزت بعمرها الذى يقارب ٤٠٠٠ سنة ، أعمار الغالبية العظمى من المدن والحواضر والعواصم التى عرفها التاريخ الانسانى كله فى مصر أو خارجها ، حتى لا تكاد - فيما أعرف - توجد حاضرة أخرى تفوقها فى طول البقاء .

وهى مدينة تجاوزت بأهميتها كعاصمة ثم كعاصمة ثانية الخ .. ، عديداً من الغزوات الخارجية والتقلبات السياسية ، وتجاوز بقاؤها أربع إمبراطوريات عالمية عظمى (هى المصرية والفارسية واليونانية والرومانية) ، وسيادة ديانتين عظيمتين على الأقل هما الفرعونية والمسيحية ، بل تجاوز وجودها التغيرات الجغرافية نفسها - حيث أقيمت أول ما أقيمت عند النقطة التى كان يتفرع عندها لنيل فى ذلك العصر البعيد ، ثم انتقلت تلك النقطة تدريجياً خلال

هذه القرون الأربعين إلى الشمال منها مسافة ٣٠ كم وبقيت منف ، وبقيت أهميتها .

ونتساءل ما هو التوصيف .. أو التصنيف .. أو التكييف التاريخى الذى يكيف به علم التاريخ المصرى القديم هذه المدينة العظمى ذات التاريخ الأعظم ؟

١ - جميع الكتابات التاريخية تسميها مدينة الإله « بتاح » ، وتفيض فى وصف المعابد التى أنشئت له فيها والتى لم يتبق منها إلا آثار قليلة وللطقوس التى كانت تمارس لعبادته وتمجيده ، وتنص صراحة على أن المدينة قد اكتسبت أهيمتها - أو معظم أهميتها - من كونها مقراً للإله « بتاح » .

٢ - فى بعض المواضع تذكر - بالإضافة إلى كونها مدينة الإله بتاح - باعتبارها مدينة أنشأها « مينا » بإرادة ملكية منه . وتنقسم الأسـباب التى يرجعون إليها إنشاء « مينا » لها إلى تنويعات مختلفة : بعضها يعتبرها ضرورة سياسية وعسكرية لكى يتمكن مينا من إخضـاع الوجهين بعد الوحدة ، وبعضها يعتبرها ضرورة شخصية لكى يقيم فيها قصـره المطل على النيل ، بل يعتقد بعض « العلماء » أن مينا قد حول مجرى فرع النيل الغربى القديم خصيصاً لكى يتيح مكاناً لإنشاء هذه المدينة ، لكى يقيم قصره العامر فيها !

٣ - وللأمانة ، نسجل هنا أن قليلا من المراجع تذكر عرضاً

وباقتضاب شديد أن المدينة ربما (أقول ربما !) كانت لها بعض الأهمية التجارية .

هذا هو كل شيء .

فنحن بين تفسيرين رئيسيين لأهمية هذه المدينة وطول بقائها وسيادتها : تفسير شخصي (مينا) ، وتفسير غيبي (بتاح) .

أما « مينا » فقد مات كما يموت الناس بعد إنشائه المدينة ببضع سنين ، وزالت بموته الدوافع الشخصية التي يفترض أنها جعلته يبني تلك المدينة ، ثم زالت أسرته كلها عن الحكم بعد بضع عشرات من السنين ، ثم تلتها ٢٦ أسرة مالكة ما بين مصرية وأجنبية ، زالت بدورها الواحدة تلو الأخرى ، ثم انقضى بعدها العصر البطلمي برمته والعصر الروماني بأسره .. وبقيت منف .

فلم يتبق لنا - إذن - إلا « بتاح » ، السبب المنطقي الأوحد لوجود المدينة وبقائها وطول عمرها ! وهنا يجد المرء نفسه بين طريقين اثنين لا يمكن له التوفيق بينهما ، أو البحث عن حل وسط منهما ، أو طريق ثالث غيرهما .

إمـا : أن يوقن يقينا تاما قاطعا بأن « بتاح » هذا كان إلها حقا ، وإلها على درجة هائلة من القوة والنفوذ ، جعل المدينة التي أنشئت من أجله وبقيت تحت حمايته وبفضله ، تعلو بعمرها الزمني وأهميتها المستمرة فوق جميع الأحداث السياسية والعسكرية ، وتقفز فوق الإمبراطوريات ، وتصمد أمام كل التغيرات التاريخية والجغرافية .. إله « سره باتع » : لم تتأثر مدينته تأثراً يذكر حتى

بانحسار الديانة القديمة التى يفترض أنه كان من أعمدتها ، ولم يؤثر فيه تحول دينى واحد من الفرعونية القديمة إلى المسيحية ، بل احتاج إلى تغير ثان وإلى ديانة ثالثة ، استطاعت هى وحدها أن توجه ضـــربة قاضية لمدينته وتنهى عمرها الطويل الذى يشبه الخلود ...

هذا .. أو أن يبحث المرء بجد لا هزل فيه عن الأسباب الموضوعية والمصلحية والحضارية التى جعلت مصلحة الجماعة البشرية التى أنشأت هذه المدينة وعمرتها ، تستوجب إنشاءها ، ثم ازدهارها ، ثم استمرارها مدة أربعين قرنا . الأسباب التى عندما انقضت – سواء بتحققها على الوجه الأكمل ، أو بانتفاء الحاجة إليها ، أو باستحالة تحقيقها – لم يبق أمام تلك المدينة إلا أن تذوى ثم تتقلص ، ثم تندثر بعد عمر طويل ، فتنتقل من كتاب الجغرافيا إلى كتاب التاريخ .

وأترك للقارئ الحكم بنفسه : أى المذهبين أو الطريقين أولى بأن يسمى « المنهج العلمى » ، وأى التفسيرين هو الأقرب إلى التفسير العلمى .

وأما كاتب هذه السطور ، فغنى عن البيان أنه قد اختار لنفسه ولقارئه الطريق الثانى ، اختياراً لارجعه فيه ولا محيد عنه ، لا فى تفسير نشأة وتاريخ المدن فحسب ، بل فى فهم كافة ظواهر التاريخ المصرى القديم ، وعلى رأسها الأعمال العظمى .. كبناء الأهرام !

ديانة المصريين القدماء :

الصورة العامة عن ديانة المصريين القدماء ، عند الغالبية العظمى من القراء والمثقفين المتصلين بالتاريخ المصرى القديم بأى درجة من درجات الاتصال ، والتى تغذيها الأغلبية الساحقة من كتابات دارسى التاريخ المصرى ، فضلا عن النشرات السياحية والمقالات المنشورة فى الصحف والمجلات - تتكون من العناصر الأساسية الآتية : -

١ - أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون بالبعث والآخرة والحساب والثواب والعقاب وهذا هو الجانب الوحيد الذى يتفق من حيث المبدأ ، مع معتقدات أتباع الديانات «المتحضرة» المعاصرين . وبصورة خاصة، مع أتباع الديانتين السماويتين الكبيرتين : الإسلام والمسيحية ، كما أنه يكاد يكون العنصر الوحيد الصحيح من عناصر هذه الصورة ، وفيما عدا هذا العنصر الواحد ، تتفرق السبل تفرقاً عريضاً بين الصورة الشائعة عن معتقدات المصريين القدماء ، وبين المعتقدات المتحضرة ، كما هو بيّن من العناصر الثلاثة الباقية من عناصر هذه الصورة .

٢ - أن ديانة المصريين القدماء كانت قائمة على تعدد الآلهة بشكل قلما عرف عن ديانة أخرى ، بحيث يبلغ عددها عند بعض الدارسين - بضع مئات ، ويتصاعد عند آخرين حتى يبلغ الآلاف ،

لدرجة أن عالماً كبيرا من علماء التاريخ واللغة المصرية القديمة هو «واليس بدج» يعلن مثلا أنه أضاف إلى قاموسه الهيروغليفى أكثر من «٨٠٠» اسم هى أسماء الأرباب والربات والكائنات الأسطورية الأخرى التى استطاع أن يجمعها . (١)

ويستثنون من هذه القاعدة ، الفترة القصيرة التى حكم فيها إخناتون (٢) ، والتى وحد فيها الآلهة فى إله واحد هو «آتون» أما عهود التاريخ القديم الأخرى كلها ، فيطبقون عليها هذه القاعدة التعددية .

٣ – أن آلهة المصريين القدماء لم تكن مقصورة على الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنيل الخ .. ، ولا قاصرة (مثل ديانة اليونانيين القدماء) على الآلهة التى فى صورة البشر (أوزوريس وايزيس ونفتيس .. الخ) ولاعبادة الملوك وتأليههم فحسب ، بل قد تعدت ذلك إلى الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات كالقطط والبقر والصقور والتماسيح والضفادع والخنافس الخ ... والتى كانوا يعبدونها ويقدمون لها القرابين ويقيمون الأعياد .

---

(١) قاموس بدج الهيروغليفى طبعة ١٨٧٨ الجزء الأول . المقدمة – ص ٥١

(٢) يختلف دارسو عصر إخناتون اختلافا واسعا فى تحديد هوية هذا الملك ، ما بين اعتباره مصلحا دينيا وسياسياً عادياً ، وبين اعتباره هو نفسه نبى الله إدريس عليه السلام .

٤ - أن المصريين القدماء كانوا يؤمنون إيماناً مطلقا بالسحر ، ويمارسون أعماله فى كل جوانب حياتهم ، سواءً بكتابة التعاويذ أو بارتداء الأحجبة ، أو بذكر الأسماء السحرية للآلهة ، لإجبارها على تنفيذ إرادتهم .

هذه هى الجوانب الرئيسية لتصور كل متصل بالتاريخ المصرى القديم - بأىٰ درجة من الاتصال - لعقيدة المصريين القدماء ، إلاَّ قليلا من العلماء والمفكرين ، الذين أدخلوا بعض التصحيحات على هذه الصورة العامة ، بقيت معظمها حبيسة كتاباتهم المتخصصة البعيدة عن متناول الأغلب الأعم من القراء والمتعلمين ، فلم تلاق رواجا يذكر ، ولم تؤثر تأثيراً كبيراً على المفهوم العام الشائع عن ديانة المصريين القدماء .

والنتيجة الطبيعية التى يستنتجها أصحاب هذه الصوررة الشائعة وصانعوها ، بل التى يكاد يستنتجها القارئ العادى وحده دون حاجة إلى جهد كبير من أولئك ، هى كما يلى :

١ - ما دام المصريون القدماء كانوا يؤمنون بالبعث والآخرة .. ويؤمنون فى نفس الوقت بهذا العدد «الفلكى» من الآلهة . التى تمتلك مصائرهم سواء فى هذه الحياة الدنيا أو فى الحياة الأخرى ..

٢ – ومادام وا كانوا يؤلهون كل ما يحيط بهم من عناصر الوجود بما فيها حتى الحشرات والزواحف الخ ..

٣ – وما دامت كتاباتهم الدينية كلها أو معظمها تعاويذ سحرية لاتقاء شرهذه الآلهة العديدة المتنوعة ، أو لعبادتها بصورة أو أخرى من صور العبادة ...

٤ – فمن الطبيعى أن نستنتج أن كل واحد منهم كان مشغولاً انشغالاً تاماً بممارسة هذه العقيدة والقيام بالتزاماتها الكثيرة جدا ، من إجراء الطقوس وتقديم القرابين وتلاوة التعاويذ وكتابة الأحجبة وارتدائها ، لمواجهة هذا العدد الهائل من الآلهة ، بهدف استرضائها من ناحية ، واتقاء شرها من ناحية أخرى ، خشية أن تغضب عليه واحدة منها أو أكثر ، فتصيب حياته الدنيوية بالأذى ، أو تقضى على حياته الآخرة بالخسران المبين .

٥ – ومن الطبيعى – تبعا لذلك أن نستنتج أن كل فرد منهم : سواء من العامة والبسطاء ، أو من الخاصة والنبلاء ، و من الملك والأمراء والكهنة ، كان على استعداد تام للقيام بأى عمل أو تقديم ، أى تضحية ، يتطلبها استرضاء هذه الآلهة الكثيرة ، مهما بلغت جسامة تلك التضحيات ، ضارباً بمصلحته الخاصة «العاجلة» أومصلحة أبنائه وأجياله المقبلة عرض الحائط ، ما دامت سوف تحقق له المصلحة «الآجلة» فى الحياة الأخرى .

٦ - وتبقى من هذا التسلسل المنطقى خطوة واحدة مهمة جداً هى أنه مادام كل فرد فى الأمة - أو الجماعة - على هذا الحال فى الاعتقاد والسلوك ، فإن الأمة كلها كانت مستعدة - فى مجموعها - أن تخرج عن طريقها الطبيعى الذى كان يمكن لأى أمة أخرى أن تتخذه ، ومستعدة لأن تختار - بمحض إرادتها ، أو بالقسر من ولاة أمورها والمشكلين لأفكارها وعقائدها - أن تقوم بأعمال هائلة فى الحجم والقيمة والتضحيات ، لم تكن لتقوم بها هى أو أى أمة أخرى ، لولا اعتقادها الراسخ القائم على تلك العناصر التى تشكل الصورة الشائعة عن عقيدة المصريين القدماء .

وهذه النتيجة الأخيرة هى بالضبط الرأى الرسمى ، والاتجاه الغالب السائد ، على كل الكتابات عن التاريخ المصرى القديم .

وهى تتكون - كما ترى - من شقين : -

الأول : الصورة الشائعة عن عقيدة المصريين القدماء بعناصرها الأساسية التى ذكرناها .

الثانى : الاستنتاج المنطقى (أو الذى يبدو وكأنه منطقى) والمبنى على هذه الصورة .

فأما بالنسبة للشق الأول ، فهو مبحث واسع جداً ، مترامى الأطراف ، يضيق هذا المجال عن الإحاطة به إحاطة تفصيلية ،

ويخرج بنا – إذا حاولنا ذلك – عن موضوع هذه الدراسة خروجاً بعيداً .

ولذلك فإننا سنكتفى فى هذا الشأن بأن نعرض المداخل الرئيسية للخطأ فى تشكيل هذه الصورة ، والتى ترتبت عليها أهم الأخطاء التى أحالت صورة الديانة المصرية القديمة إلى استثناء فريد بين معتقدات الأمم المعروفة كلها قديمها وحديثها ، سواء من حيث الحجم أو النوع أو الكثافة .

وأما الشق الثانى ، فسوف نعرض له بعد ذلك ، فنحاكمه إلى عقولنا ، وإلى ما يتصل به من أحداث التاريخ المسجل قريبة الصلة به .

ولكننى قبل أن أتطرق لمناقشة هذه النتيجة بشقيها ، أجد لزاماً على أن أعرض لنقطتين ، أو التباسين ، يسببان حرجاً كثيراً عند من يعرض لديانة المصريين القدماء – من المتدينين المعاصرين ، وبخاصة المسلمين منهم ، وبصورة أخص بالنسبة للمصريين المسلمين المتدينين ، هما وثنية المصريين القدماء ، وطغيان ملوكهم أو «فرعنتهم» : –

وثنية المصريين القدماء :

الفكرة الشائعة عند عامة المسلمين ، هى أن المصريين القدماء كانوا وثنيين مشركين لايعرفون التوحيد ، ولا يعترفون بالإله الواحد إلاّ فى تلك الفترة القصيرة ، التى نادى «إخناتون» بعبادة إله واحد ، إله وثنى أيضا ، اسمه «آتون» ، أى قرص الشمس .

وأن التوحيد كما ينبغى أن يكون ، قد جاءهم مرة واحدة فقط على يد موسى صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يؤمنوا به واضطهدوه ، إلى أن نصره الله عليهم وأخرجه من بين ظهرانيهم سالماً ومعه بنى اسرائيل ، ودحر فرعون وقومه ، ولعنوا فى الدنيا والآخرة إلا قليلا منهم آمنوا بما جاء به نبى الله موسى ، وانتهى بهم الأمر إلى أن صلبوا فى جذوع النخل أو قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف كما جاء به نص القرآن الكريم ، وأما ما عدا ذلك فقد كان المصريون - فى جميع العصور التاريخية السابقة - فى واد والتوحيد فى واد آخر - هذه هى الفكرة الشائعة عند عامة المسلمين. وأقول «عامة المسلمين»، لأن هذه الفكرة - على شيوعها - ليست جزءاً من العقيدة الأسلامية ، وليست ملزمة لأحد من المسلمين يعرف حقيقة دينه .

فالعقيدة الإسلامية تقوم على أساس أن التوحيد قديم قدم وجود الانسان على الأرض ، نزل به آدم عليه السلام أول البشر

وأبوهم ، وأول الأنبياء وأبوهم . بل إنه - التوحيد - هو جزء من الفطرة التى فطر الله الانسان عليها يوم خلقه ، بل هو الأصل فى تكوين كل إنسان نزل به آدم . وأن الاستثناء هو الحيود عن هذه الفطرة والخروج على هذا الأصل ، والكفر بوحدانية الله .

ويعتقد كثير من العلماء والمفكرين المسلمين أن الإنسان إذا ترك وشأنه، دون مؤثر خارجى، فإنه سوف يتوصل حتما - وبفطرته وعقله وحدهما - إلى وجود الله سبحانه وحدانيته . وهو - على سبيل المثال - موضوع قصة «حى بن يقظان» الشهيرة لابن طفيل.

فالأصل فى الفرد - كما فى الجماعة - هو الإيمان بوحدانية الله . ولكن الجماعات والأفراد - طوال فترة التاريخ الإنسانى - كانت تحيد بدرجات متفاوتة ولفترات متفاوتة ، وطبقا لمؤثرات متفاوتة - عن هذه الجادة ، فيبعث الله الأنبياء ليعيدهم إلى الصواب ، فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر .

ومن بين الأنبياء المذكورين فى القرآن الكريم ، والواقعين زماناً بين آدم وموسى ، نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، ورسل آخرون لا يعلم عدتهم إلا الله ، ممن قصهم الله سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وممن لم يقصصهم عليه .

ولا يعنى هذا أننا نستطيع من وجهة النظر الإسلامية أن نقول : إن كل الامم - أو أن أمة بذاتها - كانت مؤمنة موحدة ضربة لازب - إلا أن يقوم لدينا دليل على ذلك .

ولكنه يعنى أننا أيضا لا نستطيع أن نحكم بأن أمة بذاتها - فى فترة بذاتها كانت كافرة مشركة ضربة لازب إلاّ إذا قام لدينا دليل على أنها كانت كذلك .

وعقيدتنا - نحن المسلمين - فى هذا الصدد تختلف اختلافا بيّنا عن عقيدة اليهود المعاصرين ، الذين يعتبرون كل الأمم فى كل العصور ، كافرة أصلا ، وملعونة أصلا ، إلا أمتهم أو قبيلتهم هم ، التى يسمونها وحدها «شعب الله المختار» .

كـما تخـتلف عن عقيدة الكثرة الغالبة من المسيحيين المعاصرين ، والأوروبيين بصورة خاصة ، الذين يشايعون العقيدة اليهودية فى هذا الشأن ، ويعتبرونها ملزمة لهم بالنسبة للعصور السابقة على ظهور المسيح ، ولا يفارقونها إلا ابتداء من ظهوره عليه السلام ، حين انقسم الناس إلى فريقين : مؤمنين بالمسيح والمسيحية ، وهم المهتدون ، وغير مؤمنين بهما وهم الضالون - بمن فيهم من بقى من (شعب الله المختار) على دينهم القديم . ولذلك فإنهم يقفون من عقيدة المصريين القدماء خاصة ، وكل الشعوب التى كانت موجودة على هذه الأرض قبل بعثة موسى عليه السلام

عامة ، موقفا يمكن أن نعبر عنه فى عبارة موجزة : أنه لا توحيد قبل موسى . ثم يجهدون فى إثبات صواب هذه المقولة بكل وجوه الإثبات : صحت أم لم تصح .

وهذا شأنهم هم أحرار فيه ...

أما بالنسبة للمسلمين ، فهم أحرار - بحكم عقيدتهم نفسها - من هذا القيد ، أحرار فى أن ينظروا إلى كل حالة من حالات الأمم السابقة على حدة ، فيعرضوها على عقولهم التى كرّم الله بنى الانسان كلهم ، وعلى الشواهد التاريخية والمادية التى يد بها علمهم ، دون حرج ، وبدون أى التزام مسبق ، إلا فيما يتناقد أو يتعارض مع نص دينى ثابت بين أيديهم .

٢ - طغيان الملوك وتألههم :

الفكرة الشائعة أيضا هى أن الله سبحانه وتعالى قد أدان فرعون ولعنه فى القرآن الكريم . وهذا صحيح لاشك فيه ، ولكن الاستطراد فى هذه الفكرة ، يستنتج بغير وجه صحيح من وجوه الاستنتاج ، أنه مادام ربنا سبحانه وتعالى قد لعن فرعون وأدانه ، وأنه مادام فرعون ملك مصر ، فإن كل ملوك مصر «الفراعنة» ملعونون بنص الكتاب العزيز ، وأنه مادام فرعون قد نادى فى قومه «أنا ربكم الأعلى» ، فلابد أن كل ملوك مصر كانوا متألهين أو

مؤلهين من قومهم .

وهنا .. في هذا الاستطراد ، موطن الخطأ الشديد .

فملوك مصر الذين حكموها في العصر الفرعونى (بين ٣١٠٠ ، ٥٢٥ ق .م) منذ مينا حتى الغزو الفارسى ، يبلغ عددهم – حسب أرجح أقوال المؤرخين المعاصرين – ٢٠٠ ملك ، ولكن فرعون الذى عاش فى عهد نبى الله موسى ، والذى انصبت عليه إدانة القرآن الكريم ولعنه الله فيه – هو ملك واحد من بين هؤلاء المائتين ، هو الذى اضطهد بنى إسرائيل وعبّدهم «أى : اتخذهم عبيداً» ، وهو الذى ولد موسى عليه السلام فى عهده ، وحمله النيل وليداً إلى قصره ، وتربى عليه السلام فى حضانة امرأته التى كانت من المؤمنين [١] ، وهو نفسه الذى خرج موسى عليه السلام هاربا من طغيانه وبطشه ، ثم عاد ودعاه إلى الإيمان فأبى واستكبر وعاقب من آمنوا بموسى ، وهو نفسه الذى طارد موسى عليه السلام ومن معه من بنى إسرائيل حتى عاقبه الله وجنوده بأن ابتلعهم اليم [٢] ..

---

(١) ملحوظة : كان هناك مؤمنون

(٢) يختلف المؤرخون أيضا فى تحديد اسم فرعون موسى . فمنهم من يعتبره ملكا من ملوك الهكسوس ، ومنهم من يعتبره من ملوك إحدى الأسرات المصرية ، واختار اليهود أن يعتبروه «رمسيس الثانى» وهو اختيار يداخله جانب من التحيز والرغبة فى تشويه صورة هذا الملك ، الذى هو أشهر – وربما أعظم – ملوك مصر القدماء .

ملك واحد في عصر نبي واحد - بل نبيين متعاصرين هما موسى وأخوه هارون عليهما السلام - هو الذي انصبت عليه الإدانة واللعنة من بين ٢٠٠ ملك لا ينبئنا القرآن الكريم عن بقيتهم (١٩٩ ملكا) - هل كانوا كلهم كافرين أم كلهم مؤمنين أم أن منهم الكافر ومنهم المؤمن الموحد ، وهل كانوا كلهم جبارين متألهين ، أم كان منهم ملوك عادلون لا يتألهون .

وقد جاء ذكر فرعون في القرآن الكريم في ٧٢ آية كلها تذكره بصيغة المفرد (فرعون) . ولم يرد في أي آية منها ذكر الفراعين أوالفراعنة بالجمع . مما يدل على أن ما ذكره الله به ينصب على شخص بعينه ، لا على قطاع من الناس ، أو على منصب معين أياً كان شاغله ، فضلا عن أن ينسحب على أمة بأسرها - ذات تاريخ طويل يبلغ عدة آلاف من السنين قبل هذا الفرعون وبعده .

والقاعدة الأسلامية هي «أن لاتزر وازرة وزر أخرى» ، بمعنى أن الجرائم والذنوب التي يرتكبها شخص معين في مركز معين ، لا يسقط وزرها إلا عليه وحده لا على من قبله ، ولا على من بعده ، إلا من ارتكب منهم جرائم أو ذنوبا أخرى فيسقط وزرها عليه هو وحده أيضا .

وهذه القاعدة هى بالضبط عكس القاعدة التى يطبقها اليهود المعاصرون ويشايعهم فيها من يشايعهم ، وهى : (أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) ، والتى يفسرونها بأن ذنوب الآباء والأجداد تسقط على الأبناء والأحفاد فيؤخذون بها سواء ارتكبوها هم أنفسهم أم لم يرتكبوها . لذلك تراهم يمقتون ويلعنون كل أمم الأرض تقريبا ، حاضرها وماضيها ومستقبلها ، وأهل هذه المنطقة من العالم خاصة . كأهل العراق - مثلا - ملعونون قديمهم وحديثهم لأن بختنصر هدم أورشليم ، والمصريون كذلك لأن فرعون (هذا الفرعون الواحد) اضطهد بنى إسرائيل .. وهكذا والفرق بين العقيدتين ، والمنطقين ، والنفسيتين - كما ترى - واسع جداً .

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم ، كما تضمن إدانة ولعناً لأحد ملوك مصر(فرعون موسى) ، قد جاء فيه ذكر الملك ثانٍ من ملوك مصر ، أقل ما يقال فيه أنه لم يدنه ولم يلعنه ، وهو الملك المعاصر لنبى الله يوسف عليه السلام ، والذى كان سابقاً على فرعون موسى ببضعة أجيال هى الفرق بين زمنى النبيين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام .

وإذا نحن تتبعنا سيرة ذلك الملك فى القرآن ، وجدنا فيها من الدلائل ما يشير إلى أنه أولاً لم يكن طاغية ولا جباراً بل ملكاً عاقلا

حكيماً ، وثانيا أنه لم يكن كافراً عنيداً ، وإنما تغلب على صورته القرآنية صورة الانسان الورع المستعد للاستماع إلى الحق حين دعاه يوسف الصديق إليه . بل إن فى مسألة الرؤيا التى رآها عن سنابل القمح والبقرات السمان والعجاف ، إشارة لا تخطىء إلى أن الله سبحانه قد شاء أن يوصى إليه أو أن يلهمه عن طريقها - ثم عن طريق تأويل الصديق عليه السلام لها - طريق النجاة المادية له ولقومه من المجاعة ، وطريق النجاة الروحية أيضا برسالة نبى عصره يوسف الصديق عليه السلام .

فهذان ملكان من بين المئتى ملك ذكر أحدهما بالإدانة واللعنة ، وثانيهما على الأقل لم يدن ولم يلعن ، بل ذكر بما يشبه أن يكون فضائل تحمد له لا ذنوباً تحسب عليه . أما الملوك الباقون «١٩٨» فهم يدخلون فى باب (المسكوت عنه) - حسب الاصطلاح الفقهى - متروكون للاجتهاد البشرى يحكم على ذواتهم وأفعالهم بما يراه صواباً . وسوف نعود مرة أخرى لقصة ذلك الملك المعاصر ليوسف عليه السلام ، لما فيه من دلائل على جوانب هامة من جوانب فهمنا للعلاقة بين العقيدة وبين مصلحة الجماعة الإنسانية .

ولكننا نكتفى هنا بأن نؤكد على أن الحرج الذى يشعر به

بعض – أو عامة – المسلمين من تناول عقيدة المصريين القدماء وسيرة ملوكهم بشكل موضوعي وبدون أحكام مسبقة مطلقة – يحسبون أنهم بذلك يعبرون عن تمسكهم بدينهم وتورعهم عن مخالفته – هو حرج لا أصل له في العقيدة الاسلامية بالذات ، وورع زائف لا مبرر له ، ومخالفة لقاعدة من أبرز قواعد عقيدتهم – وهي أنه لاتزر وازرة وزر أخرى .

مداخل الخطأ :

نأتي بعد ذلك إلى مداخل الخطأ ، وبالتالي إلى الوجوه العامة للتصحيح ، التي ينبغي إدخالها على صورة عقيدة المصريين القدماء كما تصورها العناصر الثلاثة الأخيرة منها (راجع ص ١٤٠)

(أ) الخطأ في إدراك مبدأ التوحيد في العقيدة المصرية القديمة :

نسترشد في هذا الصدد بما كتبه عالمان كبيران من ء المصريات : أولهما وأسبقهما زماناً هو الأثري المصري الكبير الراحل أحمد كمال باشا ، وثانيهما العالم الانجليزي الكبير أيضا ، سير واليس بدج :

(١) رأى أحمد كمال باشا :

يرى كمال باشا [١] أن : «غاية ماسلم به العقل أن هذه الديانة قد أخذت عن ديانة أقدم منها عهداً ، ألا وهى ديانة سيدنا نوح عليه السلام الناطق بها كتاب الله عز وجل «أى القرآن الكريم» ، بقوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) [٢] .. ولا شك فى أن سلف أهل مصر كانوا يعتقدون وجود إله واحد يَرى ولا يُرى ، وأزلى لا أول له ولا آخر . وأنهم كانوا يقدسونه باجلال نعمه الجليلة ويتقربون إليه بعمل الحسنات واجتناب السيئات ، وبمعرفة وأداء شعائر عبادته ، وأنهم ارتقوا فى مادة معنى الألوهية إلى درجة قصوى . وقد ورد فى آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله وقدرته وأفعاله وصفاته .

ثم يورد كمال باشا عدداً من الجمل بالخط القديم (الهيروغليفى حسب الاصطلاح الشائع) ، نقتصر هنا على تفسيره

---

(١) راجع كتاب : «بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصناع وأحوال قدماء المصريين» ، الجزء الأول - طبعة بولاق - سنة ١٣٠٩هـ «١٨٩٢» - ص ١٥ وما بعدها . وليعذرنى القارىء فى طول هذا الاستشهاد ، فهذا الكتاب مثله مثل كل كتب كمال باشا ، من الصعب العثور على نسخة منه ، ومن العسير على معظم القراء الاطلاع على إحدى النسخ القليلة الباقية منه ، ولذلك فأنا انقل منه دون أى اختصار تقريبا .

(٢) سورة الشورى آية (١٣) .

لها بعربيتنا المعاصرة :

– كل شيء خلقه الله العظيم بنفسه .

– خالق الكائنات والأشياء .

– الخالق لكل مخلوق ، الذى لم يخلق ، وهو فاطر السماء والأرض .

– الموجود [1] لكل ما يكون ، أما مالم يكن فهو مكنون علمه .

– الله معبود باسمه الإلهى ، خالق الأرواح فى الأشباح .

– يمضى [2] الدهور وهو باق دائما .

– ذو الأزلية ، الذى يُمضى دهوراً لا تحصى وهو على حالة وجوده .

– ذو الأزلية الذى لا حد لها .

– لا يُمسك بالذراع ولا يُقبض باليد .

– لا تدركه الأبصار .

– سميع لمن يتضرع إليه .

---

(١) أحسبها «الموجد» وأظنها تصحيفاً أو خطأ مطبعياً «المؤلف»

(٢) أحسبها «تمضى» ، أو «يُمضى» – كما هو وارد فى العبارة التالية «المؤلف»

– الذى يكون والذى لا يكون مختص به .

– الواحد الذى لا شريك له .

وقد وافق على اعتقاد المصريين القدماء لوحدانية الله «والكلام لايزال لكمال باشا» كثير من علماء اللغة المصرية ، منهم :

بيّره Pierret : القائل بأن الديانة المصرية القديمة التى تغيهبت علينا (أى : انطمست عنا) حقيقتها لكثرة دخول المعبودات فيها ، هى الاعتقاد بوحدانية الله عز وجل ، كما ثبت ذلك لدى عموم العالم ، واتضح جليا من النصوص الأثرية .

أما تعدد المعبودات التى قالت بها الآثار ، فليست إلا أمراً ظاهريا قصد به بيان مظاهر الذات العلية ليس إلاّ ، وأن الإشارات التى نراها فى الكتابة لم تكن صادرة إلاّ عن تصورات دينية لا يمكننا معرفة كنهها لكثرة ما قصد بها من الرموز .

ثم قال (أى :بيّره) : واتضح من أقدم الآثار التى وردت فيها اللغة المصرية مستوفية تامة ، أن السبب الذى حمل قدماء المصريين على عدم إظهار حقيقة ديانتهم ، إنما هو تحجّب منهم وحياء (١) ،

---

(١) راجع كلام «استرابو» عن كتمان العلماء المصريين لعلومهم عن الأغراب ، وتعليقنا عليه فى معرض وصفنا لتاريخ مدينة عين شمس (ص . ١٠٦) وما بعدها . «المؤلف»

لأن أمتهم كانت متكبرة ومتعظّمه ، وكانت تتحاشى إطلاع الغير على تحسساتها الأولى ، ومنهم :

جريبو : فإنه أورد فى «مدحة آمون» التى ترجمها ، حقيقة إدراك قدماء المصريين فى معنى الألوهية ، حيث قال : إن مصر اعتبرت معبوداتها الكثيرة أسماء لمظاهر متنوعة بذات واحدة ، وخصت كل معبود بقدرة بالغة من صفات هذه الذات الأزلية ، السابقة الوجود على كل ما أوجدته ، المنظمة للأكوان ، الحفيظة كل يوم لصنعها ، المتصفة بجميع الصفات الإلهية . وهذه الذات الواحدة الثابتة الخفية التى لا تدركها الأبصار – ليس لها شكل ولا اسم ، بل تعرف بصنائعها «أى بأفعالها» ، وتتكشف بمظاهر نتج عن كل مظهر منها شكل إلهى له اسم ، ويقال له المعبود الأوحد .

ثم بعد أن ذكر «جريبو» جملة من العبارات المصرية ، التى تبين تارة أن المعبودات منبثقة من الواحد الأحد ، وتارة أنها نفس أعضاؤه [1] ، قال ما تعريبه :

ينبغى حسن التيقظ والالتفات إلى أن المراد بتعدد الآلهة

---

(١) ربما كان هذا خطأ نحويا صوابه «أعضائه» ، ولا اعتقد أن كمال باشا كان يقع فى مثله ، والأرجح أنه خطأ مطبعى ، أو أن أصل العبارة «أنها نفسها أعضاؤه» والمعنيان متقاربان على كل حال «المؤلف» .

عند المصريين ، ليس هو الاعتقاد بها والتعبد إليها ، بل المقصود بها - فى الحقيقة - إزالة هذه العقيدة الفاسدة من العالم ، بإنكار وجودها الشخصى . لأن المصريين لا يقصدون فى تعبدهم لأى معبود ، إلاّ المعبود الخفى الذى اتصف بصفات قديمة ، شبهوها بمظاهر أخذوا عنها المعبودات الدالة على أفعاله وتجلياته . وأن لسان الآثار (أى مايفهم من الكتابات الأثرية) يصفه بالمعبود المنزه عن الشكل ، الذى اسمه مكنون . فهو روح فعالة لها مظاهر عديدة تمثلت بها المعبودات ، التى هى صور مخلوقة سرت فيها الحياة بالروح المتلبسة بها . وهذه الروح تجرى من مظهر إلى آخر ، دون أن تفقد شيئاً من صفاتها القائمة بذاتها الإلهية ، ولذا كان المؤمنون بها يدعونها دائما «بروح جميع المعبودات» ، ويصفونها والمعبود الذى لا ثانى له بكل ما يليق بها من الكمال والجلال .

ومنهم:

مرييت، القائل : إن قدماء المصريين كانوا يقرون بوحدانية الله ، وأنهم وصفوه بما يليق به من الصفات العديدة والأسماء الكثيرة ، ولكنهم لم يثبتوا على هذه الطريقة الجليلة والشريعة الجميلة فى كيفية إدراك الحقيقة الإلهية ، بل تعدوا هذه الحدود وجعلوا لأفعال الله تماثيل تدل على كيفية أعماله ، واتخذوا

كل معبود منها إلها آخرا بالتبعية للذات الأصلية .

فكانوا يعتقدون مثلا أن فعل القدرة الذى يتعلق بجميع الأشياء ، ويوجد فيها الاستعداد للنمو والازدياد ويرشدهم للنور ، هو إله كان يسمى عندهم باسم «آمون» ، ومعناه «المحجوب» ، وهيكله بناحية الكرنك .

وكانوا يرون أن الفعل الإلهى الذى نظم العالم ، وعلق الشمس والقمر فى السماء ، وحرك الأرض ، هو إلَه آخر يسمى عندهم باسم «بتاح» ، وهيكله بقرية ميت رهينة .

قال (أى : مربيت باشا) : وهى التماثيل التى تكاثر عددها كانت عند العوام بمنزلة تماثيل يعكفون على عبادتها ، أما الكهنة وغيرهم ممن كان يقف جيداً على الديانة القديمة المصرية ، يقولون إنها رموز لأفعال الله عز وجل ، ونحن نصادق على هذا . لأنه لو تأملنا لهيئة «أبى الهول» الذى وجهه ورأسه على صورة إنسان ، وجسمه جسم أسد ، لحكمنا بأن هذه الصورة التى لا وجود لها فى المخلوقات ، أنها موضوعة للرمز فقط .

فإذا سألنا سائل وقال (والكلام اعتباراً من هنا - على الأرجح - استئناف لكلام كمال باشا بعد أن انتهى ما نقله عن ماربيت) : كيف اتخذت العامة هذه التماثيل آلهة ؟

قلنا : إن الكهنة – لتقدمهم واعتبارهم وسماع أقوالهم فى العصر القديم – صارت لهم سلطة كبيرة على سكان مصر ، وخضعت لهم أكثر العوام بسبب توهماتهم ، فغروهم وتغالوا فى مادة حب التماثيل ، حتى أنهم اتخذوها أرباباً من دون الله ، ورسموها بأشكال متنوعة وأوصاف متفرعة ، على هيئة أنها تقبل ما يتقرب إليها من القربانات ، وما يتضرع إليها من صالح الدعوات الصادرة إما عن قسيس أو ملك ، أو عن إنسان تراه واقفا أمامها يشاهد فى صورته كمال الخشوع وتمام الوضوع (أى : التواضع) .

ولكثرتها وتزايد عددها ، كانت عبادتها بكيفيات متنوعة ، وعبادها أقساماً متفرعة ، كل خاص بمعبود ، عاكف على جبته (أى : صنمه) . حتى أن الديار المصرية كانت مقسمة إلى أعمال (أى : أقسام) دينية بقدر أعمالها «إقسامها» السياسية .

(انتهى ما نقلناه من كلام كمال باشا بحروفه ، وعلامات الترقيم وما بين الأقواس من عندنا) .

ونلخص فيما يلى خصائص هذه الصورة التى يصور بها كمال باشا عقيدة قدماء المصريين والتى يستمدها مباشرة من النصوص القديمة ، والتى يتفق معه فى مجملها ثلاثة علماء على

الأقل من العلماء الأوروبيين المعاصرين له :

١ - ديانة أساسها التوحيد : أى الإيمان بإله واحد لا شريك له هو الخالق الأوحد لكل الكائنات .

٢ - هذا الإله الواحد الخالق يتصف بصفات الألوهية الرئيسية التى تصفه بها الديانات التوحيدية : [أزلى - أبدى (باق) - لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار (يرى ولا يُرى) - سميع بصير - عليم - مسير للكون بإرادته المتفردة (ما يكونُ وما لا يكون مختص به)] .

يعنى . ديانة الأصل فيها هو التوحيد المطلق كما نعرفه ، بلا تجسيد (يرى ولا يُرى - لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد) ، وبلا شرك .

٣ - ثم يفسرون وجود هذه الأسماء العديدة التى تبدو فى الظاهر وكأنها آلهة متعددة إلى واحد أو أكثر من الأسباب الآتية : -

(أ) أنها تعبيرات أو رموز مقصود بها تصوير مظاهر هذه الذات العليا وأفعالها ، لا عن ذوات منفصلة عنها .

(ب) أنها «أعضاء» أو أجزاء من هذه الذات العليا - أو منبثقة منها غير مستقلة عنها .

(جـ) أن المقصود بذكر الآلهة المتعددة ليس هو عبادتها ، وإنما هو نفى صفة الألوهية عنها .

(د) أن منها ما كان مختصا بقسم أو أقسام معينة من البلاد ، متعددا بتعدد تلك الأقسام .

(٤) ثم يضيف كمال باشا إلى هذه التفسيرات أن العامة اتخذوا منها أربابا مدفوعين بسلطة الكهنة والملوك الذين شجعوهم على ذلك ، اجتلابا لمنافع كالقرابين ، أو اجتلاباً لخضوع العامة لهم – باعتبارهم القادرين على مخاطبة تلك الآلهة واكتساب رضاها .

أو بمعنى آخر أنها ديانة ذات مستويين من مستويات الاعتقاد والسلوك :-

(أ) مستوى الخاصة : الذين يدركون جوهر الدين القائم على التوحيد ، ولا يتخذون من الصور والتماثيل إلاّ وسائل للتعبير عن صفات الخالق الواحد وأفعاله ، ولا يعبدون إلاّ إلها واحداً بلا شريك .

(ب) مستوى العامة : الذين وقع فى وهمهم خلط مؤداه أن هذه الصور أرباب من دون الله – أو مشاركون له فى ملكه ، فعبدوها وتقربوا إليها ، تقرباً للذات العليا .

ب - سيرواليس بدج :

سوف ألخص هنا أهم الآراء التى يسجلها هذا العالم الإنجليزى الكبير فى كتابه «الديانة المصرية» [1] ، والتى تخالف الصورة الشائعة الرائجة عن ديانة المصريين القدماء من ناحية - كما تشير إلى بعض مصادر الخلط الناشىء عند غالبية المتصلين بالتاريخ المصرى القديم ، بين حقيقة هذه العقيدة وبين الصورة التى يتصورونها - أو يصورونها بها ، والتى بناها «بدج» على نصوص عديدة جداً مثل النصوص التي ذكر كمال باشا طرفاً منها :

١ - يؤكد مراراً فى المجرى العام للكتاب على أن جوهر الديانة المصرية مبنى على وجود إله واحد لا شريك له ، خلق كل شىء ، ولم يخلقه أحد ، سابق على جميع الكائنات وموجد لها . لا يرى ولا يتجسد ، ولا يدرك إلاّ بأفعاله وقدرته ،

٢ - ينفى نفياً قاطعاً أن الشمس ... أو إله الشمس «رع» ، هى هذا الإله الخالق ، ويؤكد - بالمخالفة للفكرة الشائعة أيضاً عند العامة - أن «رع» لا يعدو أن يكون عندهم هو الصورة النورانية التى تتمثل فيها القدرة الكلية للذات العليا وليست هى الذات العليا نفسها ، بل أنها - أى الشمس - قد انبثقت من جرثومة أوجدتها

(1) Egyptian Religion

الذات العليا .

٣ - أن الذات العليا هى الموجدة لكل الآلهة (أو الأرباب) التى تتمثل فيها أفعال أو قدرات الذات العليا ، وليست آلهة مستقلة منفصلة عنها .

٤ - يعقد مقارنة «بل مطابقة فى الواقع» بين مفهوم الإله الواحد فى الديانة المصرية القديمة من ناحية ، وبين نفس المفهوم فى الديانتين «العبرانية والمحمدية» كما سماهما (أى : فى اليهودية والإسلام) ، بناء على النعوت أو الصفات الإلهية العديدة جداً ، والتى جمعها عالم آخر هو «بروجش» من النصوص القديمة [١] :

[الواحد - الأوحد - الذى لا شريك له - الموجد لكل شيء - الروح المقدسة - الأول القديم - الخالق - أبو جميع الموجودات - الأبدى - اللانهائى - الأزلى - الخفى الذى لا تدركه أبصار البشر ولا أبصار الأرباب - ذو الاسم الخفى - ملك الحقيقة المشكل لها والمستوى على عرشها والمنفذ لها - الحى - واهب الحياة - أبو الآباء وأم الأمهات - المنجب الذى لم ينجبه أحد - الموجد الذى لم يوجده أحد - الخالق الذى لم يخلقه أحد - موجد نفسه وصانع

(١) هذه الصفات أوردناها كما ذكرها «بدج» نقلا عن «بروجش» بحروفها ، ومنها - كما ترى - صفات لا تفهم بصورة متسقة مع بقية الصفات إلاّ إذا أخذت على محمل المجاز والاستعارة .

كيانه – هو الوجود نفسه – موجود حى فى كل شىء وفوق كل شىء – لا تجوز عليه الزيادة ولا النقصان – يضاعف ذاته ملايين المرات – متعدد الصور والأعضاء – خالق الكون بكل مافيه ، وكل ما كان ، وكل ما هو كائن ، وكل ما سيكون – خلق الكون بيديه قبل أن تكون ثمة بداية – خالق السموات والأرض والماء والجبال وما تحت الثرى – ما يريده كائن وأمره نافذ إلى الأبد – أبو الأرباب – أنطق نفسه فوجدت المعبودات ، وخرجت الأرباب إلى الوجود – أوجد الناس والأرباب – السيد العظيم – المصدر الأول الذى شكل الناس والأرباب بيديه (كما يشكل الفخار) – يرفع السموات فوق رأسه وترتكز قدماه على الأرض – تحجب السماء روحه وتحجب الأرض صورته وينطبق ما تحت الثرى على سره المكنون فيه – جسمه كالهواء وتستقر السماء فوق رأسه – يحتوى فيضان النيل على صورته – رحيم بمن يعبدونه – سميع الدعاء – حافظ الضعفاء من سطوة الأقوياء – يسمع دعاء المصفد فى الأغلال – يقضى بين القوى والضعيف يعرف من يعرفه – يثيب من يخدمه – ويحفظ من يتبع طريقه] .

[ونلاحظ هنا ملاحظة هامشية : أنه إذا كان «بدج» قد أدهشه هذا التشابه بين تصور المصريين القدماء للذات العليا وبين

عقيدة ديانتين توحيديتين لاحقتين هما الإسلام واليهودية ... فإنه لا يدهشنا ، فالتوحيد - كما ذكرنا - أصل من أصول الفطرة الإنسانية ، وقد جاء به أنبياء كثيرون قبل موسى عليه السلام ، وبالطبع قبل خاتم الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فالأنبياء - حسب العقيدة الإسلامية - كلهم (من آدم إلى محمد) على دين واحد هو التوحيد] .

٥ - يعارض «بدج» بقوة أولئك الذين يعتبرون مفهوم الألوهية عند المصريين القدماء مفهوما بدائيا ، أو يشبهونه بعقائد الأقوام البدائيين الذين اكتشف الأوروبيون وجودهم ومعتقداتهم فى العصر الحديث ، مؤكداً أنه مفهوم متقدم جداً (١) ، ومدللاً على ذلك بحقيقة هامة : هى أن الكتابات التى وصلت إلينا منهم والتى تحمل مفهوم التوحيد فى الصورة التى ذكرناها ، مكتوبة كلها بعد أن تطورت حياتهم تطوراً كبيراً عن حالة الأقوام «البدائيين» ، بعد أن وصلوا إلى درجة من الرقى الحضارى تنبئ عنها مبانيهم العظيمة ونظامهم الاجتماعى المركب (ص ٢٢ / ٢٣ - هامش) .

---

(١) انظر عبارة كمال باشا حيث يصفهم بأنهم « ارتقوا فى مادة معنى الألوهية إلى درجة قصوى » .

٦ - يدلل على أن أقدم الكتابات التى وصلت إلينا منهم تحمل هذا المفهوم التوحيدى بنفس الصورة التى تحملها كتاباتهم الحديثة نسبيا ، أى أن هذا المفهوم قديم جداً عندهم ، وثابت ثباتاً مستمراً طوال تاريخهم المعروف أما مفاهيمهم السابقة على تاريخهم المسجل وكتاباتهم التى حفظها الزمن ، فلا نعرف عنها شيئا ولا نملك إزاءها إلاّ الحدس والتخمين .

[ومعنى هذا عندنا أن التوحيد لم يكن شيئا مجهولا عند القدماء لم يعرفوه إلاّ بعد موسى عليه السلام ، فضلا عن أن يكون قد جاءهم لأول مرة على يد اخناتون (أى بعد زمان موسى بأجيال) حسب الإشاعة التى راجت فجأة فى السنوات الأخيرة ، وإنما هو قديم عندهم قدم حضارتهم المعروفة نفسها - على الأقل] .

٧ - يناقش «بدج» مسألة «تعدد الآلهة» - أو الأرباب - التى كان المصريون القدماء يوقرونها ، فبعد أن يقول إن أسماءها وحدها تملأ مجلداً كاملاً ، يبين أن الفئة المتعلمة من القدماء لم يسووا أبداً بين الإله (God) وبين الرب (god) أو يجعلوهما فى منزلة واحدة [وأرجو أن نلاحظ هنا الفرق بين الكلمة الأولى بجيم كبيرة (Capital G) وبين الكلمة الثانية بجيم صغيرة (Small g) . والفرق بين هاتين الكلمتين الإنجليزيتين ، أو الكلمة

الواحدة المكتوبة في صورتين مختلفتين ، فرق شاسع . فالأولى (God)هي اسم علم على الاله الواحد وهي لا تجمع ولا تسبق بأداة التعريف (The) ، ولا بأداة التنكير (A) - وتقابل عندنا لفظ الجلالة «الله» . أما الأخرى ذات الجيم الصغيرة «god» فهي - نحوياً - اسم مفرد نكره معناه : رب من الأرباب أو إله من الآلهة] ، بل ولم يتخيلوا قط أن وجهة نظرهم بهذا الصدد سوف تكون محل لَبس . ويدلل على أن تلك الأسماء العديدة للأرباب (gods) نشأت لأسباب قديمة كثيرة : منها وجود أرباب محليين قدماء للقرى والمدن والأقاليم ، وأرباب تحتضنهم عائلات ثرية وقبائل أو عشائر تعلو بعلوها وتسفل بانحدارها . (صفحة ١٠٨ / ١١٠) ، وأرباب آخرين كانوا يعبرون بهم عن الأنهار والجبال والأرض والسماء «مما يشكل أعداداً كبيرة من الكائنات «المقدسة» (Divine) التي لابد من استرضائها وتجنب نقمتها»

وبالاضافة إلى ذلك «هناك عدد من الحيوانات المكرمة (Sacred) عند الأرباب ، فاعتبرت هي الاخرى «مقدسة» ، وأضيفت إلى قائمة الأرباب - حباً لها أو خوفاً منها» .

* * *

بعد هذا التلخيص السريع لرأى عالمين كبيرين من علماء التاريخ المصرى القديم فى مسألة تعدد الآلهة ، تدعمها آراء مجموعة أخرى من العلماء الذين استشهد بأقوالهم والتى ترتكز على تجميعهم لعدد كبير من النصوص الفرعونية ، نستطيع أن نتبين الأسباب الأساسية للخلط والخطأ الشائعين فى فهم عقيدة المصريين القدماء :

١ - تجاهل معظم الكتابات الشائعة الرائجة لهذه الآراء العلمية الناضجة الموثقة وأمثالها ، والانكباب على الصورة السهلة المشوقة الظريفة ، التى تصور المصريين القدماء فى صورة شعب يعبد مئات الآلهة ، ويقدس عدداً هائلا من الحيوانات من جميع قطاعات المملكة الحيوانية ، والتى حولت صورة تلك الأمة فى نظر العامة وغالبية المثقفين ، من صورة أمة ذات أساطير إلى صورة أمة أسطورية أو خارجة من أسطورة .

٢ - الخلط بين درجات التكريم المختلفة للمراتب المختلفة من الكائنات المادية والغيبية : فما رأيناه من آراء لبدج وكمال باشا نستنتج وجود المراتب الآتية من التعظيم للكائنات «الغيبية» : -

أ - الإلَه : وهى مرتبة تقتصر على الإله الواحد الأحد ، الذى له نفس أوصاف الله سبحانه وتعالى الذى يؤمن به أصحاب الديانات السماوية .

ب - الأرباب : أو الوسائل والصور التى من صنع البشر أو من بنات أفكارهم ، والتى يعبر بها أصحاب العقيدة عن صفات الإله الواحد أو الذات العليا ، أو يرمزون بها لهذه الذات ، والتى اكتسبت فى نفوس العامة مكانة تقرب من مكانة الذات العليا نفسها .

جـ - قوى الطبيعة العليا : كالشمس والقمر والأنهار والجبال والسموات ، وتتمثل فيها قدرة الذات العليا ، كما تتمثل فيها ما سخرته لمصلحة الإنسان فى هذه الدنيا ، والتى اكتسبت مكانة هى خليط من عبادة الذات العليا ممثلة فى قدرتها على خلقها وتسخيرها ، وبين الاعتراف بأهمية وضرورة هذه القوى نفسم لحياة الانسان .

د - ماهب ودب من كائنات صغيرة معظمها من الحيوانات اعتبرها دارسو التاريخ المصرى . بمن فيهم كمال بشا وبدج «مقدسة» أو على الأقل مكرمة لأسباب دينية عند المصريين القدماء ، ولنا على هذه المرتبة من الكائنات تحفظات سنوردها بعد قليل .

٣ - تجاهل البعدين الزمنى والمكانى للحضارة المصرية القديمة : فهى حضارة أمة كبيرة لا يقل تعدادها عن سبعة ملايين نسمة فى تقديرات المؤرخين ، تسكن أرضاً خصبة ثرية تحتوى على آلاف القرى ومئات المدن الاقليمية المتقاربة المتواصلة وعشرات الأقسام

أو الولايات .

وهى من الناحية الزمنية حضارة امتدت - فى تاريخها المعروف وحده - قرابة أربعة آلاف سنة - أى أكثر من ضعف العصر المسيحى كله ، وحوالى ثلاثة أضعاف التاريخ الإسلامى كله .

وهى من ناحية أخرى أمة معبرة كاتبة مبدعة ، عبرت عن أفكارها فى صور شتى من الكتابات والرسوم والتماثيل المجسمة والرموز المبتدعة ، وسجلت على مر العصور هذه الأفكار سواء على الجدران الحجرية ، أو على أوراق البردى التى اندثرت كلها ماعدا ماوجد مدفونا مع أصحابه أو قارئيه أو المثقفين به ، ولذلك نجد من الطبيعى أن تدور معظمها حول الحياة الآخرة . فلو أننا قد وصلت إلينا كل صورة سجلها وكل رمز ابتدعه ، وكل حكمة ، وكل مثل وكل تعبير عبر به شاعر أو فنان أو مفكر ، فى كل قرية ومدينة ، فى كل جيل من هذه الأجيال ، لكانت بين أيدينا اليوم منها ملايين لا تحصى ، ولكن الذى وصل إلينا بالمقارنة إلى الحجم الكلى نسبة ضئيلة جداً ... ولكنها كثيرة جداً بالمقارنة إلى الأمم الأخرى المعاصرة لها ، التى كانت أقل عدداً ، وأقل تركزاً ، وأصغر عمراً ، وأقل تعبيراً وتسجيلاً ، وهذه النسبة الضئيلة جداً .. الكثيرة جداً قد وصل إلينا معظمها مدفونة فى القبور ، متخصصة فى موضوع واحد بطبيعة الحال ، وهو العقيدة الدينية .

٤ - العمق التعبيرى للكتابات المكتشفة :

فمن الطبيعى أن الكتابات التى استحقت أن تسجل على جدران «المعبد» والأهرام ، أو التى استحقت أن يصطحبها أصحابها والمعجبون بها معهم فى قبورهم ، لايمكن أن تكون الكتابات أو الأقوال الدارجة أو السوقية التى يتداولها الناس فى حياتهم اليومية ، بل لابد من أن تكون من عيون الكلام ونفيس الفكر لكى تستحق هذه المكانة . «وعيون الكلام ونفيس الفكر» بطبيعتهما لا يصاغان إلاّ صياغة أدبية راقية ، تتضمن الكثير من المجازات والاستعارات والصور الفنية ، والمهارات اللفظية كالجناس والتورية والمقابلة . ولذلك فإننا عندما نأخذها بمعانيها القريبة الظاهرة ، ونحملها على محمل الكتابة التقريرية ، ونفهمها بمعناها الحرفى السطحى ، لا نرى فيها إلاّ عبارات بلهاء جوفاء معبرة عن أفكار سخيفة .. بل مضحكة فى كثير من الأحيان .

ويؤيد ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد أن القسم الأكبر من مجموعة النصوص المعروفة «بكتاب الموتى» مستمدة من برديتين تعرفان باسم «بردية آنى» و «بردية نو» وجدت كل منهما فى مقبرة كان صاحبها من أصحاب الجاه والثراء ، وكان كل منهما - فى نفس الوقت - «كاتبا» يمتهن الكتابة كما هو مذكور فى نصوص

البرديتين ذاتهما .

وعندى أن معنى «الكاتب» و «الكتابة» المقصود هنا ليس مجرد القدرة على «فك الخط» أو تسجيل العبارات المنطوقة فى صورة مكتوبة ، مثل أن يكون صاحبها «كاتب يد» لايحسن إلاّ أن يسجل مايملى عليه . فمثل هذه الدرجة من معنى كلمة «كاتب» لاتبلغ بصاحبها مثل المكانة التى يدل عليها مستوى الجاه والثراء الذى كان عليه صاحبا المقبرتين ، والتى لايبلغها إلاّ من بلغ من مهنة «الكتابة» مرتبة الكتابة الأدبية الراقية التى جعلته يتفوق على الآلاف ممن «يعرفون القراءة والكتابة» .

بمعنى أن صاحبى هاتين البرديتين كانا كل منهما فى عصره – على أقل تقدير – ضمن الفئة العليا من المتعلمين والمثقفين، ممن عناهم بدج بقوله «الفئة المتعلمة» (راجع ص ١٦٨) ، ومن عناهم ماربيت باشا بقوله «ممن كان يقف جيداً على الديانة المصرية القديمة» (راجع ص ١٦٠) بل من أرقى درجات هذه الفئة . أى أن كلاً منهما كان يجمع بين المعرفة الصحيحة للعقيدة الرصينة، وبين القدرة الرفيعة على التعبير البليغ ، فكتب كل منهما برديته كلها، أو أملى أجزاءً منها على غيره ، فنقل مانقل من نصوص سابقة ، وألّف ما ألّف من نتاج قريحته ، ثم أوصى بأن تدفن معه

إيثاراً لها وإعجاباً بها وإعتزازاً ، تماماً كما كان يوصى الملوك والأثرياء بأن يدفن معهم أعز ما يمتلكونه مما جمعوه فى حياتهم من الذهب والمصاغ والأسلحة ونفيس الأمتعة .

وقد أدرك كمال باشا طرفا من هذه الحقيقة وعبر عنه فى لمحة خاطفة مقتضبة فى نفس كتابه الذى استشهدنا به ، فبعد أن يشرح تصوره عن عبادة الحيوانات وتطورها عن عبادات قديمة - وهو رأى نخالفه فيه كل المخالفة نجده يقول كأنما يستدرك : «وقد يكون امتزاج المعبود الحيوانى بالإنسانى لقصد نكات [1] فى اللفظ فقط ، (أى توريات وجناسات) نحو «ست تيفون» ، فإنهم كانوا يصورونه على هيئة برنيق (اسم طائر خرافى) لمشابهة اللفظ فى اللغة ، لأن «تيفون» يسمى «تتجو» والبرنيق (يسمى) «توجو» ، ولاشك فى أن بينهما مشابهة لفظية [2] (البتط الأسود ومابين الأقواس من عندنا) .

٥ - الحاجز اللغوى :

فالبرغم من الدراسات المستفيضة للغة المصريين القدماء ، وما اكتشفه دارسوها من قواعدها ونحوها وصرفها ، ومن المعانى

(١) معنى «النكتة» فى كلام كمال باشا وفى كل الكتابات العربية السابقة على عصره ليس هو معناه فى استعمالنا المعاصر الذى نقصد به الفكاهة أو القصة القصيرة ، وإنما معناها الطرفة الكلامية أو القصة العجيبة (راجع لسان العـرب) .

(٢) بغية الطالبين - مصدر سابق - ص ٥٧ .

الاجمالية لكثير من كلماتها وعباراتها ، لابد أن نعي حقيقة هامة هي أن مافهمه الدارسون المعاصرون من معاني كلمات وعبارات لغة المصريين القدماء - حتى الآن - لايعدو أن يكون فهما إجماليا تقريبياً ناقصا ، كما أن النطق الذي ينطقون به ألفاظها ، أقل ما يقال فيه أنه بعيد عن النطق الذي كان ينطقه المصريون القدماء ، ويقر بهذه الحقيقة - جزيئا على الأقل - حتى أكثر دارسي التاريخ المصري تخصصاً ودراية ، ومن بينهم «بدج» نفسه ، الذي يذكر في مقدمة قاموسه الهيروغليفي أن كثيراً من الكلمات والعبارات قد تعذر عليهم فهمها أصلا ، وكلمات كثيرة أخرى لم يفهموها إلا فهما إجماليا أو تقريبياً ، أو احتماليا ، كما أن نطقهم لها محل شك كبير عندهم هم أنفسهم (١) .

وسوف أقتصر في بيان هذه الصورة على مثالين قريبي الصلة بموضوع العقيدة الدينية : -

أ - رمز الفأس الذي يرى فيه دارسو المصريات معنى إلهيا غامضاً لأنه ملازم للعبارات ذات الطابع الديني ، وينطقونه «نتر» .

وتتباين آراء دارسي المصريات تبايناً كبيراً في تفسير المعنى الدقيق لهذا الرمز : فمنهم من يعتبره يعني «السلطة والقوة» - استناداً إلى أن الفأس أقدم سلاح ، ومنهم من يرى فيه معنى

(١) راجع مقدمة قاموس بدج الهيروغليفي ص ٥٤ و ص ٥٧ .

«التجدد والتحديث» ، ومنهم من يراه معبراً عن معنى «القداسة» ومنهـم ينقب - عبثاً - فى الكلـمات القبطية بحثا عن مشابه لغوى له [1] .

وعندى أن هذا الرمز يحمل ثلاثة مستويات رئيسية من التعبير :

- تعبير قديم مستمد من صور الرمز نفسه ، يصف الرباط الذى يربط نصل الفأس (سلاحها) مع نصابها (يدها) .

- تعبير غلب استعماله على المعنى القديم ، ويعنى حرفيا : الصور التى تدل على أوصاف الرب .

- يستخدم فى بعض الأحيان للتعبير - ربما بكثير من الاستنكار والتحقير - عن الأصنام التى تنصب فى «الديرات» أى القرى والمدن الصغيرة وأن بين هذه الاستخدامات مشابهة لفظية ومقاطع مشتركة هى التى أدت إلى استخدام الرمز فى هذه المعانى المتباينة ... والتى تختلف كلها عن الفهم الشائع عن هذا الرمز وهو أنه علامة مميزة دالة على الألوهية .

ب - رمز الجعران أو الخنفساء ، الذى يعتقد معظم الدارسين للغة المصريين القدماء أنه يعبر عن إله الخلق ، وينطقونه

---

(١) الديانة المصرية - مصدر سابق - ص ٢٠ .

«خبيرا» ، ويستدلون من بعض النصوص على أن المصريين كانوا يعتقدون أنه (أى الجعران) قد خلق نفسه !

وعندى أن النطق الصحيح لهذا الرمز كان على الأرجح يتضمن كلمة «جُعـل» . وهى تنطق على وجهين : «جُعَل» بضم الجيم وفتح العين بمعنى نوع من الخنافس أو الصراصير ، و«جَعل» بفتح الجيم بمعنى الإيجاد والخلق . والارتباط الصوتى بين النطقين وثيق جداً . فيرد الرمز تارة بمعنى الحشرة نفسها ، وتارة بمعنى عملية الخـلق . لا - كما ظنوا - أن المصريين كانوا يعتقدون أن الجعارين أو الصـراصير آلهـة قادرة ، مختصة بالخلق بما فى ذلك خلق نفسها ! (١)

والغريب أن أحدا لم يسأل نفسه سؤالين بديهيين :

- هل يمكن لفرد أو أمة أن تبنى الأهرام ، وفى نفس الوقت أن تعبد الخنفساء ؟

- وهل يمكن لعقل واحد أن يجتمع فيه الإيمان بإله واحد خلق كل شىء حتى الشمس نفسها ، وفى نفس الوقت يعتقد أن

(١) واضح من هذه الفقرة أن المؤلف رحمه الله كان يفترض أن المصريين القدماء كانوا يتكلمون العربية ويكتبونها بنظام خطى خاص بهم قبل أن تعرف حروفها المعاصرة اصطلح على تسميته بالهيروغليفية (المحرر)

الخنافس والصراصير بالذات قد خلقت نفسها - فضلا عن خلق غيرها من الكائنات .

ولعلنا لو تأملنا فى هذا الرمز وحده لأدركنا أن أغلب الحيوانات التى وردت صورها فى النصوص ذات المعانى العليا ، هى تعبيرات لغوية وصوتية من هذا النوع ، لا آلهة معبودة كما فهموا ... أو كما أرادوا أن يفهموا .

٦ - الاعتبارات البيئية :

أغفل دارسو التاريخ المصرى البيئى اعتباراً هاماً ، جداً فى علاقة الإنسان بالحيوان فى مصر خاصة ، وهو الاعتبار البيئى، أو مايعرف حالياً باسم «المحافظة على البيئة» ، التى اكتسبت فى العقود الأخيرة أهمية كبيرة فأصبحت تشكل من أجلها الجمعيات والأحزاب ، وتجمع التبرعات ، وتنظم حملات الدعاية بجميع وسائل الإعلام فى أوروبا وأمريكا والعالم الثالث ، وتسن من أجلها القوانين وتنشأ «المحميات» للمحافظة على ماتبقى من الأفراد والأنواع الحيوانية التى توشك على الانقراض . وكأنما تذكر الأوروبيون فجأة - بعد أن أبادوا أو أباد آباؤهم القريبون هذه الحيوانات فى قارات «العالم الثالث» خلال القرنين الماضيين - أن انقراض هذه الحيوانات يهدد البيئة الإنسانية بأخطار كثيرة .

وتقوم النظرية الحديثة للمحافظة على البيئة الحيوانية على حقيقة علمية أساسية : هى أن نظام الطبيعة مبنى على التوازن بين الأنواع المختلفة ، فإذا اختل هذا التوازن باختفاء نوع أو أكثر من أنواع الحيوان ، أو تناقص عدده بشكل كبير ، فلابد من أن يؤدى ذلك إلى تزايد نوع أو أنواع أخرى بصورة كبيرة ، بحيث يصعب مقاومتها أو دفع ضررها على الإنسان وغيره من الكائنات الحية الحيوانية والنباتية . هذا الاكتشاف الذى اكتشفته الحضارة الحديثة بعد أن أوصلت – هى نفسها – هذا التوازن إلى حافة الهاوية ، كانت فى اعتقادى بديهية معروفة عند المصريين القدماء مبنية من ناحية على الاعتقاد الدينى بأن الله (أو الذات العليا) لم يخلق شيئاً عبثاً ، ومن ناحية أخرى على تراكم التجارب والخبرات والملاحظات ، التى علمتهم أن ملاحقة نوع من الحيوان بالقتل والمطاردة ، تخلصا من مضايقات أو أضرار يتسبب فيها ، لابد وأن تؤدى إلى أضرار أكبر من التى نحاول تجنبها :

– فمثلا اذا لاحقنا القطط بالقتل تخلصا من مهاجمتها للدواجن وسرقتها للطعام وتلويثها للمنازل ، فلابد أن تتكاثر الجرذان بصورة كبيرة تهدد المزروعات والمبانى الخشبية وصحة البشر .

- وإذا لاحقنا الضفادع .. تكاثر البعوض وغيره من الحشرات التي تتغذى عليها الضفادع .

- وإذا قتلنا الخنافس .. تكاثرت العقارب التي تتغذى عليها الخنافس وتطاردها كما يطارد القط الفأر .

- وإذا طاردنا طائر «أبو قردان» : تكاثرت الديدان وأكلت جذور النباتات .. وهكذا .

وبالإضافة إلى هذا ، فهناك أنواع يبدو لنا الآن أنها بغير فائدة تذكر ، أو أن ضررها أكثر من نفعها ، أو أن اختفاءها لن يترتب عليه أى أضرار بيئية . ولكنها كانت - في ظروف حياة المصريين القدماء - ذات فوائد غابت ، كما غابت الاعتبارات البيئية التي ذكرناها - عن دراسي التاريخ المصرى .

فمثلا : يذكرون فى مواضع كثيرة أن المصريين كانوا يعبدون التماسيح ، أو يقدسونها أو يكرمونها . وقد روى «هيرودوت» أنه رأى بعينيه عملية إطعام التماسيح التي كان يقوم بها الكهنة فى عصره . ويبدو لنا مثل هذا العمل - فى أيامنا هذه - سخافة كبرى وتصرفا غريبا لا مبرر له.. إلا أن يكونوا فعلا «يعبدون» التماسيح ويعتقدون أن لها قوى غيبية ، أو خصائص سحرية أو أى شيء من هذا القبيل .

ولكننا إذا نظرنا إلى الظروف الموضوعية التى كانوا يعيشونها وخاصة فى العصور القديمة ، وجدنا أن هذه التماسيح التى كانت تسبح فى النيل وتتغذى على الحيوانات التى تقترب من ضفته ، كانت أيضا تهاجم الناس الذين ينزلون إلى الماء أو يقتربون منه ، وبذلك تمثل عقبة مخوفة تحول دون نزول الفرد الواحد إلى النيل ، أو حتى الجماعة من الناس ، إلاّ باستخدام السفن وحمل الأسلحة التى يدافعون بها عن أنفسهم وهم ينزلون الضفة ليصلوا إلى السفن .

ومن ناحية أخرى ، من الناحية الجغرافية ، نجد أن النيل كان يمثل الحد الفاصل بين الجانب الذى عليه العمران والمدن والقرى والوادى المزروع المكتظ بالناس ، وبين الجانب المهجور الخالى من البشر تقريبا ، والمفضى إلى الصحراء . وكان العمران – كما رأينا (١) – على الجانب الغربى فى مصر الوسطى والصعيد الأدنى حتى نجع حمادى ، وعلى الجانب الشرقى فى الصعيد الأعلى .

فكانت تماسيح النيل تؤدى – دون وعى منها بالطبع – نفس الدور الذى يؤديه فى أيامنا هذه جنود حرس الحدود ، تهاجم من

---

(١) انظر ص ٦٠ «طيبة»

يحاول أن يتسلل عبر النيل من إحدى الضفتين إلى الأخرى ، سواء كان يتسلل هارباً من الجانب المعمور إلى الجانب المهجور (مجرما هاربا مثلا) ، أو كان لصاً أو مهاجما متسللاً فى الاتجاه العكسى بغرض مهاجمة إحدى القرى أو السطو عليها . فكان وجود هذه التماسيح بأعداد كبيرة فى حد ذاته ، يجعل من يحاولون عبور النيل بصورة «غير قانونية» يضطرون إلى أحد أمرين أحدهما مرّ : إما أن يعبروه فرادى فيواجهون الاحتمال شبه المؤكد بأن تلتهمهم التماسيح ، أو أن يتجمعوا فى جماعات مسلحة ، ويستخدموا سفناً ذات حجم تعجز التماسيح عن مهاجمتها ، فيلفتون - بعددهم وسفنهم - أنظار أجهزة الأمن والدفاع ، فتستعد لملاقاتهم أو تبدأهم بالهجوم . وهى ميزة عظيمة الأهمية لتلك الأجهزة ، لم تكن لتتوافر لولا وجود هذه التماسيح ، حفظها وسجلها فى ضمير الأمة ضروب من التكريم الذى يشبه التقديس .

ومن المستحيل بالطبع أن نفترض أن كل فرد من أفراد المجتمع المصرى القديم كان واعيا وعيا علميا مسببا بفائدة هذه الحيوانات ، أو بالأضرار البيئية والأمنية والدفاعية التى تترتب على إبادتها أو ملاحقتها أو إيذائها . وإنما كانت هذه المعرفة فى الغالب مقصورة على الخاصة من الحكماء والعلماء وذوى الرأى . وكانت

أسهل الوسائل وأفعلها لتوصيل التحذير من إيذاء هذه الحيوانات إلى كل فرد ، هو أن تنسج حول كل منها أسطورة صغيرة ، أو حكاية دينية ، أو يطلق عليها اسم ذو صفة دينية ، يجعل كل فرد يمتنع عن إيذائها من تلقاء ذاته وبوازع من ضميره ، حتى وهو وحده لا يراه أحد ، خوفا من عقاب الربّ الذى ينهى – فى اعتقاده – عن إيذائها .

ولنا فى واقعنا المعاصر دلائل قاطعة على هذا الأسلوب فى حماية الحيوانات ذات الأهمية البيئة . منها تسمية الضفدع «الحاجة خضرة» فى القرى المصرية ، والتى تمثل فى حدا ذاتها حماية لها من المطاردة والإيذاء . ومنها تسمية حشرة « فرس النبى» بهذا الاسم ، لا لأنها فرس حقا ، ولا لأن لها علاقة من قريب أو بعيد برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لأنها قد نُسجت حولها أسطورة يعرفها ويتناقلها كل رجل وامرأة وطفل فى الريف خاصة ، تقول أنها تجسيد للفرس التى ركبها النبى حين عرج به ربه إلى السماء(البراق) .

حاول أن تطأ بقدمك حشرة من هذا النوع فى حقل من الحقول أمام أحد أبناء الريف ، فستجده يمنعك على الفور – وبالقوة إذا لزم الأمر – وينهرك بشدة ، ويحذرك من أنك إذا قتلت

«فرس النبى» فستدخل النار لا محالة !

والسبب الجذرى فى تكريم هذه الحشرة ، والذى يكاد يبلغ حد التقديس – ليس فى حقيقته سببا دينيا فى ظاهر الأمر ، وإنما مرجعه إلى أن هذه الحشرة التى يسهل على أى طفل قتلها ، هى نفسها الوحش الكاسر الذى يفتك بالحشرات الأخرى فتكاً ذريعاً ، إذ تتغذى الواحدة منها على المئات من الحشرات الأخرى فى اليوم الواحد ولا تأكل النباتات أصلا ، ولولاها لتكاثرت الحشرات الأخرى بصورة هائلة فأكلت الزراعات ، وأتلفت القطن والبرسيم والذرة ، وغيرها من محاصيل ذلك الفلاح الذى ينهاك عن قتلها . فهو وإن كان لا يعرف هذه الحقيقة العلمية ، التى لا يعرفها إلاّ القلة القليلة من عامة الناس ، إلاّ أنه تربى على الاعتقاد فى هذه الأسطورة ، التى لا شك أن من ألفها كان يعرف هذه الحقيقة ، سواء بالتجربة أو بالملاحظة أو بالتواتر عن الأجيال السابقة . وأنه ألفها منذ قرون لا يعرف عدتها إلاّ الله ، قبل أن يسمع أحد فى الريف المصرى عن النظريات البيئية المستحدثة . ثم اكتسبت الأسطورة بالتجربة والملاحظة أيضا مصداقية أنزلتها منزلة الحقائق اليقينية ، حين لاحظ الناس على مر الزمن أن من يلاحق هذه الحشرة ويقتلها أينما رآها فى حقله ، تصاب زراعته بالآفات عقابا له على ذلك ، أما من

يتركها ويتجنب قتلها ، فإن الله يبارك له فى زراعته ويضاعف له فى رزقه .

وبالمناسبة : كانت هذه الحشرة من بين الحشرات التى عدّها دارسو التاريخ المصرى القديم من بين الآلهة والأرباب المعبودة أو المقدسة عند المصريين القدماء ، استناداً إلى وجود رسمها واسمها (الذى ينطقه الدارسون : أبيت أو «عابد») فى بعض النصوص الدينية المعروفة «بكتاب الموتى» (١) ، بينما نستدل منه نحن على أن الأسطورة البيئية التى ذكرناها قديمة جداً ، سابقة بكثير على العصر الإسلامى ، ثم ألبست رداء جديدا ، مستمدا من القصص الدينى للعقيدة الجديدة ، لضمان استمرار حمايتها من الإبادة والانقراض .

ويضيق المجال هنا عن تتبع كل أنواع الحيوان التى تظهر فى الرسوم والرموز والعبارات المصرية القديمة، وعن تأمل الأسباب الحقيقية لمكان كل منها فى ضمير الإنسان المصرى القديم . فهو

---

(١) راجع واليس بدج : «كتاب الموتى» الجزء الأول طبعة ١٩٧٧ صـ ١٥٤ من المقدمة ، ص ٣١٠ من النصوص .

Budge , E.A.W, the Book of the Dead , vol I , 1977 edition p . clvi (introduction) and p . 310

باب واسع جداً ، لم يحاول أن يطرقه - فيما أعرف - واحد «يوحد الله» ممن تصدوا لدراسة عقيدة المصريين القدماء ، بل اكتفوا كلهم - فى إجماع مخجل - بالمقولة السهلة .. الفكاهية .. إن المصريين كانوا يعبدون الحيوانات !

والخلاصة أن معظم دارسى التاريخ المصرى القديم عند ذكرهم لتعدد آلهة المصريين القدماء قد صنعوا سلة هائلة الحجم ثم أخذوا يلقون فيها دون تمييز :

- كل صور الكائنات الدالة على أوصاف الله .
- وكل التعبيرات الرمزية المبينة لقدرته .
- وكل الشعارات الاقليمية والمحلية والقبلية .
- وكل الشهداء والأبطال القوميين الحقيقيين والخياليين .
- وكل الرموز اللغوية التى فى صورة حيوانات .
- وكل الحيوانات المكرمة لأسباب بيئية أو دفاعية .

- وكل ما يصل إلى متناول أيديهم مما يجدون فيه مظنة معنى التكريم والتقديس ثم كتبوا على هذه السلة من الخارج : «آلهة المصريين القدماء» ! .

وأتخيل لو أننا صنعنا نفس صنيعهم بالنسبة لأمة من الأمم

المعاصرة «المتحضرة» ، فأخذنا سلة مماثلة وجمعنا فيها كل ما يحيط بعقيدة هذه الأمة من أسماء الأنبياء ، والملائكة ، والحواريين ، والقديسين ، والشهـداء والأولياء ومـن صـور القصـص الـدينى ، وتماثيله ، وأشعاره ، وأغانيه الخ .. ثم زدنا فوقها تماثيل وصور الشخصيات السياسية المقامة فى الميادين والمضروبة على قطع النقود ، وأعلام المحافظات والقوميات ، والحروف الأبجدية الخ ... ترى كم ألفا تبلغ هذه الحصيلة ، بالمقارنة إلى عدد ما يسمونه «آلهة المصريين القـدمـاء» التى لا تـزيد عـلى بضع مئـات لا تبلغ الألـف الـواحـدة لا غير .. ؟!

٧ - الخلط فى مفهوم «السحر» عند المصريين القدماء :

نرتكز أيضا فى مناقشة المفهوم الشائع عن اعتقاد المصريين القدماء فى السحر وممارستهم له ، على كتاب للعالم الانجليزى «سيرواليس بدج» اسمه «السحر المصرى» (١) ، يعتبر من أهم مراجع هذا الموضوع ، كما أنه من أكثر الكتب شمولا ورواجاً ،

---

(١) واليس بدج - السحر المصرى - طبعة «أركانا» - ١٩٨٨
Sir E . A .Wallis Budge : Egyptian Magic , Arkana . Edition , 1988

وأسهلها تناولاً ، وأبعدها أثرا فى تشكيل تصور المثقفين المعاصرين عن عقيدة المصريين القدماء ، وهو يتضمن عددا كبيرا من النصوص المصرية القديمة التى يعدها المؤلف تعاويذ سحرية .

وقد رأينا أمثلة على سعة إدراك هذا العالم الكبير ، ومخالفته للدروب المطروقة فى فهم وتصور عقيدة المصريين القدماء، وهو فى هذا الكتاب عن السحر المصرى ، يعبر عن نفس الروح ويتبع نفس المنهج ، ويصيب الحقيقة ، إلا فى نقاط محددة سنذكرها فى حينها .

فهو فى المجرى العام للكتاب – وفى فصوله الأولى خاصة – يدلل على أن الاعتقاد فى السحر والسحرة لم يكن مقصوراً على المصريين القدماء ، ولم يخل منه أتباع عقيدة دينية قديمة أو حديثة ويضرب على ذلك أمثلة كثيرة ، سواء من أمة اليونان والرومان ، أو من الأوروبيين فى العصور الوسطى ، وحتى من الأوربيين المعاصرين حتى يومنا هذا .

وهو رغم صواب هذه النتيجة فى مجملها – يغالى فى ملاحقة هذه الفكرة – حتى يشبه معجزات الأنبياء المذكورة فى القصص الدينى للديانات السماوية الثلاث بأعمال السحر ونحن بالطبع نخالفه كل المخالفة فى هذا الاستطراد الخاطئ ، ونميز

تمييزا حاسما بين معجزات الأنبياء التى هى خوارق حقيقية ، أذن الله لكل منهم وحده بها ، دون غيره من البشر ، وفى ظروف معينة وحدود معينة ، لإقناع العامة بصواب دعوتهم وصدورها عن الخالق جل وعلا ... وبين السحر كما نفهمه من المفهوم القرآنى ، الذى يحدد معناه بقدرة بعض الناس وتجرؤهم على «إيهام» الناس بأنهم يقومون بأعمال خارقة لنواميس الطبيعة - والذى تدل عليه الآيتان الكريمتان : « ... سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم »[1] « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى »[2] ، فيحاولون إيهام الناس بأن لهم قدرات تخترق حواجز نواميس الطبيعة وتخضع المادة نفسها - لا مايخيل للناس عنها - لإرادتهم ، تلك المحاولات التى ما تكاد تصطدم بالمعجزة الحقيقية ، حتى تظهر حقيقتها الايحائية الايهامية ، كما فى قصة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون .

هذا هو على كل حال - ما نعتقد به ونؤمن ، ونحن أحرار فيما نؤمن به ، كما كان الاستاذ «بدج» حراً فيما يؤمن - أو لا يؤمن به . ولكن ما يعنينافى هذه الدراسة هو مدى صواب نظرته التاريخية إلى درجة وكثافة اعتقاد المصريين القدماء فى السحر -

(١) سورة الأعراف : الآية ١١٦

(٢) سورة طه . الآية ٦٦

أو بعضهم على الأقل ، قل عددهم أو كثر – وممارستهم له فى حياتهم اليومية .

والخطأ الكبير الذى وقع فيه هو خلطه بين معنى التعويذة السحرية ، وبين معنى الدعاء . فيذكر فى معرض حديثه «الكلمات ذات القدرة» ، والتى كانت تكتب منذ أقدم العصور على الورق البردى والأحجار على السواء ، ويضرب ضمن الأمثلة عليها ما ذكرته النصوص المسجلة على الجدران الداخلية لهرم الملك «أوناس» ، من أن ذلك قد دفن معه كتاب «له قوى سحرية» ، ومثل نص آخر مذكور فيه أن ملكا آخر هو الملك «تيتا» (حوالى ٣٢٠٠ ق . م» قد آصطحب معه كتابا «له تأثير على قلوب الأرباب» .. ثم يقول تعليقا على هذا النص الأخير :

« .. ولا شك فى أن الغرض من كل نص دينى سواء كان مكتوبا على (جدار) مقبرة ، أو على لوح ، أو على حجاب ، أو تابوت ، أو ورقة بردى الخ .. هو إخضاع الأرباب لسلطان المتوفى ، لإجبارهم على الخضوع لإرادته» .

ولا أدرى من أين جاء الأستاذ بدج بهذا اليقين الذى «لاشك فيه» ، بأن المقصود هو «إخضاع» ، و «إجبار» الأرباب إلخ .. مع أن النص الذى يستند إليه يتحدث عن «التأثير على قلوب الأرباب» ،

وهو ما يفهم فيه معنى الرجاء والتوسل والضراعة ، لامعنى التسلط والإجبار ، الذى يتناقض مع طبيعة العلاقة بين الانسان وبين الأرباب فى عقيدة من يؤمن بها ، وهى أنها كائنات فى منزلة وسط بين الانسان وبين الله ، وأنها بذلك هى التى لها على الانسان اليد العليا ، والقدرة على الاخضاع ، والاجبار ، وليس العكس . تلك العلاقة التى شرحها الأستاذ «بدج» نفسه بوضوح كبير فى كتابه السابق الذكر «الديانة المصرية» .

وقد أوقع هذا الخلط الأستاذ «بدج» فى خطأ أكبر ، حين رأى من بين النصوص المصرية القديمة عبارات تتكرر بنصها الحرفى فى مواضع كثيرة ، وفى عصور كثيرة ، وبصحبة أشخاص مختلفين دفنت معهم أو سجلت على توابيتهم أو جدران قبورهم ، فاستنتج أن هذه النصوص - بحكم كونها لا تذكر إلا بحروفها دون تغيير ، هى نصوص سحرية تستمد قوتها السحرية من نطقها بنصوصها - أو بمعنى آخر أن تأثيرها متوقف بدرجة أو بأخرى على قيمتها الصوتية أو على قيمة صورتها المكتوبة لأعلى معانيها فحسب .

وهو يرجع هذه الظاهرة إلى أن الكلمة المكتوبة كان لها منذ أقدم العصور قداسة عند «الشرقيين» ، ولذلك فإنهم كانوا

- ولا يزالون حتى يومنا هذا - يحملون أو يرتدون أشياء مكتوبا عليها «كتابات مقدسة»، بناء على نفس الأفكار والمعتقدات عن قدرة هذه الكتابات على حمايتهم ، والتى كان يعتقدها أسلافهم القدماء .

ثم يضرب المثل على ذلك بنظرة المصريين المعاصرين إلى القرآن الكريم ، نفس النظرة التى كان أسلافهم ينظرون بها إلى «كتاب الموتى» ، ويؤكد هذه النظرية بوجود صورتين من صور الفصل ٦٤ مما يسمى بكتاب الموتى : إحداهما مطولة ، والثانية قصيرة مختصرة ، ويستنتج أن السبب فى ذلك هو أن الغرض من وجود الصورة المختصرة هو أنها تعتبر تلخيصا للكتاب كله ، بحيث تكون لقراءتها نفس «التأثير» الذى تنتجه قراءة الكتاب كله ، وخصوصا أن هذا الفصل المختصر اسمه [فصل معرفة فصول القدوم نهاراً (١) فى فصل واحد] ، ثم يستخرج من هذه النتيجة - مرة أخرى - مشابهة ما بين استخدام هذا الفصل عند المصريين القدماء ، وبين الأهمية التى ينسبها «العرب» [يعنى : المسلمين] للفاتحة ، والسورة التى تتحدث عن وحدانية الله (يعنى : «قل هو

(١) اسم : «القدوم نهاراً» هو العنوان الذى يعتبره دارسو التاريخ المصرى القديم أكثر صوابا من اسم «كتاب الموتى» الذى ليس له أصل فى النصوص المصرية وإنما أطلقه المحدثون على مجموعة النصوص المصرية التى اعتبروها نصوصا «جنائزية» وشاع استعماله حتى غلب على الأسم الأصلى .

الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »)
بالمقارنة إلى سور القرآن الكريم !

ونحن بالطبع نرفض من حيث المبدأ تشبيه أى كتاب — أو أى شئ فى الحقيقة — بكتاب الله المنزل ، كما نرفض الأسلوب الملفف الذى أدخل به الأستاذ بدج — عامداً أو غير عامد — آيات القرآن الكريم وسوره فى عداد التعاويذ السحرية ولكننا لن نتوقف عند هذه النقطة ، وإنما نتجاوزها إلى جوهر الموضوع الذى نحن بصدده ، أى إلى المقارنة التى عقدها الأستاذ بدج بين «اعتقاد» المصريين القدماء فى كتابهم وفى اهتمامهم بفصل أو فصول خاصة منه بالذات ، وبين «اعتقاد» المسلمين المعاصرين فى كتابهم ، ثم فى أهمية سورة معينة منه بالذات ، بالمقارنة إلى السور الأخرى (وسنتجاوز هنا أيضا عن مفهوم «الأهمية» عند الأستاذ بدج) ، نتجاوز عمدا عن هذه المنعطفات الجانبية التى تخرجنا عن موضوعنا : وهو بالتحديد «مفهوم وممارسة السحر عند قدماء المصريين» ..

بل أكثر من هذا ... نحن نعتبر المقارنة التى عقدها «بدج» بين درجة وصورة اعتقاد المصريين المعاصرين صحيحة من حيث المبدأ ، ومحتملة جداً ، لأنها مبنية على مشابه حقيقية بين الجانبين

تتيح لنا – إذا فهمنا علاقة أحد الجانبين بمعتقداته – أن نفهم إلى حد كبير علاقة الآخر بمعتقداته :

– فالمصريون القدماء كانوا – كما ذكر الأستاذ بدج – شرقيين يقيمون «للكلمة المكتوبة» وزناً كبيراً ، لا بمعناها الاجمالى فقط ، بل بنصها وحرفيتها ، مثلهم مثل المسلمين المعاصرين أو «العرب».

– والقدماء كان بين أيديهم كتاب ما ، أو مجموعة من النصوص الدينية ، لها فى نفوسهم مكانة خاصة ، تماماً كما أن للمعاصرين كتاباً له مكانة خاصة .

– والقدماء كان الكتاب أو مجموع النصوص التى بين أيديهم ، مكتوبة أصلا ومن أول يوم كتبت فيه بلغتهم التى يفهمونها – وعلى الأرجح بأرقى أسلوب من أساليب البيان فى هذه اللغة ، مثلهم فى ذلك مثل المعاصرين .

– والقدماء كان محور عقيدتهم – أو على الأقل الجانب الرصين من عقيدتهم هو التوحيد كما رأينا ، التوحيد المطلق ، تماما مثل أحفادهم المعاصرين ... – والقدماء – فوق هذا وقبل هذا – كانت لهم عقول مدركة مميزة كما أن لنا عقولاً مدركة تستطيع أن تميز الصواب من الخطأ ، وأن تتجنب – على الأقل – الاعتقاد فى الشئ ونقيضه فى آن واحد .

وهذه المشابهة تكفى فى رأينا لأن تتيح لنا أن نتوقع أن علاقة القدماء بنصوصهم المقدسة ، تشبه إلى حد كبير علاقة المعاصرين بنصوصهم المقدسة - إذا جاز التعبير .

ومن الواضح أننا حتى هذه النقطة متفقون مع الآراء التى عبر عنها الأستاذ بدج اتفاقا كاملاً - أو يكاد .

بقيت خطوة واحدة : هى أن نفهم ونحدد علاقة المعاصرين بنصوصهم ، وتعاملهم معها ، وعلاقة هذا التعامل بممارسة السحر ، بهدف أن نستخدم هذا الفهم وهذا التحديد بالنسبة إلى المصريين المعاصرين ، فى التوصل إلى صورة صحيحة أو قريبة من الصحة عن الجانب المناظر لذلك عند المصريين القدماء .

واعتبارا من هذه النقطة نفترق نحن والأستاذ بدج ، ويختلف رأينا وفهمنا ومعلوماتنا عن رأيه وفهمه ومعلوماته اختلافا مابين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، والسماء والأرض . وعلينا أن نطلب - آسفين - منه ومن آرائه ، أن تتنحى عن الطريق لتتيح السبيل للفهم الصحيح لهذه العلاقة بالنسبة إلى المصريين المعاصرين ، والذى نزعم أننا أقدر منه - بكثير على إدراكه والإبانة عنه ..

فنحن - مثلا - نعلم يقيناً أن المصريين المعاصرين لا

يقرأون آيات القرآن - أو حتى الأدعية المأثورة - من باب ممارسة السحر ، بل من باب التقرب إلى «الذات العليا» وهى عندنا الله سبحانه وتعالى أو الاحتماء بها ... فإذا صحت المقارنة ، فقد كان المصريون القدماء يقرأون نصوصهم لنفس الغرض ، ونعلم أيضا أن كثرة استخدام سورة أو سور معينة ، لا تعنى تفضيل شئ من القرآن على شئ وتلخيصه كله فى سورة أو سورتين ، وأن «الفاتحة» مثلاً - لاتغنى عن بقية القرآن ، وإنما «تفتتح» بها القراءة والصلاة وهى بهذه الصفة تكون أول ما يحفظ وأول ما يذكر من القرآن .

ونعلم يقينا أن من يستخدم الآيات فى صورتها المكتوبة : مثل أن يكتبها على جدار منزله ، أو على خاتمه أو حاشية ثوبه ، أو يعلقها فى صدره ، أو حتى يكتبها على قبة ضريحه أو على شاهد قبره ، لا يفعل ذلك من باب «إجبار أو إخضاع» الآلهة ، أو قوى الطبيعة لإرادته ، أو اعتقاداً بأن لهذه النصوص فى ذاتها قوى سحرية أكيدة المفعول مضمونة الأثر عند «الأرباب» .

ونعلم فوق هذا أن من يقرأ أو يكتب آيات من القرآن الكريم ويعرف معناها بأى درجة من المعرفة ، يدين السحر ويكرهه ويعتبره ضربا من الكفر (أى مناقضا لجوهر معنى التوحيد) ، من يمارسه خارج على العقيدة الدينية عدو لها - إلا قلة من السفلة الذين لا يبالون بجوهر الدين أو يجهلون حقيقته جهلاً مطبقاً .

بل ونعلم أيضا أن العالمين بحقيقة العقيدة لا يعترفون بوجود السحر أصلا بمعناه الذى يستخدمه الأستاذ بدج (أى قدرة بعض الناس على خرق قوانين الطبيعة) وإنما يفهمونه بالمفهوم القرآنى الذى ذكرناه ، وهو أنه نوع من الإيهام والتخييل والايحاء وتسليط إرادة شخص على حواس وعقل وإحساس شخص أو أشخاص آخرين ، لا على المادة نفسها أو على القوانين الطبيعية التى تنظم وجودها وحركتها .

ويمعنى آخر : أن الأستاذ بدج ، بمعرفته القاصرة بالضرورة بالعقيدة الاسلامية وحقيقة ممارسة المسلمين المعاصرين قصورا نعتقد أنه ليس له ذنب شخصى فيه ، ثم بإسقاطاته لهذه المعرفة القاصرة على تصوره لعلاقة المصريين القدماء بالسحر وممارسته ، قد أدخل فى باب التعاويذ والممارسات السحرية ، كل النصوص الدالة على جلال الله (أو : الذات العليا) ، وكل الأدعية المأثورة التى كانت عندهم ، وكل العبارات البليغة التى تتناقلها الأجيال فى المعانى الدينية ، وكل ما يتضرع به الانسان إلى الله – أو إلى أرباب يجعلها بينه وبين الله «لتقربه إلى الله زلفى» على حد التعبير القرآنى ... وضع كل هذه التنويعات فى سلة واحدة ، وكتب عليها «تعاويذ سحرية» فوقع فى نفس الخطأ الذى عاب على غيره

الوقوع فيه في مسألة تعدد الآلهة (أنظر ص ١٦٤) ، وتابعه في ذلك كل دارسى التاريخ المصرى القديم فى دراستهم للنصوص المصرية القديمة ، سواء النصوص الكثيرة التى يتضمنها ما يسمى «كتاب الموتى» بصورة المختلفة ، أو النصوص المسجلة على جدران الأهرام ، أو على جدران المقابر ، أو على التوابيت ... يسمونها كلها تعاويذ سحرية (Spells) دون تمييز ، وبذلك يكون هو وغيره ممن هم أقل منه فهما وإدراكاً ، قد وضعوا فى القاموس الخاص للمصريات كلمتين مضللتين جداً مثل جميع كلمات ذلك القاموس ، هما كلمتا «الآلهة» ، و«التعاويذ» ..

ولا يعنى هذا أننى أزعم جزافاً أن المصريين لم يعرفوا السحر ولم يمارسوه – على الأقل بعضا منهم . أو أن النصوص المصرية التى عثر عليها تخلو تماماً من وجود تعاويذ سحرية تنطبق عليها هذه التسمية إنطباقاً صحيحاً ، وإنما أقول إن الصورة الشائعة عن حجم هذه النصوص السحرية حقاً ، وعن كثافة الممارسة لأعمال السحر فعلا ، لم تكن لتزيد عندهم بحال من الأحوال عن نظائرها فى أية أمة أخرى من الأمم المعروفة ، خاصة إذا كانت أمة كاتبة مفكرة معبرة ، قديمة قدم السبق لاقدم البدائية ، لديها من الفكر والفهم لطبيعة الكون ما يجعلها تقيم عقيدتها على

محور رئيسى من التوحيد ، وتعرف وتسجل من صفات الله الواحد ما عددناه من الصفات فيما تقدم (انظر ص ١٥٦) ، وأن استخدام السحر والاعتقاد فيه عندهم ، كان شيئاً «موازياً» ، أو ربما «مناقضاً» للعقيدة الدينية الرصينة – لاجزءاً منها ، فضلاً عن أن يكون دعامة من دعاماتها [١] .

بل لا يعنيني أصلا – أو على وجه الدقة لا يعنى هذه الدراسة – أن نحدد بالضبط مدى صواب عقيدة المصريين القدماء، وهل كانوا مؤمنين أم مشركين أم بين بين ، وهل كان منهم من يعتقد فى السحر ويمارسه أم لا ، وكم ؟ وإنما يعنيني ويعنى هذه الدراسة أن الصورة التى تصور بها كتابات علم التاريخ المصرى الأمة المصرية القديمة ، باعتبارها أمة مشغولة بالغيبيات : بجانبيها من العقيدة الرصينة والخرافة الفاسدة ، انشغالا يفوق انشغال كل أمم

---

(١) يورد سير واليس بدج – فى معرض حديثه عن غلبة السحر على معتقدات المصريين القدماء – مثالاً عن قضة وردت فى بردية من عهد الأسرة ١٨ ، عن محاكمة رجل كان يمارس أعمال السحر لإيذاء الاشخاص ، مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن السحر كان يعتبر – فى بعض الأحيان على الأقل – عملاً منافيا للعقيدة ، لاجزءاً منها ، فضلا عن أن يكون أصلا من أصولها . راجع . بدج. كتاب الموتى – مصدر سابق الجزء الأول ص ١٢٦ من المقدمة .

E.A.W. Budge, the Book of Dead, vol .I, p IxxvI (Intnoduction)

الأرض الأخرى المعروفة أضعافاً مضاعفة ، ويجعل المعتقد الغيبى والممارسة الغيبية المترتبة عليه هى الأولوية رقم ١ ، التى تسقط بالمقارنة إليها كل الأولويات الأخرى ... و ... و ...

أن هذه الصورة ... باطلة لا أساس لها

بقيت نقطة من هذه المسألة تستدعينا أن نرجع إلى التسلسل «المنطقى» الذى يتصاعد فى ٦ خطوات ذكرناها فى ص١٤٢ : ابتداء من إيمان الفرد المصرى بآلهة لا تحصى .. وانتهاء إلى حتمية أو إمكانية قيام الأمة بسبب هذا الإيمان بأعمال يستحيل أن تقبل أمة أخرى أن تقوم بها .

وأعتقد أنه – بعد هذه المناقشة للصورة المبنى عليها هذا التسلسل قد سقطت من تلقاء ذاتها . وبقيت لدينا النقطة الأخيرة وحدها مازالت تحتاج إلى شىء من النظر ، وهى تتمثل فى السؤال الآتى : –

هل : حتى لو افترضنا أن الأفراد فى أمة ما – كانوا فى فترة تاريخية معينة – على اعتقاد دينى معين ، يستدعيهم أن تخرج الأمة كلها أو معظمها لتقوم بعمل تاريخى عظيم هائل ، لكنه عديم الجدوى بالنسبة لمصلحة الأمة ... هل تخرج الأمـــة لتفعل ذلك ؟! .. أم تُعدل – مثلا – معتقدها الدينى ذاك ، أو تتجاهله أو

تتساهل فى تنفيذه ، أو تحجّم «العمل المذكور لئلا يخرجها خروجاً كبيراً عن مصلحتها المادية الجسيمة ؟!

نختار للاجابة عن هذا السؤال مثالين تاريخيين شهيرين يلقيان كثيراً من الضوء على جوانب هذه القضية ، عن موقفين واجهتهما أمتان قديمتان إحداهما الأمة المصرية نفسها ، وكان على كل أمة منهما - أو على الأقل أصحاب القرار النافذ فيها - أن يختاروا بين مصلحة الأمة وبين التمسك بالعقيدة التقليدية ومستلزماتها.

فلننظر كيف كان تصرف كل منهما :

١ - قصة رؤيا ملك مصر المعاصر ليوسف الصديق عليه السلام :

تسجل هذه القصة - كما هو معروف (١) - أن الملك رأى فى المنام رؤيا ، اعتقد أن فيها نذيرا بشىء خطير ، فطلب من يعبّر (أى : يفسر) له هذه الرؤيا تعبيراً صحيحاً مقنعاً ، فلم يجد . ثم أنبأه رجل من أتباعه أن هناك سجينا اسمه يوسف ، لديه قدرة مجربة على تأويل الأحاديث (أى تفسير الأحلام) تأويلا صحيحا صريحاً ، سواء كانت الرؤيا لصاحبها بشارة بخير يصيبه ، أو

(١) راجع «سورة يوسف» فى القرآن الكريم

نذيراًبشر كبير يدهمه . اذ كان هذا الرجل نفسه سجينا مع يوسف ورأى رؤيا فسرها له يوسف بأنها بشرى بخير يأتيه ، ورأى زميل لهما ثالث «رؤيا أخرى ، فسرها له بأنها نذير بأنه سوف يعدم . وتحقق التفسيران – أو النبوءتان – حرفيا ، فأعدم هذا ، وأفرج عن ذاك ليكون ساقيا للملك .

وكان هذا الرجل يعرف عن يوسف – فضلا عن كونه قادراً على التأويل الصحيح للأحلام – أنه مخالف للديانة المعمول بها في ذلك العصر ، وداعية إلى تصحيحها وتخليصها من كل وجه من وجوه الشرك ، فقد كان يوسف عليه السلام قد حدثه بذلك وهما فى السجن ، ولا ندرى بالضبط هل كان ذلك الرجل مؤمنا بدعوة يوسف ونبوته أم لا ، والأرجح أنه لم يكن ، وإلا لما نسى ما طلبه منه يوسف وهما فى السجن حين قال له : «اذكرنى عند ربك» (أى : عند سيدك الملك) .

وأرسل الملك ذلك الرجل إلى يوسف فى السجن ليسأله عن تفسير هذه الرؤيا ، ففسرها له : بأن البلاد ستأتى عليها سبع سنوات من الرخاء والوفرة ، تليها سبع سنوات من القحط ، ثم تنفرج الأزمة . ولم يقتصر النبى على هذا التفسير أو على هذه النبوءة ، بل اقترح على الملك خطة عملية لمواجهة هذه الكارثة

وتجنب أضرارها أو التخفيف منها على الأقل ، بتخزين كل فائض عن الاستهلاك الحدّى فى سنوات الرخاء ، لاستخدامه بحرص وتقتير خلال سنوات القحط ، وحتى تمر الأزمة على خير .

ويهمنا اعتباراً من هنا موقف الملك نفسه – صاحب القرار – المسئول عن مصلحة الجماعة التى هو على رأسها . ملك وجد نفسه مواجها بكلام هذا الرجل (يوسف عليه السلام) الذى نعرف نحن بما أخبرنا به الله أنه كان نبياً ، ولكن الملك لم يكن يعرف – على الأقل حتى ذلك الحين – إلا أنه مخالف له فى العقيدة ، داع إلى تغييرها أو تعديلها . وهذا الرجل نفسه يفسر له رؤياه تفسيراً ظاهر الحكمة ، وينذره بناء على ذلك بخطر كبير ، ثم يقترح عليه – فوق ذلك – حلاً عملياً حكيما أيضا يخرجه – هو والأمة كلها – من هذا المأزق المقبل .

وهو ليس متأكد تماماً من صحة هذه النبوءة ، فقد جاءته من رجل مخالف له فى العقيدة داع إلى تغييرها ، ولكن ظاهر الأمر – من وجهة نظر الملك – أن الرجل حكيم صادق مخلص موقن يقيناً تاماً بما يتحدث به ويدعو إليه ، فإذا ضرب بهذه النبوءة عرض الحائط ، ثم وقعت الفأس فى الرأس فتحققت ، فتكون مصيبة داهمة على الملك وعلى قومه جميعاً ، ومن ناحية أخرى ، فإنه لو

اتخذ الاجراءات التى أشار عليه بها ولم تتحقق النبوءة - فرضا - لما كانت هناك خسارة كبيرة ، سوى بعض تكاليف محدودة ، لا تقارن بالكارثة التى كانت ستحل لو تحققت النبوءة . هذا ما نرجح أنه قد دار فى رأس الملك : موازنة بين البدائل والاحتمالات ، بين كفة الخسارة القريبة الزهيدة المؤكدة ، وكفة الكارثة الساحقة الماحقة المحتملة الحدوث . فكان أول رد فعل للملك هو أن برأه من التهمة الظالمة التى كان قد سجن من جرائها ، وأمر بإحضاره إليه «ليستخلصه لنفسه» ، أى - بمصطلحاتنا المعاصرة - لكى يكون له مستشاراً «يخلص» له النصيحة والمشورة .

ثم كان رد الفعل الثانى ، بعد أن قابله وكلّمه ، أن جعله - بناء على طلبه - «على خزائن الأرض» ، أى مسئولا عن تخزين الأقوات وتنفيذ الخطة التموينية التى أشار عليه بها .

كل هذا فعله الملك لا اقتناعا بدعوة يوسف الدينية أو إيمانا بنبوته (وإلا لكان قد جعله لا على خزائن الأرض وحدها - بل على مساجدها ومعابدها وشئونها كلها) ، والقرآن الكريم لا ينبئنا هل آمن الملك بعد مقابلته ليوسف أم لم يؤمن ، والأرجح والذى عليه شبه إجماع من المفسرين : أنه لم يؤمن . ولكن هذا شىء ، والمصلحة المادية العظمى للجماعة ، والعمل على درء خطر عظيم محتمل (ليس

– حتى – مؤكدا من وجهة نظر الملك) ... شيء آخر لا يمكن التقاعس عنه أو التلكؤ فيه ، أو تأجيله ريثما يتم الاتفاق على المسائل الدينية أو تصفية الخلافات العقائدية أو التحرج – حتى – من أن تصديق نبوءة ذلك الرجل الذى ليس على دينه ، ثم المبادرة إلى تنفيذ مشورته ، فيها إضعاف للديانة القائمة واعتراف ضمنى بصحة – أو احتمال صحة – دعواه بأنه نبى مرسل ، وأنه على الدين الصحيح الذى ينبغى أن تقّوم الديانة القائمة طبقا له . كل هذه الاعتبارات لم تجعل الملك يمتنع أو يتردد فى اتخاذ الاجراءات الفورية لتحقيق المصلحة العليا للجماعة ، بتجنبها خطر هذه الكارثة العظمى .

وغنى عن البيان أن التجربة العملية قد أثبتت صدق «نبوءة» الصديق وفضلها فى إنقاذ الجماعة البشرية من كارثة محققة ، فكانت – فى نفس الوقت – أكبر دليل عملى يراه كل ذى عينين ، على صدق «نبوته» – عليه السلام .

وكنا قد أشرنا إلى هذه القصة فى كلامنا عن الحرج بغير داع عند بعض المسلمين المعاصرين عند مناقشة عقيدة المصريين القدماء (ص١٤٥) وأضيف هنا أن فى هذه القصة مثالاً بين الدلالة، على التلاحم التام بين صحة العقيدة من ناحية ، وبين درجة تمسك

أصحابها بها من ناحية أخرى ، وبين مطابقتها - زماناً ومكانا واتجاها - للمصلحة العليا والقرارات العظمى للجماعة البشرية ، والذى وصفته من قبل بأنه كالعلاقة بين التوأمين الملتصقين لا يمكن فصلهما ، ولا يمكن أن يتقدم أحدهما خطوة دون الآخر (راجع ص٤٣) ، بل علاقة تشبه العلاقة بين الروح والجسد للكائن الحى ، لا يمكن أن ينفصل وجود أحدهما - فى هذه الدنيا - عن وجود الآخر .

٢ - قصة بناء مدينة الأسكندرية :

يروى المؤرخ بلوتارك (٦٤ - ١٢٠م) [1] هذه القصة عن الاسكندر الأكبر ، حين كان يخطط لبناء مدينة الأسكندرية ، والتى تكونت وتكون ميناءاها الشرقى والغربى ، عن طريق ردم جزء من البحر كان يفصل بين قرية اسمها «راقودة» على الساحل ، وبين جزيرة اسمها «فاروس» قريبة من الشاطىء .

يقول إن الأسكندر أمر بتخطيط موقع المدينة استعداداً لبنائها ، برسم الخطوط المحددة لشوارعها وأقسامها على الأرض

---

(١) بلوتارك : سير عظماء الاغريق والرومان - طبعة دائرة المعارف البريطانية - طبعة ١٩٨٦ - ص ٥٥٣

Plutarch : the lives of the noble Grecians and Romans, Encyclopaedia Britanica, 1988 editon, p." 553

بالطباشير الأبيض ، لأن الأرض كانت سوداء اللون ، لكنهم لم يجدوا لديهم ما يكفى من الطباشير ، فخططوا الأرض بالدقيق الأبيض بدل الطباشير ...

وبينما كان (الأسكندر) يغبط نفسه على تصميمه للمدينة ، فوجىء بعدد هائل من الطيور الكبيرة من أنواع متعددة ، قادمة من البحيرة ومن النهر القريب (يعنى : فرع النيل الغربى) ، كأنها سحابة سوداء ، تحط على الخطوط المرسومة بالدقيق ، وتلتهمها كلها عن آخرها .

وانزعج الأسكندر نفسه من هذا الفأل السىء ، حتى أعاد إليه العرافون الطمأنينة ، بأن فسروا له تلك الحادثة بأنها علامة على أن المدينة التى كان يعتزم بناءها ، سوف لا تتمتع بالوفرة من كل شىء فى حدود نفسها فحسب ، بل سوف تحتضن كثيراً من الأمم ، وتمدها بالخيرات .

«فأمر الاسكندر العمال بأن يستمروا فى العمل ...»

ونحن – وإن كنا لا نستطيع أن نقطع بصحة هذه القصة بحذافيرها أو بحدوثها أصلا ، والتى يفترض أنها حدثت قبل أن يسجلها بلوتارك بحوالى ٤٠٠ سنة ، إلا أن مجرد ذكرها على لسان مؤرخ كبير مثل بلوتارك ، والتى نقلها عنه مؤرخون آخرون دون أن

يعترضوا عليها أو يكذبوهما ، ينبئنا عن أنها كانت على الأقل محتملة الحدوث ، متمشية مع الطبيعة العامة التى يعرفها الناس عن الملوك وعن العرافين وليس فيها ما يستدعى الاستغراب أو التكذيب .

فهذا ملك فاتح عظيم كان على ديانة قريبة من ديانة المصريين القدماء أو مستمدة أصولها منها - فهو تلميذ أرسطو الذى بدوره تلميذ أفلاطون خريج جامعة عين شمس النجيب .. كان إنشاء مدينة عظمى ذات أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة ، ثم فاجأه حادث جعله ينزعج ويتشاءم ، وتحدثه نفسه - بناء على هذا التشاؤم - بأن يوقف العمل فى المدينة أو يصرف النظر عن بنائها .

فيأتى العرافون أنفسهم - ربما نفس الأشخاص الذين علموه قواعد التفاؤل والتشاؤم ، أى ما يتفاءل به وما يتطير منه ، فيلوون دلالة هذه الحادثة ويتأولونها ، ويقنعونه بأن التهام الطيور للخطوط المحددة للمدينة - ليس معناه أن المدينة ستنهار أو تختفى أو ستكون مشروعاً فاشلا ، بل معناه أنها ستكون موئلا لكثير من الأمم تفيض عليهم منها الخيرات ويأكلون منها كما أكلت الطيور الدقيق المرسومة به الخطوط .

وما يلبث الملك ، بعد أن فتحوا له هذا الباب ، واصطنعوا له هذه التأويل ، أن يضرب صفحا عن تشاؤمه الأول ، كأنما وجد قشة

يتعلق بها ، أو حجة يتذرع بها ، لكى ينحى عن نفسه الشعور بالتشاؤم من هذه الحادثة بالذات ، لا لكى يرجع عن مبدأ التشاؤم والتفاؤل والاعتقاد فيه .

والدافع لهذا ، كما هو بيّن ، هو اقتناعه - بل واقتناع مستشاريه من العرافين أنفسهم - بأن بناء هذه المدينة سوف يكون عملا من أعمال التاريخ العظمى ، التى تتحقق عن طريقها مصلحة كبيرة لا لبُناتها وقاطنيها فقط ، بل للكثير من الأمم . وإذن فليذهب الاعتقاد فى التشاؤم والتفاؤل إلى حيث ألقت ، أو فلنتأوّله ونلويه ليّا بسيطا ، لكى لا يقف فى وجه المصلحة العليا .

فالمصلحة العليا للجماعة ، مصلحة العمران البشرى - كما ذكرنا - مثلها مثل القطار ، يسير ولا يلوى على شىء ، ويزيح فى طريقه ما يقف أمامه من عقبات .

وهذه هى طبيعة الأشياء ، وطبيعة الأعمال العظمى فى التاريخ .. مثل تجنب الكوارث العظمى ، أو إنشاء المدن العظمى .. أو بناء الأهرام العظمى !

القسم الثانى

- ملحمة بناء الأهرام

الفصل الأول : نقد نظرية القبور

ترتكز النظرية السائدة بأن الأهرام التى بناها المصريون القدماء ، إنما بنيت لكى تكون قبوراً للملوك ، على حقيقة واحدة وأوهام كثيرة .

فأما الحقيقة الواحدة : فهى أن الأهرام قد بنيت – معظمها – على الجانب الغربى من الوادى ، وأما الأوهام فهى بالآلاف .

المحتوى العام للنظرية – الذى يخرج به القارىء من كلامهم، وإن كانوا لا يقولونه بحرفيته ، يمكن أن نلخص أهم جوانبه على النحو التالى : –

١ – مادامت الأهرام فى الغرب ، والقبور فى الغرب (وادى الملوك مثلا) .. إذن فالأهرام قبور .. لا شك !

٢ – صحيح أن منف نفسها ، وهى مدينة لا قبر ، مبنية فى الغرب ، ولكن الأهرام غرب منف ، إذن فهى غرب الغرب .. إذن فهى قبور . على كل حال فالسبب فى اختيار موقع منف هو أن الملك «مينا» أراد أن يشاهد الشمس وهى تشرق على صفحة النيل وهو مطل من شرفة قصره : مسألة مزاج لا غير !

٣ – وصحيح أن بعض القبور موجودة فى شرق النيل ، مثل قبور منطقة عين شمس مثلا ، ولكن هذا ربما كان بسبب كسل بعض الناس عن عبور النيل إلى الضفة الغربية . ونحن غير مسئولين عن أخطاء الآخرين وكسلهم !

٤ – وصحيح أن بعض الأهرام نفسها بنيت فى الشرق – منها أهرام فى مصر ، وأهرام ... فى السودان . ولكن : ربما كان هذا بسبب خطأ فلكى مثلا .. جعلهم يخلطون بين الشرق والغرب ، بدليل أنهم بنوا هرماً واحداً على الأقل فى وسط النيل – لا فى الشرق ولا فى الغرب ، مما يدل على أنهم ترددوا بين الاتجاهين فاختاروا حلاً وسطا .

٥ – وصحيح أن الأهرام اختلفت مقاساتها بين كبير وصغير وعملاق ، كما اختلفت مواقعها بلا سبب معروف ... بين قريب وبعيد وواطىء وعالٍ ، ولكن هذا كله بسبب التفاوت فى درجة غرور كل ملك .. لا أقل ولا أكثر . (ما علينا من نظرية الملك المعمر والملك قصير العمر .. فنحن لا نقرها على كل حال) .

٦ – لاحظ أيضا أن الأهرام فى معظمها ، بداخلها غرف ، ونحن نصر على تسمية الغرف «غرف دفن» بالذات ، والقبور أيضا بها غرف ... إذن فالأهرام قبور .

٧ – ومادامت هذه الغرف – بعضها به صناديق حجرية ، نحب نحن العلماء أن نسميها «توابيت» ، إذن فهى قبور ! ما علينا من أنهـا لاتمت بأى شبه للتوابيت الحقيقيـة التى وجـدناها فى القبـور المؤكدة مثل وادى الملوك ، ولـكن هـذا ذنب من صنعوها لا ذنبنا نحن .

٨ – وصحيح أن كثيراً من الأهرام وجد بدون «توابيت» ، بل إن بعضها أيضا وجد مصمتا بدون «غرفة دفن» أصلاً ، ولكن هذه مسألة تافهة : ربما كانوا قد نسوا أن يقيموا تلك الغرفة الهامة ، فأضاعوا وقتهم فى بناء أهرام بلا فائدة . أو : ربما أيضا – وهو الأرجح «علميا» .. أنهم خصصوا تلك الأهرام لدفن «الكا» ؛ و«الكا» – كما تعلمون – هى مجرد روح ، أى ليس لها كيان مادى يحتاج إلى غرفة دفن أو تابوت . كل ما يلزم لدفنها هو هرم فقط .. بدون غرفة دفن .

٩ – وصحيح أن بعض الملوك بنى عدة أهرام ولم يدفن فى أى منها (الملك الذى نسميه «سنفرو» مثلا) ، ولكن هذا لأنه كان ملكا مترددا مصابا بداء الوسوسة : كلما بنى هرما خاف أن تسرق جثته منه فلم يدفن فى أى منها . ونحن غير مسئولين عن وسوسة الملوك ! انظر مثلا إلى الملك الذى نسميه «أحمس» .. لقد بنى هرماً

صغيراً ثم تركه ودفن فى وادى الملوك حيث عثرنا على جثته .. وسوسة !

١٠ – وصحيح أن «التابوت» الموجود فى الهرم المدرج – مثلا – لا يتسع لجثة إنسان كامل النمو ، ولكن : ربما فصلوا التابوت الحجرى على مقاس الملك وهى صبى صغير ، ثم نسوا أن يوسعوه بعد أن اكتمل نموه ! وهذه من الأخطاء الشائعة عند النجارين والحجارين ، وخاصة إذا كانوا مصريين جهلة .

١١ – ومن المهم أن نضيف أن الجدران الداخلية للأهرام – بعض الأهرام على الأقل – عليها رسوم وصور .. كما أن جدران القبور عليها رسوم وصور . صحيح أن صور تلك الأهرام القليلة كلها صور دنيوية ليس بينها رسم أخروى واحد يشبه الرسوم الموجودة فى القبور«الأخرى» ، ولكن هذا سببه معروف ، فبناة الأهرام بالذات ، كانوا يريدون أن يبعثوا لكى يعيشوا نفس المتع التى عاشوها فى حياتهم الأرضية ، فاختصروا الطريق وصوروا أنفسهم وهم يمارسون هذه المتع . مسألة مفهومة جدا كما ترون .

١٢ – ولا يفوتنا أن نذكر نصوص الأهرام : صحيح أنها – بالصورة المكتوبة بها – لا علاقة لها بالدفن والأخرة .. الخ ، ولكننها إذا أضفنا إليها كلمة هنا وكلمة هناك تصبح نصوصا قبورية بلا

جدال ، الأمانة العلمية تقتضينا أن نصحح ونكمل أى نقص «نسى» الكاتب القديم أن يكتبه بها – مجرد كلمة أو كلمتين كل بضعة سطور – أليس كذلك .

١٣ – لا تسألنى أين ذهبت الجثث ، فمن المؤكد أنه كانت هنـاك جثث ، وكذلك كان هنـاك أثاث جنائزى في كل هرم ما عدا أهرام « الـكا » بالطبع ، ولـكن اللصوص سرقوا الجثث ، بدليل أنهم سرقوا الأثاث الجنائزى أيضا ، فلم نعثر منه على أى «نتفة» . ونحن نقطــع بأن ذلك الأثاث الجنــائزى – الذى لم نره قط – كان عبـارة عن كنــوز عظيمة القيمة المادية لا تقل عن كنوز الملك الفقير نسبياً المسمى «توت عنخ آمون » وما داموا قد سرقوا الأثاث فلا بد أنهم سرقوا الجثث أيضا . ما علينا من أن الجثث نفسها ليست لهــا فائدة لأى لص – خاصة أنها كانت بغير حلىّ .. حيث لم تكن عادة تزويد الجثث بحلىّ ومصاغ قد بدأت عند بناء الأهرام – ولــكن هــذا يحتاج لدراسة نفسية خاصــة لعقلــية اللصوص ، مما يخرج بنا عن موضوع أختصاصنا فى الآثار والتاريخ القديم .

١٤ – ثم .. من قال إننا لم نعثر على جثة ملكية واحدة فى هرم واحد ؟! لقد عثرنا على جثة .. نعم ! فى الهرم الذى نسميه هرم «منقرع» وحملناها فى سفينة إلى أوروبا . ولكن السفينة غرقت

قبل أن نكمل فحص الجثة لنحدد تاريخها (يا للخسارة !) والمسئول الوحيد عن ذلك هو ربان المركب وشركة التأمين ، ومع ذلك فنحن متأكدون ١٠٠٪ أننا لو كنا فحصنا تلك الجثة لوجدناها لإنسان من عصر بناءِ الأهرام .. أليس هذا وحده دليلا قاطعا ؟!

١٥ - لا أهمية إطلاقا لحقيقة أن الجزء الوحيد من جسد إنساني ، الذى بقى لنا بعد أن اكتشفناه داخل هرم ... [1] ، قد تبين بالفحص الإشعاعى أنه لإنسان من العصر المسيحى ، فالمهم لدينا هو أنه انسان بغض النظر عن ديانته أو العصر الذى عاش فيه ، فنحن لا نحاسب الناس على ديانتهم أو العصور التى عاشوا فيها ، كما أنه ليس هناك أى ارتباط بين العصر الذى دفنت فيه هذه الجثة ، وبين عصر الجثة التى غرقت فى البحر ، والتى لا نشك لحظة واحدة فى أننا لو كنا قد فحصناها لوجدناها - بالطبع - من عصر بناء الأهرام ، لا من العصر المسيحى .

١٦ - وصحيح أن الهرم الوحيد الذى عثر عليه «بكْراً» لم يفُتح إلا فى العصر الحديث .. لم توجد به جثة ، ذلك الهرم التافه

---

(١) هكذا كتب المؤلف رحمه الله ولم يذكر ، هرم من ، ولعله كان ينوى العودة إلى النص لإكماله ولكن القدر لم يمهله (المحرر) .

الفارغ الذى أكتشفه (المدعو) «زكريا غنيم» (١) بعد أن طُردنا من مصر ، ولكن ماذنبنا إذا كان الكهنة بمجرد أن وضعوا جثة الملك فى الصندوق المرمرى .. عادوا وسحبوها ، وأغلقوا الصندوق بالجص والغراء لكى لا يكتشف أحد جريمتهم ، بل لقد سرقوا أيضا الأثاث الجنائزى؛ حيث لم يعثر على أى قطعةمنه فى العصر الحديث .

ربما لم يدفع لهم ابن الملك المتوفى أجرا كافيا .. فعاقبوه بسرقة جثة أبيه وأثاثه الجنائزى !

١٧ - ثم لا تنسى شهادات المؤرخين .. هيرودوت مثلا ! صحيح أنه لم يذكر فى كتابه عن مصر كلمة «قبر» أو «دفن» عند وصفه للأهرام ، ولكننا نمر بهذه المسألة مر الكرام ولا نذكرها أبداً ، لأن مثل هذا السهو مألوف عند العباقرة من أمثال ذلك المؤرخ اليونانى العظيم ، والعبقرية - كما تعلمون - تغفر لأصحابها أى سهو أو خطأ . وسوف نذكر نحن هذه الكلمات مئات المرات نيابة عنه - لكى نعوض هذا النقص التافه .

١٨ - ليس من المهم اطـــلاقاً أن ١٧ مؤرخا عربيـــا ذكروا

---

(١) لاحظ أن المؤلف رحمه الله كتب هذا الجزء بأسلوب التهكم على المؤرخين الأوروبيين ، بما فى ذلك وضع كلام على ألسنتهم ، ولكن التقدير العظيم الذى يكنه المؤلف للمرحوم الدكتور «زكريا غنيم» يكشف عنه أنه قد أهدى إليه هذا الكتاب (المحرر) .

الأهرام ، ولم يشيروا إلى وجود جثة فى أى منها ، بل أدعوا أن المأمون لم يجد إلا كنزاً من المال فى «تابوت» الهرم الأكبر فإن هذا بسبب جشع العرب ونهمهم ، حيث لم يذكروا إلا المال ونسوا ذكر الجثة ! وعلى أى حال ، فهناك مؤرخ عربى وحيد ذكر أن المأمون كان قد وجد جثة بالهرم الأكبر .

ما علينا من أن ذلك المؤرخ كذاب ، اشتهر عند قومه باختلاق القصص الخيالية ، ولكن هذه مسألة عائلية بين العرب ، ونحن لا نتدخل فى المسائل العائلية !

١٩ - وصحيح أن ذلك المؤرخ القيسى الذى يرميه أهله ومعاصروه بالكذب ، قد ذكر أيضا أنه شاهد بعينى رأسه عشرات الجثث فى أربع حجرات متقابلة داخل الهرم الأكبر ، ولأن هذا كذب صريح كماهو واضح ، فإننا لا نذكر هذه الحكاية قط عند ذكرنا «للقيسى» - حتى لا نشوه سمعته ، كما أننا - كعلماء منهجيين - مهمتنا أن نستخلص الحقيقة الواحدة من وسط ألف كذبة .

٢٠ - وصحيح أن جميع الأهرام - حاليا - «مقطوشة» من أعلاها ، تخلو من تلك القمم الحجرية الضخمة التى نحن متأكدون من أنها كانت تتوج رؤوسها ، لكى تستقبل شعاع الشمس كما

أفتى عالمنا العظيم ... [1] ولكن ضياع هذه القمم سببه معروف ، وربما صعد بعض اللصوص إلى قمم الأهرام بوسيلة ما - مثل الطائرات الورقية الكبيرة مثلا ؟ - وسرقوا تلك القمم وأخفوها عن العيون واحدة واحدة من كل هرم .

أو ربما أطاح بها المماليك بوسيلة ما لا نعرفها .

ما علينا من شهادات المؤرخين العرب والمصريين الذين ذكروا أنهم رأوا الأهرام بلا قمم قبل عصر المماليك ، فالعرب كلهم كذابون على كل حال ، ما عدا « القيسي » طبعاً !

٢١ - ولا تنسوا أننا عثرنا بالفعل على كتلة جرانيتية على شكل هرم صغير ملقاة بجانب هرم ... [2] وقد قررنا أنها كانت قمة لهرم ما ، صحيح مقاساتها لا تطابق مقاييس أو زوايا أي هرم من المائة المعروفة ، ولكن بناة الأهرام طبعا كانوا قوما بدائيين ، لا يستبعد عليهم أن يخطئوا في حساب الزوايا والارتفاعات الخ .. ، فكلنا نعلم أن الأهرام بنيت قبل أن يولد «إقليدس» و « فيثاغورس» بآلاف السنين ، أي قبل أن يعرف الناس - كل الناس - العلاقات الهندسية الرائعة التي «اكتشفها» هذان العبقريان اليونانيان .

(١) هكذا بياض في الأصل ، هي وموضع قادم في الفقرة ٢١ ، راجع حاشية سابقة لنا (المحرر) .
(٢) أنظر التعليق السابق (المحرر) .

٢٢ – ولكى نكمل هذه الصورة القبورية الواضحة المؤكدة .. لا بأس من أن نذكر أهرام السودان ، فهى كلهـــا .. عن بكرة أبيها .. قبور بلا جدال !

صحيح أنها كلها مصمتة ليس فيها تجاويف تصلح لأن نسميها غرف دفن ، وبالتالى لم يدفن فيها أحد ..

وصحيح أن جميع القبور الملكية التى عثرنا عليها بمناطق الأهرام السودانية كانت تحت سفوح الأهرام لا بداخلها ، ولكن العيب فى الجماعة السودانيين أنفسهم : لأنهم عندما اقتبسوا كل معتقدات المصريين وعاداتهم – حرفيا – خالفوهم فى هذه العادة بالذات .

ربما بسبب الحر الشديد فى السودان ، أو بسبب تخلف الأجناس السوداء . وليس أدلّ على غبائهم من أنهم أقاموا أهراماً بلا فائدة ، ثم دفنوا ملوكها خارجها .. غريبة !!

. (Funny, isnt it ?!)

وهكذا .. وهكذا .. وهكذا ..

يستمر هذا المنطق الزئبقى المقلوب إلى مالا نهاية ، لا مُجْتَمِعاً كما لخصت لك جانبا منه ، بل متفرقاً فى مئات المواضع

فى عشرات الكتب . كل موضع له حجته الخاصة وعذره الواهى ، يمر القارئ على كل واحد منها وكأنه إستثناء وحيد لا أهمية له .

ولكننا اذا تتبعنا هذه الاستثناءات وجمعناها كما رأيت ، وجدنا أن الاستثناء هو القاعدة الوحيدة المطلقة ، وأنه لا يوجد دليل واحد ، أو شبه دليل ، أو شبهة معقولة ، على صدق نظرية القبور .. اللهم إلا ترديد أصحابها للكلمات القبورية بمناسبة وغير مناسبة ، ليوهموا القارئ بأن هناك نظرية حقا ، ونظرية «علمية» بالذات .. تقطع بقبورية الأهرام !

منطق لا أجد ما أشبهه به ، إلا تلك الفكاهة الانجليزية التى تقول على لسان أحد «الأذكياء» :

«– كل قطة لها أربعة أرجل .

– وبما أن الكلاب أيضا .. لها أربعة أرجل :

– أذن .. فإن كلبى «ركس» بالذات ، هو فى الواقع .. وبكل تأكيد .. قطة !!»

● ● ●

بعد هذا الفصل الساخر ، أورد المؤلف فى أوراق أخرى الملحوظات الآتية (المحرر) :

١ - أقوال المؤرخين اليونانيين :

أهم مافيها أن هيرودوت لم يذكر أصلا كلمة «قبر» أو «دفن» ، وأنما ذكر أن خوفو بنى هرمه خمس غرف «لاستعماله الشخصى» . ثم روى أن هناك مقولة بأن هناك بركة تحت الهرم فيها جزيرة عائمة بها تابوت خوفو (وواضح أنها أسطورة خرافية) .

٢ - أقوال المؤرخين العرب :

أهم مرجع هو المقريزى . وهو نفسه الذى استشهد به «لويه» [١] إلا أنه ذكر من شيوخ المقريزى واحداً فقط وهو القيسى

وذكر من شهادة القيسى نصفها فقط الذى زعم فيه أن المأمون وجد جثة وتجاهل لويه النصف الثانى الذى ذكر فيه القيسى أنه رأى بعينيه أربع غرف متقابلة مليئة بالجثث

وهذا النصف الأخير هو الذى يقطع بكذب القيسى من ناحية ويقطع بسوءنية لويه من ناحية أخرى

٣ - الجثث

مفروض أن يعمل جرد بالجثث أو أشباهها التى وجدت بالأهرام والذى سجل وجوده هو ما يلى :

---

(١) المؤرخ الفرنسى جان فيليب لويه فى كتابه «مشكلة أهرام مصر»
Le problemve de pyramides D' Egypte

أ – تابوت فى هرم سقارة لا يتسع لرجل بالغ

ب – جثة طفل تحت هرم سقارة

جـ – تابوت مزعوم به جثة وجد فى هرم منقرع وغرقت به المركب وهو مسافر إلى أوروبا فلا نعرف عنه شيئا مؤكدا لأنه لم تفحص الجثة في العصر الحديث .

د – ساق بشرية محنطة وجدت فى أحد الأهرامات وعند فحصها بالأشعاع الكربونى فى العصر الحديث ظهر أنها لرجل من العصر المسيحى .

نستنتج أن الأهرام اذا كانت قد استعمل بعضها للدفن يكون ذلك فى العصر المسيحى فقط ربما هربا من طغيان الرومان.

الفصل الثانى : برنامج ملحمة بناء الأهرام

مقدمة لا مفر منها :

لم يتسع الوقت للمؤلف رحمه الله ، للكتابة المفصلة عن غرضه الأصلى من تأليف هذا الكتاب ، وهو «ملحمة بناء الأهرام» ، ولكنه ترك ما يسمى برنامجا لما كان ينوى أن يكتبه ، ومن بعض عناصر هذا البرنامج وحديثه معى عن هذا الموضوع أحاول فى هذه السطور أن ألخص قدر المستطاع تصوره للسبب الأصلى لبناء الأهرام .

الفكرة التى انتهى إليها المؤلف هى أن الأهرام قد بنيت لتكون حصوناً للدفاع عن غرب النيل ، وعن مدينة منف بالذات ، فى حديثه عن المدن المصرية فى الفصول الأولى من هذا الكتاب ، ترك تفصيل الحديث عن منف ، لأنه كان ينوى أن يكون ذلك جزءا من وصفه لملحمة بناء الأهرام ، ولكن الأجل لم يمهله كما تقدم .

كان اللجوء إلى بناء الأهرام ، على الضفة الغربية للنيل بديلا عن الجبال التى تقوم على الضفة الشرقية وحدها ، لصد

غارات البدو على الـوادى المـزروع والمدينـة المعاصرة التى تقـوم عليه .

وألفت نظر القارئ إلى عبارة قرأها المؤلف ، سوف يأتى ذكرها فى «البرنامج» الذى تركه لملحمة بناء الأهرام ، وجدها فى أحد كتب أحمد كمال باشا فيها أن «بفنخى» فتح منف من جهة النيل متحاشيا «الطابية الكبيرة» التى كان يتحصن فيها الجيش المدافع عن منف ..

ويبدو أن المؤلف قد استوحى فكرة أن الأهرام قد بنيت لتكون حصونا لا مقابر من هذه العبارة بالذات ، وخاصة عبارة «الطابية الكبيرة».

بدأت الملحمة ببناء «المصاطب» ، التى يعتبرها «القبوريون» – على حد تعبير المؤلف – أول طراز من «المقابر» ، التى تطورت بعد ذلك لتصبح هرما أو أهراما مدرجـة ، ثم ملساء ، أو شبه ملساء..

ولكنها عند المؤلف ، قد أقيمت لغرضين :

الأول – الاستطلاع من فوقها لرؤية العدو المهاجم .

الثانى – إطلاق السهام أو النيران الحارقة من فوقها لصد المهاجمين ومن أجل التحقيق العلمى لهذا الغرض الأخير ، الذى

افترضه المؤلف ، فقد راح يحسب ارتفاعات الأهرام وعلاقتها بمدى ومساحة الرؤية حولها من أجل الاستطلاع الناجح ، وأنه إذا لم يكف هرم واحد لتغطية كل المساحة المطلوب استطلاعها ، يبنى هرم آخر لتكملة النقص ، ويبنى ثالث أيضا إذا لزم الأمر ، وقد لزم فى أهرام الجيزة كما يقضى تصور المؤلف عن الغرض من بناء الأهرام ، وأن تفاوت أحجام الأهرام وارتفاعاتها ، ومواضعها ، إنما كان ذلك كله من أجل الخدمة العسكرية السديدة ، التى هى الوظيفة الأولى للأهرام فى الدفاع عن الوادى الخصيب وخاصة مدينة منف .

وقد لاحظ المؤلف ، اتساقا مع نظريته عن الغرض من بناء الأهرام ، أن قمة الأهرام لم تكن مدببة ، بل كانت مساحة تكفى ليقف فوقها من يستطلع أو يرمى السهام ، وأن ما قيل عن ضياع أو سقوط قمة الهرم الأكبر غير صحيح ، وأنه بنى هكذا فى الأصل .

وملاحظة أخرى تتفق مع نظرية المؤلف ، هى أن ما يسمى «مراكب الشمس» لم تكن لأغراض «جنائزية» كما ذهب مكتشفوها ، وإنما كانت قوارب يستخدمها المراقب إذا أراد الابلاغ عن قوة مهاجمة ..

وكذلك المبانى التى تكتشف بين الحين والآخر فى منطقة الأهرام ، كانت تقام للأغراض الادارية المتعلقة بالغرض العسكرى الذى بنيت من أجله الأهرام .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت بهـــذا التقديم فى إعطاء القارئ صورة كافية عن نظرية المؤلف في الغرض من بناء الأهرام ، وأترك بين يديه نص البرنامج الذى تركه المؤلف ، لعمله الذى لم يمهله القدر ليتمه ليستنتج منه القارئ ما يشاء ..

(المحرر)

برنامج الملحمة

١ – مصر قبل الوحدة [١]

٢ – الوحدة وعناصرها : وحدة سياسية – تحويل الفرع الغربى للنيل – مدينة عسكرية فى منطقة المفصل .

٣ – منف محور ثبات الوحدة واستمرارها ضد هجمات البدو المتضررين .

٤ – المرحلة الأولى للدفاع عن منف [السور + الدشم أو المصاطب] .

٥ – المرحلة الثانية :

قلعة سقارة ذات الهرم المدرج

أ – (الملائمة الوظيفية) للقلعة .

ب – الهرم المدرج (برج مراقبة + منصة إطلاق) .

---

(١) لم يكتب المؤلف شيئا تحت هذا العنوان وسوف تصادفنا فجوات من هذا النوع فى هذا الفصل الذى هو مجرد برنامج للباب الثانى من الكتاب الذى لم يتسع الوقت أمام المؤلف رحمه الله ليستوفيه كما أشرت من قبل . (المحرر)

جـ - أهمية الاستشراف عن بعد .

ء - الخريطة الطبوغرافية وخطوط الكنتور .

هـ - البروفيلات (١) وحدود الرؤية .

و - دوائر الرؤية .

ز - الرؤية من الهرم المدرج .

ح - ملاحظات على دائرة الرؤية من الهرم المدرج : الجيوب [أى الأجزاء التى يتعذر رؤيتها من على قمة الهرم - المحرر] .

ط - فائدة الهرم فى تخفيض القوة الأساسية والاعتماد على الاحتياطى .

٦ - المرحلة الثالثة (قلعة سقارة الثانية وهرم الطبقات) .

أ - قلعة سقارة الثـــانية ذات الهرم المدرج الـــثانى (سخم خت) .

ب - لماذا تخلو القلعة من مبنى البرلمان ؟ (٢)

---

(١) شرع المؤلف رحمه الله بالفعل فى قياس خطوط الكنتور الخاصة بالأهرام وهى تعنى الخط المحيط بنقط مبعثرة وكذلك البروفيلات وتعنى آفاق الرؤية من نقطة محددة وذلك إثباتا لنظريته والحسابات والرسوم الهندسية الخاصة بذلك موجودة ضمن أوراقه لمن يريد أن يتابع هذه الدراسة من الباحثين ولكننا لم نجد كثير جدوى فى محاولة نشرها ضمن هذا الكتاب . (المحرر)

(٢) كان المؤلف رحمه الله يفترض أن النظام السياسى للمصريين القدماء كان متطورا بحيث كان لديهم برلمان ولم يسعفه الوقت لكتابة فصل خاص فى هذا الموضوع . (المحرر)

جـ - أهمية القلعة الثانية .

- حصار قلعتين أصعب من حصار قلعة كبيرة .

- ظهور ضرورة وجود بوصلة يستعين بها المصريون فى الصحراء لمطاردة البدو .

- هرم الطبقات (خابا) : - مكانه بالضبط فى مكان الفجوة فى دائرة الرؤية .

- ارتفاعه محل جدال : نرجح أنه كان واطئا لأن أقل ارتفاع يكفى لكشف المنطقة التى هو فيها ، وأن استخدامه الأساسى كمنصة إطلاق .

٧ - صورة الدفاع عن منف بعد أهرام الأسرة الثالثة :

أ - استحالة غزو منف .

ب - صعوبة مهاجمتها بجيش كبير مباغت .

جـ - الاستغناء عن قوة أساسية كبيرة ثابتة .

ء - ابتداء تحول منف إلى مدينة آمنة واتخاذها الوظيفة المدنية (التجارة الخ .....) .

٨ - المرحلة الرابعة : أهرام الجنوب :

أ - هرم ميدوم لمراقبة هجوم البدو من جهة الفيوم ، أهميته للتحذير فقط عن طريق المرايا .

ب – هرما دهشور :

يلاحظ أن سنفرو بنى ٣ أهرام + واحد صغير + ٧ فى أماكن أخرى متفرقة ولم يدفن فى أى منها وإنما دفن فى ابيدوس – المؤلف .

– وصف الهرمين : أحدهما للمراقبة والثانى للمنارة المزدوجة .

– دائرة الرؤيا من هرم المراقبة .

– الهرم الصغير فى المنطقة التى يحجبها الهرم الآخر عن هرم المراقبة .

– فى نفس الوقت تجربة مزدوجة للتوصل إلى أنسب زاوية لرأس الهرم (أحدهما مقلطح والثانى مدبب) .

– لماذا تم التحول إلى الهرم المعتدل بدل المدرج ؟

– الفرق فى التكلفة أربعين فى المائة فى حالة تساوى الارتفاع .

– الهرم المدرج سهل الارتقاء من جانب المهاجمين ويلزمه قلعة مسوّرة لحمايته .

– الهرم المعتدل : الجزء السفلى منه أملس لا يرتقى إلا من نقطة واحدة يسهل الدفاع عنها .

- الهرم المعتدل أصلح لوظيفة البوصلة والمنارة المزدوجة .

- الموقف الدفاعي بعد أهرام الجنوب :

- دوائر الرؤية من المناطق الثلاث (سقارة / دهشور / ميدوم) وتلاحمها وأن التفاهم بينها كان بالمرايا .

٩ - المرحلة الخامسة :أهرام الشمال (الجيزة وأبو رواش) :

- دائرة رؤية الهرم الأكبر .

- دائرة رؤية هرم أبو رواش (هو الأهم) .

- أهمية الهرم الأكبر هي رؤية هرم أبو رواش .

- الارتفاع ليس هواية ولكنه ضرورة .

- الهرم الثاني - المنارة المزدوجة .

- الهرم الثالث : برج مراقبة في المكان الذي يخفيه الهرم الثاني عن قمة الهرم الأكبر (ومقارنة مع هرمي دهشور وثالثهما الصغير) .

- الطريق الصاعد إلى الهرم الأكبر وتحصيناته التي تدل على أنه طريق عسكري للنجدات .

- مراكب النجدة المسماة خطأ مراكب الشمس واستخدامها وملاحظة أن المراكب كانت عند الأهرام البعيدة عن منف فقط (هل الشمس لا تستخدم المراكب عندما تكون عند منف ؟!!) .

- المدينة العسكرية المحيطة بالأهرام .

- الأهرام الصغيرة : منصات إطلاق لحماية أبراج المراقبة وصد الهجمات .

- مدينة المدنيين «نزلة السمان) التى نشأت للخدمات المدنية للمدينة العسكرية .

- أبو الهول : رمز لا يخطئ : أسد له وجه انسان ، لا يمكن أن يكون هذا رمزا لمقبرة [هل نضع سلحفاة رمزاً لشركة طيران ؟]

١٠ - الموقع بعد الأهرام العشرة الرئيسية :

- سقارة ١ / سقارة ٢ / الطبقات / ميدوم / دهشور ١ / دهشور ٢ / جيزة ١ / أبو رواش / جيزة ٢ / جيزة ٣ .

- استحالة أى هجوم مباغت .

- تخفيض الاحتياطى (فضلا عن تخفيض القوة الأساسية المرابطة) .

- تعاون الأقاليم المختلفة فى التكاليف والرجال اللازمين للنظام الدفاعى الهرمى .

- مرحلة من الرخاء نتيجة للآتى :

- انخفاض التكاليف العسكرية .

- استصلاح الدلتا وخيراتها .

- ازدهار التجارة بين الشمال والجنوب .

- تحول منف إلى مخزن غلال .

- نظام هرمي يعتمد على المرايا

- إمكانية كاملة لإدارة المعركة من قلعة سقارة مع وجود جميع المعلومات منقولة بواسطة المرايا من الأهرام الأخرى ، وكذلك من القوات المهاجمة للبدو في الحزام الدفاعي الذي تغطيه دوائر الرؤيا .

- القوات المصرية بالصحراء لديها كل القدرة على تحديد مواقعها وتنسيق حركاتها مع القوات الأخرى ومع الأهرام بواسطة المرايا والبوصلات الهرمية التي تحدد البعد والاتجاه بمجرد النظر أو بأدوات بسيطة .

١١ - المرحلة السادسة : سد الثغرات :

أ - هرم بجوار قلعة سقارة في الركن الذي فيه البرلمان .

ب - أهرام على حواف الوديان : (الوديان أصبحت هي الطريق الوحيد المتاح للهجمات الصغيرة بهدف السطو وحده) .

جـ - أصبح الحل النمطي كلما تعرض مكان للهجوم هو

إقامة هرم نمطى الارتفاع (٥٢ مترا) مهمته المراقبة المحلية ومنصة إطلاق .

د – أهرام النصوص (١) دليل على ازدهار الأدب نتيجة ازدهار الحياة عموما وانتشار الرخاء .

هـ – بالتدريج بدأ عصر من الاسترخاء والاستمتاع بالحياة ، وزادت حرية المواطن على حساب مركزية الدولة .

و – تفككت مركزية الدولة لانتهاء حالة التعبئة ، التى صاحبت بناء الأهرام وعادت البلاد مجموعة من الأقاليم شبه المستقلة .

ز – بالتدريج انعكس الحال وأهملت المرافق التى كانت تعمل بجهود مركزية (مشروعات الرى إلخ ..) وظهرت مجاعات وحالات من الفوضى .

١٢ – المرحلة السابعة : أهرام الفيوم :

أ – تحول تركيز البدو إلى منطقة الفيوم يهاجمون منها الوادى ويهددون بقطع الدولة إلى نصفين عند الفيوم بدلا من عند منف .

---

(١) لعل صحتها «نصوص الأهرام» . (المحرر)

ب - بازدياد الخطر أحست الأمة بضرورة العودة إلى المركزية لمواجهته وقامت الدولة الوسطى .

جـ - الدولة الوسطى نقلت العاصمة (مركز الثقل) إلى «اللشت» موطن الخطر الجديد .

د - علمية ثلاثية مشابهة لعملية الوحدة الأصلية مكونة من ٣ عناصر :

- أهرام لحماية الوادى من جهة الفيوم .
- عاصمة مركزية جديدة فى اللشت .
- مشروع استصلاح فى الفيوم لتوطين البدو .

هـ - بعد - وأثناء - اكتمال الدفاع عن الفيوم توسعت الدولة (سيناء والصحراء الشرقية) وظهر عصر جديد من الرخاء .

و - أثناء الدولة الوسطى دعمت الدفاعات الشرقية (عين شمس) لمواجهة الخطر الجديد الذى بدأ يتجمع فى الشرق .

١٣ - غزو الهكسوس :

- جاء من الشرق راكبا الخيل والعربات التى تجرها الدواب

- أثناء حكم الهكسوس قاموا ببناء بضعة أهرامات صغيرة استمراراً لعملية « سد الثغرات » .

– البدو الغربيون لم يكونوا قد تعلموا استخدام الخيول ولذلك بقيت أهمية مواجهتهم بالأهرامات .

– بسقوط الهكسوس على يد أحمس تغيرت استراتيجية الدفاع تماما وأصبحت تعتمد على سرعة الحركة ونقل القوات إلى المواقع الاستراتيجية .

– آخر هرم فى التاريخ المصرى بناه «أحمس الأول» صغير جدا كأنه النقطة التى تأتى فى آخر الجملة الطويلة (Full Stop) .

– طبعا لم يدفن أحمس فى الهرم وإنما دفن فى وادى الملوك ووجدنا مومياءه فى العصر الحديث .

١٤ – الدولة الحديثة :

أ – لم يبن خلالها أى هرم .

ب – كان الملوك يدعمون الأهرام القديمة كقلاع للدفاع ما زالت ذات أهمية لمواجهة بدو الغرب ، وسجلت الآثار زيارات من أحمس ورمسيس الثانى والتكاليف التى أنفقوها على تحصين الأهرام (يسميها إخواننا [١] قرابين !!)

جـ – تضاءل بالتدريج دور الأهرام فى عصر الخيول والمركبات .

---

(١) يقصد المؤرخين الأوروبيين (المحرر) .

د – نستطيع أن نخمن أن الأهرام هجرت بالتدريج :

– أهملت الأهرام الصغيرة .

– ثم بقيت فقط القلاع الثلاث الرئيسية : سقارة ، دهشور، الجيزة .

– أهملت قلعة دهشور .

– أهملت قلعة الجيزة وبقيت قلعة سقارة وحدها كمعقل للدفاع المحلى عن «منف» .

١٥ – عصر الغزوات :

أ – جاءت كل الغزوات من الشرق .

ب – المرة الوحيدة التى غزا فيها «الليبيون» مصر كانت من الشمال الغربى من عند البحيرات بمعاونة بحارة من اليونانيين ، حيث أصبح من المستحيل تاريخيا غزو مصر من ناحية الصحراء الغربية .

جـ – نستطيع أن نؤرخ لانتهاء دور الأهرام تماما بحادثة غزو مصر على يدى « بفنخى » الملك النوبى الذى سجل هذه الغزوة على «حجر برقل» .

د – نرجع إلى نص حجر برقل الموجود فى كتاب أحمد كمال باشا : فنجد نصاً يقول إن پفنخى فتح منف من جهة النيل متحاشيا **الطابية الكبيرة** [1] التى كان يتحصن فيها الجيش المدافع عن منف .

وهكذا بقى هذا الهرم الشيخ ، يدافع عن مدينة منف مايزيد على ألفى عام ، لم تقتحم قلعته ولم تهدم ولم تهزم ، فارس قديم تحامته الأبطال وتحاشته الأقران ، حتى مات بالشيخوخة وهو واقف فى مكانه ... لأمته عليه ، وسيفه فى يده .

وبانتهاء دور هذا الهرم العتيق ، انتهت إلى الأبد الوظيفة الدفاعية لنظام الأهرام بأكمله ، وهجرها الجنود ، وأهملها الملوك ، حتى صارت أطلالاً تعشش فيها البوم والغربان ، وتسفى عليها الرمال ، ويلفها الزمان والنسيان فى خيوطهما العنكبوتية ، وتروى عنها القصص ، وتنسج حولها الأساطير .

١٦ – فصل عن قمة الهرم وكسوته الحجرية الملساء :

أ – لا بد أن القارئ تساءل :

– كيف كان «الناضورجى» يقف أو يجلس فوق الهرم ، مع أنه كانت له – كما هو مشهور – قمة مدببة لا يمكن الوقوف أو الجلوس عليها ؟

---

(١) أى قلعة الهرم المدرج (المؤلف) .

كيف كانوا يتسلقونه مع أن المعروف والمشهور أيضا أن الأهرام كانت تكسى بطبقة ملساء لا تسمح بتسلقها ؟

ب – عن قمة الهرم :

– نبدأ بقمة الهرم الأكبر : أين ذهبت ؟

– هل أسقطتها مدافع نابليون بونابرت ؟ كلا ، وإلاّ لوجد لها أثر يعرف .

– هل أسقطها المماليك قبل الحملة الفرنسية ، مستحيل لأن مدافعهم لم تكن تصل إلى هذا الارتفاع (١٥٠ مترا) ، ولم يكن لديهم قذائف تستطيع زحزحة هذه الكتلة التى يفترض أنها كـانت ٣م × ٣م من الجرانيت (حوالى ٣٠ طنا) .

– هل أسقطت قبل عصر المدافع ؟ من ذا الذى كان يستطيع أن يصعد ١٥٠ م بعدد من الرجال والروافع يكفى لإسقاط هذه القمة ؟

– هل سقطت وحدها بفعل الزلازل ؟ فأين ذهبت ؟ وأين الآثار التدميرية الهائلة التىٰ لا بد وأن تكون قد أحدثتها فى جسم الهرم ؟ [الضمير يعود إلى الزلازل فيما أعتقد – المحرر] .

– الخبر الوحيد الذى لدينا عن سقوطها هو للمؤرخ المصرى «ابن قتيبة» الذى يقول إنه يعتقد أنها أسقطتها الرياح !

وإذا صح ذلك فلابد إنها كانت من مادة خفيفة مفرغة .. كابينة أو كشكاً من الخشب لكى يجلس فيه الناضورجى ، أما أن تكون من الحجر فمستحيل .

– ننتقل إلى الهرم الثانى (خفرع) .. أين قمته ؟ بمربع ٥ × ٥ تقريباً .

– الهرم الثالث أيضا ليس له قمة .

– هرما دهشور ليس لأى منهما قمة .

باختصار ليس هناك هرم واحد موجودة عليه حاليا هذه القمة الافتراضية .

– الحجر الوحيد الذى يشبه أن يكون قمة هرم وجد عند أحد أهرام الفيوم – قطعة هرمية الشكل من الحجر المصمت وهى التى يرسمونها فى كل كتاب عن الأهرام باعتبارها نموذجا لقمة الهرم .

هذه القطعة لا تنطبق زواياها على زوايا الهرم الذى وجدت بجواره ، إذن فمستحيل أن تنتمى إليه ! ربما هى رأس هرم آخر ؟ سنرى !

– أيضا هذه القطعة لا تنطبق زواياها على زوايا أى هرم من الأهرام المائة المعروفة ، فما هى إذن ؟ ولماذا نفترض (وهماً) أنها قمة هرم ؟

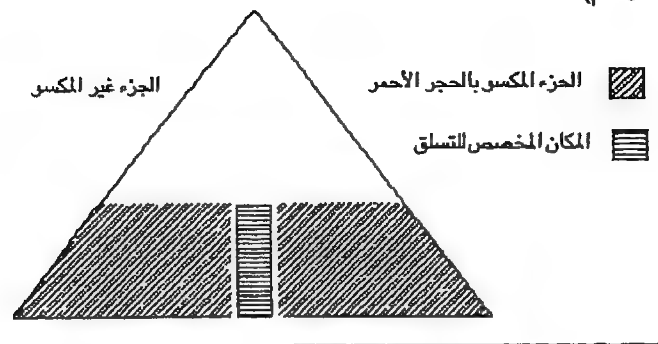
الإجابة أنها مجرد قطعة هرمية الشكل ربما كانت نموذجا مصغرا لهرم أو كانت تجهز لتوضع على رأس مسلة أو أى شئ آخر

لا نعرفه ، أما الأهرام فكلها كانت تبنى بدون قمة ولم يخطر ببال بناتها أصلا أن يكون لها قمة . وإنما هو من وهم الأثريين ومن إيهامهم وتمويههم على الناس ليعتقدوا أن الأهرام كانت لها قمم ، بحيث يستبعد الانسان أتوماتيكيا فكرة أنها كانت مخصصة للوقوف فوقها ومراقبة الصحراء . **غش علمى** !!!

جـ - عن كسوة الهرم :

- ليس هناك دليل على أن الأهرام كانت تكسى من أولها إلى أخرها بكسوة ملساء تمنع التسلق .

- ذكر أحد المؤرخين العرب[1] أن الهرم الأحمر (منقرع) كان مكسواً بالحجر الأحمر من أسفله ، وأن جزءا من هذه الكسْوة كان غير موجود ، أى الشريط الرأسى المخصص للتسلق (انظر الرسم) ..



(١) لم يذكر المؤلف رحمه الله اسم المؤرخ ، وليته فعل (المحرر) .

– ملحوظة أخرى : الهرمان الوحيدان اللذان بقيت الأجزاء العليا من كسوتهما هما : هرم خفرع ، وهرم دهشور الأحدب، أى : الهرمان اللذان هما غير مخصصين التسلق ، وإنما كل منهما هو «الفردة الميتة» من المنارة المزدوجة ، الأول لمنارة الجيزة ، والثانى لمنارة دهشور .

١٧ – فصل عن أهرام السودان :

– أهرام السودان كلها مصمتة .. ليس فيها أى فراغات داخلية (انظر كتاب أحمد فخرى عن الأهرام) ، يعنى : يستحيل أن تكون مخصصة للدفن .

– مقالة فى مجلة (National Geography) العدد.. (١) تقول أن السودانيين تعلموا من المصريين بناء الأهرام .. وتعلموا منهم كل شئ من الديانة إلى ... إلى ..... ، ولكنهم لم يتابعوهم فى عادة الدفن **داخل الأهرام** بالذات (تصور !) إذن لماذا بنوا الأهرام إذا كانوا لا ينوون أن يدفنوا فيها ؟ هل بنوها لكى لا يدفنوا فيها ؟ إذن فلماذا .. طبعا لكى تكون منارات وأبراج مراقبة ومنصات إطلاق .

---

(١) لم يذكر المؤلف رقم العدد لا فى هذا الموضع ولا فى الموضع التالى (المحرر) .

– مقال آخر فى نفس المجلة عدد (.....) ترى فيه جبل برقل .. وهو برج مراقبة طبيعى ممتاز ، أقاموا فى سفحه مدينة عسكرية (يسمونها معابد !) وابتكروا طريقة فى منتهى البراعة لتسلقه من مكان ضيق محدد سهل الدفاع عنه .

كاتب المقال المغفل يقول إنهم بنوا هذه المعابد لأن هناك شقا فى الجبل يشبه شكل الأفعى ، فأقامو المعابد وملحقاتها تقديسا لهذه الأفعى الوهمية !

علما بأن هذا الشق هو الخاصية التى مكنتهم من ابتكار طريقة لتسلق الجبل من مكان محدد ضيق يسهل الدفاع عنه ، لأن باقى جوانب الجبل« مظلطة » لا يمكن تسلقها .

– هذه مجرد ملاحظات أولية ، وتنقصنا الخرائط الطبوغرافية والمعلومات الكاملة عن أهرام السودان ، ولذلك نتركها للباحثين السودانيين لدراستها على هدى النتائج التى توصلنا إليها فى أهرام مصر .

١٨ – نبذة عن أهرام أمريكا :

أيضا لا نعرف عنها الكثير ، ولكن نعلم أنها لم تكن قبوراً ونعلم أن بناتها استخدموها لمحاربة الأسبان ودارت حولها وفوقها معارك فاصلة انتهت بهزيمة الأهالى وانتصار الأسبان .

إذن جميع الأهرام فى جميع القارات كانت للاستشراف ولقذف السهام أو القذائف ... لا غير .

ملحق رقم ١ :

تكاد تكون من البديهيات المسلم بها ، أن الهرم الأكبر - ثم الهرمين الآخرين الأقل منه حجما - قد بنيت خصيصا لكى يكون كل منها قبرا لفرعون مصر، بديهية بسيطة شديدة الإقناع ، يزيد من قوة إقناعها التراكم الهائل من شهادات المؤرخين القدماء والمحدثين وعلماء التاريخ والآثار ، حتى لتكاد لا تقبل المناقشة .

وأعترف للقارئ أن هذه البديهية - أو ما يبدو كأنه أمر بديهى ، قد كان منذ زمن بعيد يمثل عندى فى آن واحد : غصة فى حلقى ، وتساؤلا محيرا يحتاج إلى إجابة واضحة كيف يكرس هذا الشعب الكبير ، المتحضر فى زمان قل فيه المتحضرون ، الجزء الأكبر من طاقاته العاملة اليدوية والفنية ، مضافا إليها تلك التكاليف الباهظة من المواد والحيوانات والآلات ، لمدة تقل أو تزيد على عشرين عاما ، لمجرد أن يبنى قبرا يدفن فيه فرد ؟

مهما قيل عن عظمة ذلك الفرد ، وعن خضوع ذلك الشعب مهما قيل عن إيمان الشعب بأن فرعون إله أو نصف إله ، مهما قيل عن ولاء الشعب لآلهته وديانته وكهنته وطقوسه ونظامه الحاكم ، يظل العقل عاجزا عن تصور أن يرسل هذا الشعب عشرات الألوف من رجاله ، ثلاثة أشهر من كل عام ، عاما بعد عام ، عشرين أو ثلاثين مرة متتالية ، ليقيم هذا الصرح الشامخ ، من أجل ذلك الهدف - بناء قبر .

وأعجب منه أن تتكرر هذه المهزلة ، ولو بدرجة أقل - فى جيلين تاليين ، يقام فيهما قبران ثان وثالث لملكين آخرين هما خفرع ومنقرع ، بل وأعجب من ذلك مرة أخرى ، أن يتوقف هذا الجهد الخرافى فجأة - أو يكاد - بعد ذلك ، إلا من أهرامات صغيرة متناثرة لبعض الملوك الآخرين ، ثم ينتهى ما يسمى «عصر بناة الأهرام» . ثم لا تتكرر هذه الظاهرة بعد ذلك قط فى التاريخ المصرى الطويل ، رغم أن الديانة المصرية وإيمان الشعب بها لم يتغيرا تغيرا يذكر لعدة قرون ، ورغم أن مصر حكمها بعد بناة الأهرام ملوك كثيرون ، منهم من هو أعظم ثراء ، وأوسع نفوذا ، وأعتى جبروتا من خوفو وأولاده ، لم يخطر ببال واحد منهم أن يصنع لنفسه مثل تلك «القبور» أو قريبا منها .

الصورة قبل الأهرام :

ولعلنا إذا استطعنا أن نمد بصرنا عبر القرون ، ونتخيل ما كانت عليه أرض مصر وسماؤها قبل بناء هذه الأهرام ، وأن نجمع بعض الحقائق المعروفة التى تبدو كأنهامتفرقة لا رابط بينها إلاّ المصادفة ، لعلنا نستطيع أن نجد الإجابة المقنعة عن هذا السؤال المحير فمن هذه الحقائق مايلى :

أولا : إن الأهرامات كلها : صغيرها وكبيرها ، ما سبق منها

هرم خوفو وما تلاه ، قد بنيت فى منطقة واحدة هى منطقة مصر الوسطى ، الواقعة بين منف القديمة (ميت رهينة الحالية) وهضبة الأهرام أو شمالها ببضعة كيلومترات ، وهى المنطقة التى تضم : سقارة ودهشور والجيزة وميدوم إلخ ...

وتتميز هذه المنطقة ذاتها بأن مجرى النيل فيها كان يتسع ويتفرق إلى عدة فروع كبيرة وصغيرة ، وأن مياه الفيضان كانت تغمر هذه المساحة الهائلة ، فتصبح بحيرة موسمية مترامية الأطراف ، إلاَّ يحدها إلا المقطم من جهة الشرق ، وهضبة الأهرام وانحداراتها من جهة الغرب . مسطح هائل من الماء ، ثلاثة أشهر من كل عام ، لا تظهر فيه أية معالم ، سوى بعض التلال الرملية الواطئة التى أقيمت فوقها تجمعات سكانية متشابهة ، وقليل من الأشجار والنخيل ، ثم لا شىء سوى الماء . لا شىء .. ولا معلم يهتدى به الملاح السائر بسفينته أو زورقه على صفحة هذه البحيرة. لا شىء يعينه على تحديد الاتجاه الذى يسير فيه ، أو يعينه على تمييز شماله من جنوبه ، أو شرقه من غربه – إن كان سائرا بالليل – قبل أن تخترع البوصلة بآلاف السنين .

ثانيا : إن جميع هذه الأهرامات قد أقيمت على الحافة بين الوادى من ناحية ، والصحراء الغربية من ناحية أخرى . هذه

الصحراء المنبسطة التى تشبه بدورها بحرا متراميا من الرمال والتلال القليلة المتشابهة ، مرة أخرى بلا معالم يهتدى بها المسافر فيها ، بخلاف الصحراء الشرقية الغنية بجبالها ووديانها ومعالمها الثابتة . وأيضا بخلاف الصعيد الذى تحدد فيه المعالم . بمجرى النيل وسلاسل الجبال على جانبى الوادى .

ومن المعروف بالطبع أن الفراعنة كانوا يبنون قبورهم جهة الغرب ، ولكن يبقى التساؤل : لماذا لم يبنوا هرما واحدا على الضفة الغربية للصعيد الأعلى ، فى وادى الملوك مثلا ؟

ثالثا : إن الفيضان كان عندما يأتى ، يزيل جميع المعالم والحدود التى صنعها الانسان فى باقى شهور السنة . وعندما ينحسر تبقى الأرض صفحة منبسطة خالية من العلامات ، ويحتاج الأمر إلى إعادة تحديد معالمها مرة أخرى، بعمليات مساحية دقيقة ، تعتمد بالضرورة على نقطة أو عدة نقاط «ثابتة» يتم منها قياس الأبعاد – أو رصدها .

رابعا : أنه بعد بناء الهرم الأكبر بصفة خاصة، بدأت عملية استمرت حوالى مائتى عام ، هى بقية عمر الأسرة الرابعة (بناة الأهرام) والأسرة التى تلتها ، وتمت خلالها نهضة زراعية ورعوية هائلة ، تضمنت إنشاء العديد من مشروعات الرى الكبرى فى منطقة

الدلتا ، من شق الترع ، وتقويم مجرى النيل ، وتسوية الأراضى ، وردم المستنقعات ، وإقامة الجسور . وهو ما كان يستلزم بالضرورة وجود ما يسمى فى علم المساحة الحديث «روبيرات» ، أو نقطا معلومة الموقع والارتفاع بشكل دائم لا يتغير ، تقاس منها - أو ترصد - ارتفاعات وانخفاضات وأبعاد غيرها من النقط .

خامسا : يضاف إلى هذه الحقائق ، وإن كان ليس أقلها أهمية ، المقاسات الدقيقة التى بنيت عليها الأهرامات ، وبخاصة الهرم الأكبر الذى بلغت درجة الدقة فى بنائه أن الخطأ فى مقاييسه لا يتجاوز جزءا واحدا من ٢٥٠٠ جزء ، أى أقل من نصف ملليمتر فى المتر الواحد ، أو أقل من ١٠ سنتيمترات فى طول الهرم كله ، والذى يبلغ ٢٣٦ مترا .

ومن ناحية أخرى ، وضعت خطوطه البسيطة الحاسمة ، بحيث تنطبق وجوهه الأربعة على الجهات الأصلية الأربع انطباقا شبه تام ، لا يقل فى دقته عن مقاييس الهرم نفسه .

أما النسب بين أطوال الهرم وبين ارتفاعه ، فإنها لم توضع أيضا كيفما اتفق ، بل ضبطت بحيث تكون النسبة بين ارتفاع الهرم وطول قاعدته ، هى نصف النسبة الدائرية المشهورة «ط» وبخطأ لا يكاد يذكر . وليت شعرى لماذا يتحرى من يريد بناء «مجرد قبر» كل هذه الدقة وكل هذا الضبط !!

ثم بعد الهرم الأكبر :

فلنتخيل إذن أنه فى وسط هذه المساحة الهائلة المنبسطة الخالية من المعالم الثابتة ، وضعت كتلة حجرية ضخمة ، ذات مقاييس واتجاهات معروفة بالضبط ، ونسب مشهورة ، فى مكان محدد تحديدا لا يقبل الخلاف ، وعلى ارتفاع ظاهر لكل عين ، تراه على بعد عشرات الكيلومترات بل مئاتها ، لا تخطئه العين بشكله المميز الفريد ، سواء فى ضوء النهار أو حتى على خلفية من الضوء الباهت الذى لا تخلو منه سماء مصر ، حتى فى أشدُّ الليالى حلكة وأكثفها غيوما .

ثم لنرى ماذا يفيد ملاحنا التائه ، ومسافرنا القادم من الصحراء ، ومساحنا الذى يريد أن يعيد تحديد الأراضى بعد الفيضان ، ومهندسنا الذى يعمل فى شق الترع وبناء الجسور .

١ - أما الملاح فقد وجد أمامه منارة أو فنارا لا يحتاج إلى أى ضوء ، يهتدى به فى سيره طوال العام ، ويعرف بمجرد النظر إليه مكانه الذى هو فيه ، والاتجاهات الأصلية المحيطة به ، ويعرف من الحجم الذى يظهر له فيه الهرم - على وجه التقريب - بعده عن هضبة الأهرام ، فيستطيع بذلك أن يتجه إلى المكان الذى يقصده دون خطأ يذكر .

ونفس الشيء بالنسبة للجندى العائد من غزو الصحراء أو المتجه اليها ، أو المسافر العادى فى هـذا البحـر المترامى من الرمال .

٢ – وأما المساح والمهندس ، فقد قيض الله لهما نقطة ثابتة الموقع ، والارتفاع ، والمقاسات ، والاتجاه ، كل فى آن واحد . يستطيع الواحد منهما ، باستخدام آلة بسيطة لقياس الزوايا – أن يحدد زاوية ارتفاع قمة الهرم وزاوية ارتفاع قاعدته ، ثم تصبح أمامه مسألة بسيطة من مسائل حساب المثلثات (الذى لا شك قد برع فيه الفراعنة ، وإلاّ لما استطاعوا أن يبنوا الهرم نفسه) . مسألة يحلها طالب فى السنة الأولى الثانوية فى عصرنا هذا ، يعرف بها على الفور : بعده عن الهرم ، والناحية التى يقف فيها منه ، والمسافة الرأسية التى تفصله عن قمة الهرم أو قاعدته ، ثم مكانه بالنسبة لأى نقطة أخرى معلومة الموقع والمنسوب بالنسبة لنفس الهرم .

وبالطبع – كانت حسابات صاحبنا المساح تزداد دقتها كلما ازداد قربه من الهرم ، وتزيد نسبة الخطأ فى حساباته كلما ابتعد عن الهرم ، أى كلما صغر فى عينه الحجم الذى يظهر له فيه.

حتى إذا بلغت المسافة بينه وبين الهرم ٢٠ كيلو مترا مثلا ، أصبح الخطأ كبيرا لا يمكن التجاوز عنه ، ولا الاعتماد على النتائج الحسابية المترتبة عليه .

ولكن من السهل أن نتصور إمكانية التغلب على هذه المشكلة، لو افترضنا وجود نقط محلية ثابتة متفرقة ، كالأهرامات الصغيرة أو المسلات مثلا ، معلومة أماكنها وارتفاعاتها بالنسبة إلى النقطة الثابتة الرئيسية - الهرم الأكبر - فيسهل الرصد أو القياس منها في الدائرة المحيطة بها ، ثم نسبتها إلى نقطة معلومة أخرى وهكذا .

٣ - ونستطيع أن نضيف إلى هذه الفوائد فائدة أخرى يحتاج إليها الفلكي الذي يرصد النجوم . فهو في حاجة أيضا إلى نقطة واضحة غاية الوضوح ، ثابتة على الأفق ، ينسب إليها مواقع النجوم ، ومسارات الكواكب ، ودورة الشمس والقمر، فيراقب سيرها ويقيس زواياها ويسجل أوضاعها بالنسبة إلى هذه النقطة الثابتة - وهي رأس الهرم في هذه الحالة - بأقل قدر من الخطأ ، هذا فضلا عن تحديد اليوم من السنة تبعا لموقع الشمس وهي تغرب فوق رأس الهرم ، يتغير موضع غروبها بتغير فصول السنة . فتكون رأس الهرم بمثابة نتيجة سنوية يقرؤها الفلكي المتخصص بدقة تامة ، ويعرف منها حتى الفلاح البسيط تاريخ يومه على التقريب .

جهاز حضارى للجميع :

إذن فإننا بإقامة هذه الكتلة الحجرية الهائلة ، نكون قد منحنا كل ملاح ، ومساح ، وفلاح ، ومهندس ، وفلكى ، وجندى ، ومسافر على أرض منطقة مصر الوسطى والصحراء المجاورة لها ، بضربة واحدة ، جهازا يملكونه جميعا (على المشاع) ، ويستخدمونه دون أن يصيبه البلى لعدة آلاف من السنين ، جهازا يؤدى فى وقت واحد ما تؤديه ، فى أيامنا هذه الأجهزة التالية مجتمعة :

١ – الفنار .

٢ – البوصلة .

٣ – الخريطة .

٤ – روبير الارتفاعات .

٥ – المرصد والتقويم .

ألا يستحق هذا الجهاز الهائل الخالد ، أن يكدح من أجل بنائه شعب متحضر ، مدة عشرين أو ثلاثين عاما ؟!

ألم يكدح نفس هذا الشعب ، بعد أربعة آلاف سنة من بناء الأهرام ، لكى يشق الترع والرياحات ويبنى القناطر فى عهد محمد على ؟ ثم ليصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة السويس فى عهد إسماعيل ؟ بل ألم يكدح جيلنا نفسه ، لمدة عشر سنوات أو تزيد ، ليقيم السد العالى ، وهو واحد من مشروعات الرى ، شبيه

بالمشروعات التى يقول التاريخ إنها استغرقت مائتى عام تالية على عصر الأهرامات ، والتى تولدت عنها نهضة زراعية هائلة فى الدلتا ، والتى كان الهرم الأكبر – فى اعتقادى بما يقارب اليقين – حجر الزاوية فى بنائها ؟

صحيح أن العهود التى أقيمت فيها هذه المشروعات قد تميزت بدرجات متفاوتة من القهر وطغيان الحكام ، سواء فى تسخير الشعب لإنجازها ، أو فى إلزامه بالتقشف والحرمان والانضباط ، والطاعة العمياء للسلطة المستبدة الظالمة فى كثير من الأحيان . ولكن الشعب إذا كان من الممكن تسخيره فى عمل مفيد يعود عليه وعلى أولاده بالنفع ، فإن من المستحيل فى تصورى أن يحتمل هذه السخرة وهذا القهر من أجل غرض سخيف مثل ... بناء قبر .

الهرمان الثانى والثالث :

ثم جاء الهرم الثانى ، أصغر من سابقه ، ولكنه أقيم على ربوة عالية ، فأصبحت رأسه فى نفس مستوى رأس الهرم الأكبر أو أعلى قليلا . وحددوا مكانه إلى الجنوب الغربى من الهرم الأكبر بالضبط . فأصبح قطراهما الشماليان الشرقيان واقعين على خط مستقيم واحد . توأمان عملاقان لا تخطئهما العين من على بعد مئات الكيلومترات .

وأصبح وضع كل منهما إزاء الآخر - فى ذاته - هو الدلالة الحاسمة على الاتجاه . فإذا ظهرا لك متجاورين ، فأنت تنظر إلى اتجاه الشمال الغربى (أو الجنوب الشرقى) . وإذا حجب أحدهما الآخر فأنت تنظر فى اتجاه الشمال الشرقى (أو الجنوب الغربى) وإذا ظهرا لك بين هـذا وذاك فأنت فى اتجـاه بين الاتجـاهين ، وهكذا .

بقى فى هذه البوصلة عيب طفيف ، لبس قد يقع فيه التائة فيختلط عليه الأمر ، ولا يميز بين الهرم الأكبر وأخيه الأوسط ، نظرا لتشابههما وتقارب ارتفاع قمتيهما .

وجاء الحل البسيط المباشر ، هرم ثالث أصغر بكثير من سابقيه ، يقام إلى الجنوب الغربى أيضا من الهرم الأوسط ، ولكن بالتقريب هذه المرة لا بالضبط . فالمطلوب منه فقط أن يعين الرائى على تمييز الهرم الأوسط (وهو القريب من الهرم الصغير المتميز بحجمه) عن أخيه الهرم الأكبر .

وتمت المنارة ، وانضبطت البوصلة ، واكتملت الخريطة ، بلا لبس ولا خطأ .. أعجوبة من أعاجيب العقل الإنسانى !

ومن الطريف أن نشير إلى أن فكرة البوصلة هذه ، قد استخدمها فن العمارة الإسلامية ، ومازال يستخدمها . عند بناء المآذن العالية ، إذ يوضع فى رأس المئذنة هلال كبير ، يبدو لأول

وهلة وكأنه نوع من الزينة . ولكنه في الحقيقة يؤدى وظيفة البوصلة فإذا نظر إليه الرائى بحيث تكون دائرته كاملة الاستدارة ، فهو مواجه لاتجاه القبلة . ويراعى البناء ون ضبطه على هذا الوضع بدقة كبيرة . أما المساجد ذات المئذنتين ، فيضبط الخط الوهمى الموصل بين المئذنتين بحيث يكون عموديا على اتجاه القبلة ، فيستطيع من يريد الصلاة وهو على بعد عشرات الكيلومترات من المسجد ، أن يعرف الوجهة التى يصلى إليها بمجرد النظر إلى هاتين المئذنتين التوأمتين .

ونفس هذه الفكرة مطبقة فى كثير من الكنائس فى البلاد الأوروبية ، فيضعون فوق أبراج الكنائس سهما يشير إلى الشمال ، وديكا متحركا يشير إلى اتجاه الرياح ، رغم أن مدى الرؤية هناك أقل مما هو عندنا ، بسبب الأحوال الجوية والعوائق المادية ، كالأشجار والمبانى العالية ، والتى تخلو منها ، أو كانت تخلو منها سماء مصر ، فى العصر الذى بنيت فيه الأهرامات .

ملوك مدفونون .. ولكن :

ومع ذلك .. تبقى حقيقة مؤكدة . أن كلا من هذه الأهرامات قد استخدم بالفعل لدفن الملك الذى بناه ، وربما أيضا زوجه أو أولاده ، وهذا ثابت مقطوع به فى التاريخ وفى الاكتشافات الأثرية ، أول دليل عليه هو البعثة التى أرسلها المأمون بن الرشيد ، لتكتشف

مدخل الهرم الأكبر . وتقول المصادر العربية إن هذه البعثة قد توصلت بالفعل إلى اكتشاف المدخل والممرات المؤديه إلى حجرة الملك ، ثم وجدت هناك تابوتا به رجل ميت ، فأخرجوه ودفنوه على الطريقة الإسلامية .

نحن لا نجادل فى أن الملوك كانوا يدفنون فى تلك الأهرامات . ولكن ما لا يقبله العقل هو أن يكون الهدف الوحيد . أو الهدف الأساسى ، أو حتى أحد الأهداف الهامة لهذا البناء الشامخ ، هو أن يضم رفات إنسان .

فكثير من الصروح الشامخة والمشروعات الكبيرة دفنت فيها أجساد بانييها ، أو سجلت عليها أسماؤهم ، تخليدا لذكراهم وتذكيرا للناس بأن الفضل فى إقامة هذا البناء العظيم ، يرجع إلى هذا الرجل العظيم ، ولذلك فقد دفن فيه جسده ، أو نحت عليه اسمه أو رسمه .

وأقرب مثال إلينا : المساجد العريقة التى تزخر بها مصر نفسها ، والتى قصد منشئوها إلى تحقيق أغراض دنيوية وأخروية عديدة ، ليس أقلها : إقامة الصلاة ، واجتماع المسلمين ، ونشر التعليم ، وإيواء المسافر ، وجمع الصدقات إلخ ... ثم بالإضافة إلى ذلك - لا قبل ذلك - يدفن الملك أو السلطان ، أو الولى الصالح فى نفس المسجد ، تخليدا لذكراه ، وتذكيرا للناس بفضله .

فالقول بأن الهرم قد بني خصيصا ليكون قبرا للملك ، لا يقل سخفا – في رأينا – عن القول بأن المساجد قد بنيت لكي يدفن فيها السلاطين والأولياء ، أو أن السد العالي قد بني لكي تنشأ جنوبه بحيرة تحمل اسم جمال عبدالناصر ، أو أن قناة السويس قد شقت لكي يقام على مدخلها تمثال لفرديناند ديلسبس.

ونعود إلى نظرية «القبر» هذه . ما منشئوها ، وما أصلها ؟

أما القرآن الكريم ، فقد سماها «أوتادا» ولم يسمها «قبورا» تسمية توحي بالثبات والرسوخ وامتداد الأسباب إليها ، كما تمتد حبال الخيمة (و أسبابها في اللغة العربية القديمة) ، فتربط قماش الخيمة الرخو إلى نقطة «ثابتة» هي الوتد ، أو كما تمتد خطوط الربط المساحي – في رأينا – فتصل بين الشيء غير المستقر ، وهو الوادي الذي تتغير ملامحه بعد كل فيضان ، وبين «الوتد» الثابت المستقر .

هذا عن القرآن الكريم – أصدق الحديث – لا نجد فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى أن هذه الصروح كانت قبورا ، مع كثرة ما جاء في الكتاب الكريم من إدانة لطغيان الفراعين وتجبرهم فمن أين إذن جاءتنا حكاية «القبور» هذه ؟

رواية هيرودوت

إن أقدم نص معروف لنا ذكرت فيه هذه الأهرامات ، ووردت

فيه الإشارة إلى أنها بنيت لتكون قبورا ، هو كتابات المؤرخ الإغريقى «هيرودوت» ، الذى عاش ومات فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأمضى عدة سنوات فى مصر ، يجوس خلالها ويشاهد معالمها ويسجل ما نمى إليه من تاريخ دولها وملوكها ، بالإضافة إلى مشاهداته وانطباعاته الشخصية عن عادات أهلها وتقاليدهم وديانتهم الخ .. سجلها كلها فى كتابه التاريخى عظيم الأهمية .

ونلاحظ على هذا المصدر الهام - وربما الوحيد - عن عصر بناة الأهرام ، ما يلى :

١ - أن المدة التى تفصل عصر بناة الأهرام عن عصر هيرودوت هى حوالى ألفى عام ، وهى بالتقريب نفس المدة التى تفصل زمان هيرودوت عن زماننا هذا . فقد عاشت الأسرتان الثالثة والرابعة اللتان بنتا الأهرامات ، فى القرنين السادس والعشرين والخامس والعشرين قبل الميلاد (٢٦١٣-٢٤٩٤ق.م) بينما عاش هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد كما ذكرنا (٤٨٤-٤٢٥ق .م) . وهى مدة تكفى لاندثار كثير من المفاهيم والمعلومات القديمة ، وزوال كثير من الاستخدامات التى كانت تستخدم فيها الأهرامات ، أو انقضاء الغرض منها ، بعد أن تمت المشروعات التى أقيمت ، أو تيسر إقامتها ، بفضلها .

٢ - أن هيرودوت نفسه لم يذكر كلمة «القبر» صراحة فى

معرض حديثة عن الأهرامات ، وإنما كان يستخدم عبارات مثل «وبنى الملك فلان لنفسه هرما ....» ، والاعتماد هنا على الترجمة الإنجليزية لكتابه المكتوب أصلا باللغة اليونانية القديمة . فهو لم يذكر صراحة كلمة «قبر» ، رغم أنه أفاض فى شرح نظريته عن الطريقة التى بنيت بها الأهرامات ، والتكاليف التى تكبدها المصريون لإقامتها .

٣ - أنه اعتمد - حسب قوله هو نفسه - فى كلامه عن طغيان الملك خوفو والملوك التالين له ، اعتمد على كلام الكهنة المصريين المعاصرين له ، والذين كان أكبر انتقاد وجهوه إلى الملك خوفو ما فحواه « أنه أوقف بناء المعابد ، وتقديم القرابين للآلهة ، وكرس كل طاقات شعبه لإقامة هرمه» .

ولعل فى هذه العبارة وأمثالها ما يشير إلى سبب سخط الكهنة الذين قابلهم هيرودوت ، على الهرم وبانيه ، لأنه أوقف الإنفاق على معابدهم ، وتقديم القرابين لآلهتهم ، فأصاب مصالح أسلافهم الأقدمين ونفوذهم فى الصميم . كل ذلك ، لكى يبنى هذا الهرم الذى لم يتبق فى سجلاتهم ولا فى ذاكرتهم عنه ، إلاَّ ما يوحى بأنه قد بناه من أجل مجده الشخصى ، سواء فى هذا العالم أو فى العالم الآخر ، حقد قديم توارثوه عشرات القرون ، ونقلوه إلى مؤرخنا ، الذى أخذ كلامهم على علاته ، وسجله - مشكورا - فى كتابه .

٤ - إن من يتأمل فى السبب الذى أدان به الكهنة بناء خوفو لهرمه ، وسخطهم عليه الذى دام ، حتى عهد هيرودوت ، ألفى عام ، يجد فى طيات هذا السبب نفسه ما يدحض نظرية «القبر» هذه . فإذا كان خوفو قد بنى هرمه ضد رغبة الكهنة ومصالحهم ، ضاربا بسخطهم وسخط آلهتهم عرض الحائط ، فكيف نتصور أن يكون غرضه الأساسى من بنائه ، هو تخليد جسده وروحه فى العالم الآخر ، الذى تحكمه نفس الآلهة التى أهمل معابدها ، وأوقف قرابينها ، وأسخط كهنتها ؟

أليس التفسير الأقرب إلى المنطق أنه قصد بذلك العمل الكبير إلى أغراض «دنيوية» ، ومادية ، من نوع الأغراض التى ذكرناها ؟

فرواية هيرودوت - إذن - أقل ما يقال فيها أنها أولا ضعيفة ، وثانيا غير محددة ، وثالثا مشوبة بالهوى والغرض من ناقليها ، ورابعا تعتبر دليلا ضد نظرية القبور ، لا دليلا على صحتها . رواية تدل - إن دلت - على أن الأهرامات قد بنيت لتكون أدوات حضارة لشعب حى .. لا قبرا لرجل ميت .

إصبع الاتهام :

ويبقى السؤال : من أين جاءت هذه الفكرة إذن .. بل هذه الإشاعة - إذا أردنا أن نسمى الأشياء بأسمائها ؟

فى ظنى أن أصبع الاتهام تشير إلى النظرة الاستشراقية المتعالية التى تتميز بها غالبية كتابات الأوروبين عن الشرق وأهله وأمجاده . خليط من الاستهزاء ، والسطحية ، والاستظراف أحيانا ، تظهر بعض بذورها فى كلام هيرودوت نفسه عن بعض عادات شعب مصر والأمم الشرقية الأخرى .

فمنذ خضعت بلادنا ، ومنطقتنا ، بل العالم كله - عسكريا وحضاريا ، للغزوة الأوروبية الحالية ، التى بدأت بعدعصر نهضة أوروبا ، تصدى علماء تلك الحضارة الغالبة لدراسة تاريخنا ، بل ولغتنا وديننا وجميع شئون حياتنا تقريبا .

وقاموا - نعم - بجهود عظيمة مشكورة فى كثير من الأحيان جهود لا ينكرها إلاّ جاحد أو مكابر .

ولكن بقيت عندهم تلك النظرة العجيبة ، التى تتوقع الغرابة، وتبحث عن التفسيرات المثيرة لدهشة القارئ الغربى ، ثم ذلك الدافع الدفين للتقليل من شأن منجزات شعوب الشرق ، ونسبتها إلى الأوهام تارة ، وإلى الشهوات الدنيئة أخرى ، أو إلى خضوع الشرقيين للحكام مرة ثالثة ، ومن بينها .. حكاية ، أو إشاعة «القبر» هذه ، التى جاءتنا عن ذلك الطريق ، فصدقناها وأجريناها مجرى البديهيات .

بل لقد بلغت ببعض مفكريهم سعة الخيال ، ولا أقول الحقد الدفين ، أن ينشئ نظرية طويلة عريضة ، ويؤلف فيها كتابا يقرؤه الناس ، ليقول إن الأهرام قد بناها أشخاص يسميهم آلهة ، أو رواد فضاء جاءوا من كواكب بعيدة ليقيموا هذه الأهرامات ، ثم عرجوا مرة أخرى إلى حيث جاءوا .. إلى السماء !

يتكلف المؤلف كل هـذا الجـهد ليقيم هذه النظرية ، فى هـذا القـرن العشرين بعـد الميـلاد ، لمجـرد أن نفسـه لا تطيق أن يصـدق أن شعبـا من الشعوب المغلوبة ، وهو الشعب المصرى فى هـذه الحالة ، هو بانى هذه الصروح فى فترة من فترات تاريخه البعيد .

ورغم أن هذه النظرية لا تستحق الرد أصلا ، لتفاهتها الواضحة ، فلا بأس أن نذكر فى إيجاز حقيقة واحدة تهدمها من أساسها .

فالثابت أن صناعة بناء الأهرام قد تطورت فى مصر على مدى حوالى ثلاثة قرون ، ابتداء من المصطبة الواحدة ، إلى المصطبتين ، إلى الهرم المدرج ، إلى الهرم الناقص ، إلى الهرم

المدبب ذى الزاوية الحادة ، إلى الهرم المفلطح ذى الزاوية المنفرجة.. حتى تكاملت ووصلت إلى ذروة الإتقان والضخامة فى بناء الهرم الأكبر ، ثلاثمائة عام من التجربة والخطأ والتعديل والتحسين ، ثلاثمائة عام لم تكن «آلهة» المؤلف المذكور فى حاجة إليها . ولا كان رواد فضائه ، الذين بلغوا من التقدم والمعرفة أن يعبروا الفضاء بين الكواكب ، محتاجين إلى أن يمضوها فى التجربة والخطأ .

والأعجب من هذه الفكرة المذهلة ، أن بعض مفكرينا – من أبناء بناة هذه الأهرام نفسها – قد تلقفوا تلك الفكرة ، وطبلوا لها وزمروا ، وكأنها الوحى المنزل ، أو التفسير النهائى القاطع للغز عملية بناء الأهرام .

فالعيب كل العيب – ليس فى الغريب المستهزئ ، بل فينا نحن ، عندما نتلقف كل ما يقولونه عنا ، فنصدقه دون تمحيص ، ناسين – أو متناسين – أن الحضارة ولدت ونشأت وتطورت على هذه الأرض .

تحضرنى فى هذه المناسبة عبارة نجيب محفوظ التى ختم بها رائعته المظلومة (أولاد حارتنا) :

« ولكن آفة حارتنا .. النسيان » ..

ملحق رقم ٢ :

ذكرنا في المقال السابق الأسباب التي نعتقد أنها كانت الدافع للمصريين القدماء إلى إقامة هذه الصروح الشامخة وعددنا الوظائف الحضارية التي استخدموها فيها : من المنارة إلى البوصلة إلى الروبير المساحي إلخ .... ، مخالفين بذلك النظرية السائدة القائلة إن هذه الصروح لم تكن إلاّ قبورا للملوك ، ورموزاً لعظمتهم وتسلطهم على شعبهم .

وإذا كنا قد زعمنا للقارىء أننا قد عثرنا على تفسير منطقي متكامل لهذه الظاهرة الفريدة في التاريخ . فإن من حقه علينا أن نقدم بضعة حقائق معروفة . سجلتها كتب التاريخ والآثار ، وأشرنا إلى بعضها إشارات مقتضبة في المقال السابق ، بينما ضاق المجال عن ذكر بعضها الآخر .

أولى هذه الحقائق أن المدة الزمنية بين عصر بناة الأهرام وبين عصر «مينا» موحد الوجهين ، لاتزيد عن ٤٠٠ عام . وهي مدة قصيرة بمقياس التاريخ القديم والتاريخ المصري على وجه الخصوص .

فقبل بناء الأهرام بهذه المدة . كان قد وقع أهم وأول حدث عظيم في التاريخ المصري ، وهو اتحاد - أو توحيد - مملكتي الشمال والجنوب في مملكة واحدة . جاء مينا من الجنوب (حوالي

٣١٠٠ ق.م) بعد أن أكمل الجنوبيون زراعة واديهم الضيق على جانبى مجرى النيل . ثم جاءوا يحملون معهم تراثا طويلا من الخبرات الهندسية والزراعية ، اكتسبوها من عمليات التسوية المتصلة للأرض . وشق القنوات ، وبناء الجسور . وحفر المصارف، وردم المستنقعات على مدى زمنى لايقل عن ألفى عام . ويحملون معهم أيضا – القوة البشرية العاملة ، والقوة العسكرية التى فرضت على مملكة الشمال الدخول فى الوحدة .

وكانت مملكة الشمال لاتقل تقدما عن مملكة الجنوب – إن لم تزد – فى مجالات الصناعة والتعدين والفنون . إلاّ أنها كانت بطبيعتها الجغرافية التى تميز مصابّ الأنهار منطقة تتفرق فيها فروع النيل وتتوزع بغير ضابط . وتنتشر فيها المستنقعات فلا تترك للزراعة المنظمة إلاّ مساحات قليلة بالمقارنة إلى المساحة الهائلة للدلتا .

فكأنما جاء قيام الوحدة على يد مينا ، كخطوة أساسية لابد منها ، ومقدمة لعملية تعبئة لجهود الشماليين والجنوبيين جميعا ، للقيام بمشروع قومى كبير ، لاستصلاح أراضى الدلتا الشاسعة ، وزراعتها بكفاءة لاتقل عن كفاءة الصعيد – أو الوجه القبلى .

وكانت أهم الخطوات التنفيذية التى اتبعها مينا ، ومن بعده ملوك الأسرتين الأولى والثانية هى :

١ – إقامة حكومة مركزية قوية تتبع منها جميع السلطات ، وما يستتبعه ذلك من نظام إدارى محكم .

٢ – إنشاء عاصمة جديدة للدولة (منف) قريبا من منطقة المفصل ، أو نقطة التقاء الوجهين . لتحل محل العاصمتين القديمتين فى الشمال والجنوب .

٣ – تحويل مجرى النيل عند منطقة مصر الوسطى ، وهو أول تغيير جغرافى معروف ، افتتح به المصريون السلسلة الطويلة من التغييرات الجغرافية التى أدخلوها على خريطة بلادهم ، والتى تكررت بعد ذلك عبر التاريخ . كأنها هواية قومية يمارسونها عند كل تحول كبير فى تاريخهم (من استصلاح الدلتا – إلى الفيوم – إلى الإسكندرية – السويس – السد العالى ...) . وكانت عملية تحويل المجرى هذه ضرورية لتوفير المياه للرى بدلا من ضياعها فى الصحراء أو تحويلها إلى مستنقعات لايستفاد منها .

٤ – باكتمال أركان الدولة المركزية وانتهاء عملية تحويل المجرى ، بدأ على الفور التخطيط للمشروع الكبير ، لاستصلاح الدلتا وكان الهرم المدرج فى سقارة ثم الأهرامات التى تلته ، هى الركائز الأساسية للتخطيط والتنفيذ لهذا المشروع الكبير ، وتركزت كما ذكرنا فى منطقة واحدة هى منطقة مصر الوسطى ، وبالتحديد

فى مساحة يبلغ طولها حوالى ٣٠ كيلومترا ، من أبو رواش شمالا إلى دهشور جنوبا ، كلها فى هذه المنطقة ، إلاّ هرما واحدا منفردا فى ميدوم ، على بعد ٦٠ كيلومترا جنوبى دهشور . وكان آخرهم هرم معروف بنوه - هرما متواضعا فى سقارة ، بناه الملك تيتى حوالى عام ٢٣٤٥ ق . م . ثم انصرف الملوك تماما عن بناء الأهرامات ، وكأنها كانت «موضة» افتتنوا بها ثلاثمائة عام ، ثم أهملوها فجأة وعادوا يدفنون فى مقابر عادية ، ومرت بمصر فى نفس الوقت فترة من الازدهار ، والرخاء تعتبر من أزهى فترات تاريخها ، بفضل مشروع الدلتا العظيم .

الحقيقة الثانية :

استصلاح الفيوم

مرت بمصر بعد فترة الازدهار هذه ، فترة أخرى من التدهور ، تفكك فيها نفوذ الدولة المركزية ، وقامت الحروب الأهلية من جديد بين الشمال والجنوب وعمت الفوضى مياه الرى ، وقلت غلات الأرض حتى عرف المصريون المجاعة أكثر من مرة .

ثم دخلت مصر عصرا جديدا يمكن أن نسميه عصر الصحوة ، أو «عصر ملوك الفيوم» فأعاد الجنوبيون توحيد المملكة شمالها وجنوبها مرة ثانية فى عهد امنحتب الثانى من ملوك الأسرة الحادية عشرة (٢٠٤٠ق.م) أيضا بالقوة العسكرية للجنوبيين تماما

مثل عهد مينا .

كانت الفيوم حتى ذلك الحين . منطقة مهملة تكاد تكون معزولة عن الوادى ، أرضا بورا مترامية الأطراف ، مساحتها حوالى خمس مساحة الدلتا ، منخفضة عن بقية أرض مصر ، لاتستخدم إلاّ كمصرف لمياه الرى فى الصعيد ، ولا يسكنها إلاّ سكان قليلون ، يعمل أغلبهم فى صيد الأسماك ، وقليل من الزراعة وتتعرض باستمرار لهجمات البدو من الصحراء التى تكاد تحيط بها من كل جانب ، تفصلها عن الوادى فى أقرب نقطة منه مسافة من الصحراء عرضها ١٥ كيلومترا ، أو مسيرة يوم كامل بوسائل النقل والسفر المتاحة فى ذلك الحين .

وإذا نظرنا إلى مواقع هذه الأهرامات الفيومية الجديدة ، نجد أنها تمثل سلسلة متصلة كأنها محطات على طريق واحد ، أو مجموعة من الأسهم يشير آخرها إلى الفيوم ، ويبدأ أولها من منطقة الأهرامات القديمة :

١ - أولها فى دهشور - حقل الأهرامات القديم -أضاف إليه ملوك الفيوم هرما جديدا ليكون هو نقطة الربط بين الأهرامات القديمة والجديدة .

٢ - الثانى عند اللشت - العاصمة الجديدة - الواقعة فى منطقة «المفصل» بالقرب من مركز الأحداث ، على بعد ٢٧ كيلومترا جنوبى دهشور .

٣ - المحطة الثالثة فى ميدوم على مسافة ٢٠ كيلومترا جنوبى اللشت ، حيث لم يبن ملوك الفيوم هرما جديدا مكتفين ، فيما يبدو - بهرم الملك هونى القديم المدرج ، الذى أحاله القدماء أو ربما ملوك الفيوم أنفسهم - إلى هرم كامل بسد الفراغات بين درجاته ثم كسوته بالحجر المصقول .

٤ - المحطة الرابعة : هرم بنوه فى اللاهون - على بعد ٤٠ كيلومترا إلى الجنوب الغربى من هرم ميدوم - بالضبط عند النقطة التى يصل فيها الوادى إلى أضيق مسافة بينه وبين الفيوم .

٥ - الخامس والأخير وربما كان الأخير فى الترتيب الزمنى أيضا (١٨٦٠ ق .م) فى هوارة على حافة منخفض الفيوم مباشرة - بالقرب من قلب المنخفض على بعد حوالى ١٢ كيلومترا من هرم اللاهون .

ونلاحظ على هذه الأهرامات الجديدة ، أنها تختلف عن الأهرامات القديمة اختلافات جوهرية أهمها .

١ - أنها كلها ذات شكل هرمى منتظم - لا مدرج ولا

ناقص ولا مدبب الخ .. بل كلها ذات وجوه أربعة منتظمة ، وكأنهم استقروا على هذا الشكل للعلامة المساحية واعتبروه نمطا لا يحيدون عنه .

٢ - أنها أصغر بكثير من الأهرامات القديمة ، ربما لاقتصار وظيفتها الرئيسية على وظيفة العلامة المساحية - أو «الروبير» - الذى ترصد منه وإليه المسافات من مكان قريب أو لضيق المدى الذى تستخدم فيه كمنارة أو فنار فالمسافات بينها كما ذكرنا من ٢٠ إلى ٤٠ كيلومترافقط .

وأما الغرض من مد هذه السلسلة من المحطات أو الثوابت المساحية إلى منطقة دهشور ، وربطها ربطا وثيقا بالأهرامات القديمة ، فأعتقد أنه كان لتحديد منسوب كل هرم بدقة تامة - بالنسبة إلى الهرم الأكبر ، أو «الروبير» الأكبر ، الذى أرجح أنهم اتخذوه مقياسا مطلقا للمنسوب ، كما نتخذ نحن فى هذا العصر سطح البحر مقياسا مطلقا ، فيقولون مثلا . إن نقطة كذا تقع على ارتفاع ١٥ ذراعا من قاعدة الهرم الأكبر (أو قمته) كمانقول نحن : على ارتفاع سبعة أمتار مثلا من سطح البحر . فبدون هذا المقياس المطلق لايمكن نسبة ارتفاعات وانخفاضات النقط الأخرى إلى بعضها البعض ، أو تحديد ارتفاع الماء مثلاً فى مكان ما ، بالنسبة

إلى مكان آخر ، لغرض شق ترعة أو بناء جسر بينهما .

فكأن مصر - بعد تفكك الدولة الموحدة الأولى - قد وجدت نفسها فى نفس الظروف التى مرت بها قبل مينا (دولة ممزقة ، واد ضاق بمن فيه ، أزمة طعام طاحنة) فلجأت إلى علاج هذه المشكلة بنفس «الوصفة» القديمة التى تداوت بها فى عصر الأسرات الأولى، فاستخرج أبناؤها وثائق وتفاصيل تلك الفترة من مستودعات المعابد ، وطبقوها - بصورة مصغرة هذه المرة ، ولكن بنفس الخطوات ونفس التسلسل الزمنى :

- دولة مركزية موحدة .
- عاصمة جديدة قريبة من مركز الأحداث .
- أهرامات تستخدم أساسا للأغراض المساحية .
- ثم مشروع زراعى عظيم . هو الغاية الحضارية التى يهدف إليها هذا البرنامج ، وتكون أهم ركيزة مساحية وهندسية له هى هذه الأهرامات .

الحقيقة الثالثة : نظام هندسى ومنهج علمى

الأمثلة لا تحصى على التقدم العلمى الذى وصل إليه

الفراعنة ، وفى كل يوم تضيف الكشوف الأثرية شاهدا جديدا على هذه الحقيقة ، ولعل أشهر مثال لها هو علم التحنيط الذى مازال سرا مغلقا ، حتى فى وجه العلم الحديث .

ولكننا سنقتصر هنا على مثالين متعلقين بفن الهندسة والعمارة عامة ، وبناء الأهرام خاصة .

المثال الأول : عن الذراع المعمارى الذى استخدموه وحده للقياس : وهو يساوى حوالى ٥٢ سنتيمترا ، وكان كل من يعمل فى الحقل الهندسى أو يحتاج إلى القياس فى أى صناعة يحمل «مسطرة» خشبية طولها ذراع على الأقل ، مقسمة إلى ٢٨ قيراطا ، كل قيراط منها طوله سنتيمتران تقريبا . وكانت القراريط بدورها مقسمة إلى كسور القيراط ، فالأول مقسم إلى قسمين متساويين ، والثانى إلى ثلاثة أقسام . وهكذا ، حتى القيراط الخامس عشر المقسم إلى ١٦ قسما متساويا لايزيد طول كل منها عن ملليمتر واحد إلا قليلا . ومعنى ذلك أن كل حامل لهذه المسطرة الخشبية كان باستطاعته قياس الأطوال بدقة فلا يزيد الخطأ فى قياسه عن ملليمتر واحد أو نصف المليمتر .

وكانت هذه المساطر الخشبية تضبط . مرة كل عام على الأكثر على مساطر عيارية من الحجر الصلد ، محفوظة فى أماكن

أمينة حتى لاتتعرض للخدش والتجريح ، تماما مثل مقياس «المتر» البلاتيني المحفوظ فى متحف اللوفر بباريس ، والذى كان يعتبر – حتى عهد قريب – المرجع الأخير لمعايرة «الأمتار» الأخرى ، نظام صارم من التوحيد القياسى، يمثل لغة واحدة يتكلمها كل مشتغل بالأعمال الهندسية أو الصناعات : ابتداء من المهندس المصمم إلى الصانع المنفذ .

المثال الثاني : عن زاوية رأس الهرم فمنذ قرر بناة الأهرام الانصراف عن الشكل المدرج ، ذى الخطوط المتعددة الرأسية والأفقية إلى الشكل الهرمى المبسط ذى الأربعة وجوه . واقتناعهم بأن هذا الشكل هو أنسب الأشكال لأداء وظائف البوصلة والمنارة . بالإضافة إلى وظيفة العلامة المساحية . واجهتهم مشكلة اختيار زاوية رأس الهرم . وكان عليهم أن يتوصلوا إلى أنسب زاوية تجمع فى آن واحد بين أقصى ارتفاع ممكن للهرم . وأكبر قدر من المتانة للبناء ، وهذه هى الزاوية التى تسميها علوم الهندسة الحديثة : «زاوية الراحة» ANGLE OF REPOSE .

فأنت إذا سكبت كمية من المواد الحبيبية كالرمل أو الزلط أو الحجارة – بصورة عشوائية – تجدها تتشكل من تلقاء نفسها فى صورة مخروط قاعدته دائرة تستقر على الأرض ، وقمته نقطة فى

أعلى المخروط . ويشكل كل نوع من المادة – عند رأس المخروط – زاوية محددة لا تتغير بتغير حجم المخروط ، ولكنها تختلف من مادة إلى أخرى – تبعا لتغير أحجام الحبيبات وأوزانها وشكلهابوجه عام، زاوية «ترتاح» إليها المادة ومن هنا جاء اسمها ، وكلما اقتربنا فى البناء المخروطى أو الهرمى من هذه الزاوية كان البناء أكثر استقرار وثباتا .

وتوصل بناة الأهرام – غير مسبوقين – إلى هذه الزاوية ، باستخدام منهج علمى تجريبى محكم ، فأقاموا فى عهد سنفرو هرمين · أحدهما تنحدر جوانبه بزاوية حادة إلى حوالى ثلاثة أرباع الارتفاع ، ثم تتغير الزاوية فى أعلى البناء (ويسمى بالهرم الأحدب) ، والثانى ذو زاوية منفرجة ويسمى بالأفطح) . ولا نعرف على وجه الدقة ماهى التجارب التى أجروها على هذين الهرمين . ولكننا نعرف أنهم اهتدوا إلى «زاوية الراحة» هذه بدقة عظيمة ، زاوية أكبر من الزاوية الحادة الأولى ، وأصغر من المنفرجة الثانية . وطبقوا هذه النتيجة فى بناء هرم خوفو (ابن سنفرو مباشرة) . فكانت هى الحل الأمثل لهذه المسألة ، بدليل ما أثبته الهرم الأكبر من رسوخ وصمود على الزمن .

ثم سار بناة الأهرام الآخرون فى كل العهود التالية لخوفو

على هذا الدرب ، يختارون زاوية رأس الهرم مساوية أو قريبة من زاوية هرم خوفو ، مع اختلافات طفيفة ربما كان سببها اختلاف أحجام وأوزان وأنواع الأحجار المستخدمة - كاختلاف الحبيبات المسكوبة في شكل مخروطي كما ذكرنا .

قوم استخدموا هذا المنهج العلمي الدقيق ، وتوصلوا إلى هذه النتيجة الرائعة وطبقوا نظاما صارما للتوحيد القياسي .. هل يعقل أنهم وظفوا عبقرياتهم العلمية والهندسية ، دعك من قواهم العضلية ، لمجرد بناء قبر ؟

الحقيقة الرابعة :

أسئلة بلا إجابة

هي في الواقع مجموعة من الظواهر التي نجدها منطقية ، مترابطة ، بل وضرورية أحيانا ، في ضوء النظرة الحضارية لبناء الأهرام ، نهديها إلى أصحاب نظرية القبور ، في صورة أسئلة على طريقة «الفوازير» وعذرا للأستاذ صلاح حافظ ، ونطالبهم بإجابات واضحة عليها .

١ - لماذا توقف ملوك مصر عن بناء قبورهم على هيئة أهرامات بعد هرم «تيتي» وعادوا إلى نظام القبور العادية ؟ ألأنهم

«تعبوا» كما يقول بعض المؤرخين فاستراحوا مدة ٤٠٠ سنة ؟ أم لأنهم اكتشفوا كما يقول بعضهم الآخر ، أن الهرم أسهل فى سرقة محتوياته من القبر العادى ؟ وأيهما أسهل أن يتسلق اللصوص الهرم ليراهم ملايين الناس وهم يسرقونه ، أم أن ينبشوا قبرا مخبوءا فى الصحراء .

٢ - لماذا عادوا إلى بناء الأهرامات فى عصر الفيوم ؟ هل «نسوا» الدرس الذى اكتشفه أسلافهم فعادوا يعرضون محتويات قبورهم للسرقة فى الأهرامات ؟ أم أنهم استراحوا كما قلنا ، فعادوا ثم تعبوا مرة أخرى فاستراحوا إلى الأبد ؟

٣ - لماذا بنى الملك «هونى» - آخر ملوك الأسرة الثالثة - هرما فى ميدوم ، مبتعدا مسافة ٧٠ كيلومترا عن «جبانة» آبائه فى سقارة ؟ ولماذا بالذات على بعد ١٥ كيلومترا من الركن الشمالى الغربى من منخفض الفيوم ؟

٤ - لماذا بنى سنفرو هرمين اثنين فى دهشور : أحدهما أحدب ذو زوايتين ، والثانى كامل الاستقامة وإن كان أفطحا ؟ هل كانت لسنفرو جثتان فاحتاج إلى قبرين ؟

٥ - لماذا بنى الملك «رزديف» ، وهو الملك التالى مباشرة لخوفو قبل خفرع ، هرما فى أبو رواش على مسافة ١٥ كيلومترا ، إلى الشمال الغربى من هرم خوفو ؟ ولماذا جاء هذا الهرم أصغر

بكثير من الهرم الأكبر ، ألأنه كان رجلا متواضعا ، بعكس سلفه خوفو وخلفه خفرع ؟ أم أنه أراد أن يبتعد بهرمه الصغير عن منافسة هرم خوفو الكبير ؟

٦ – لماذا جاءت حقول الأهرامات فى أبو رواش وزاوية العريان وأبو صير ، واقعة على خط مستقيم واحد مار بالهرم الأكبر ، رغم تباعدها بمسافة ٢٠ كيلومترا ؟ أهى صدفة خير من ميعاد – نضمها إلى القائمة الطويلة من «المصادفات» المتعلقة ببناء الأهرامات .

٧ – سؤال أخير – الفضل فيه لأخى الدكتور عبدالرحمن جابر – لماذا كانوا يكسون الأهرامات بطبقة مصقولة تجعلها تلمع فى الضحى تحت ضوء الشمس ، ثم فى الدجى على سنا القمر وبصيص النجوم فى سماء مصر الصافية ، فيراها من بعيد كل سار بالليل ، أو سار بالنهار ؟ أهى لمجرد الزينة ، أم ماذا ؟

هناك عبارة قديمة للمؤرخ هيرودوت (مصر هبة النيل) اعتبرناها طويلا من النصوص المقدسة التى لا تمس ، حتى خالفها عبقرى المكان : الدكتور جمال حمدان ، فأثبت أن مصر هبة الإنسان المصرى أولا ، ثم النيل ثانيا .

ولا بأس أن نضيف هنا أن الدلتا بصفة خاصة ثم الفيوم من بعدها ، هما هبة الإنسان ، والنيل .. والهرم .

فهـــرس

رقم الايداع : ٢٣٠٦ / ١٩٩٣

I . S . B . N

977 - 07 - 0250 - I

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول . الصفاة ـ ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V N

هـــذا الكتـــاب

يطرح هذا الكتاب نظرية جديدة تماما، مؤداها أن الأهرام المصرية لم تنشأ لكى تكون قبورا، وإنما تكبد المصريون القدماء مشقة بنائها من أجل أغراض حياتية وعمرانية، أهمها أن تكون قلاعا للدفاع عن أرض مصر وخاصة مدينة منف التى كانت عاصمة البلاد مدة طويلة ومركزا للتقدم العلمى والحضارى على أرضها.

ومؤلف هذا الكتاب هو المهندس الأديب الراحل زهير على شاكر، الذى سبق أن نشر له الهلال كتابا بعنوان «الغراب الأبيض» فى تحليل ظاهرة سلمان رشدى وروايته " آيات شيطانية "

وقد نشر هذا الكتاب الجديد بعد وفاة مؤلفه، تجميعا من أوراقه المتناثرة، ولكن المادة التى يحتويها كافية جدا لبيان وجهة نظره، بما فى ذلك مناقشته لكثير من الأفكار السائدة عن التاريخ المصرى القديم، والتى يعتبرها مغلوطة من أساسها. وذلك لأن هذه الأفكار هى من صنع الكتاب الأوربيين الذين عالجوا التاريخ المصرى القديم بقدر كبير من الاستخفاف وربما التحقير المتعمد لتاريخ هذه الأمة العظيمة.

إنها دعوة لمدرسة جديدة مستقلة، مصرية عربية خالصة، فى واحد من أهم فروع المعرفة، وهو التاريخ القديم لمصرنا الخالدة.